الشيخ حسين كوراني

في محراب فاطمة "عليها السلام"



دار الهادي
بيروت - لبنان

في محراب فاطمة الزهراء (ع)

بسم الله الرحمن الرحيم

في محراب فاطمة الزهراء (ع)

الشيخ حسين كوراني

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الإهداء..

إلى كل موحد عمر قلبه حب الله تعالى..

أو عقد القلب على الحب جاداً في الوصول إليه..

مدركاً أن السبيل هو اتباع المصطفى الحبيب ﷺ.

والمقياس.. رضا الصديقة الكبرى.

وإلى روح الإمام الخميني، وشهداء المقاومة الإسلامية في كل مكان..

أقدم هذه الكلمات..

المقدمة..

هذه دروسٌ أُلقيت في الشام (مصلى السيدة زينب عليها السلام) في أعوام ١٤١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ هجرية.. ضمن سلسلة أسبوعية، مساء كل جمعة تحت عنوان «أساسيات في الفكر والسلوك».

وقد أعدتُ النظر فيها محافظاً على طابع الحديث العام.. كما أعدتُ كتابة الحديث الرابع، وأضفت في آخر الدروس موضوع «آداب ولايتها عليها السلام.. وأخطر الحجب» للتوسُّع في ما كان تم تناوله باختصار، وقد اشتمل على تحقيق حول ملحق الخطبة الفاطمية.

من سمات الحديث العام ذكر خلاصة ما تقدم.. لينسجم السامع الجديد مع الجو..

ومن سماته تكرار استحضار المفاصل الأساسية التي ينبغي التأكيد عليها خاصة عندما تمس الحاجة إلى ذلك.. وقد كان ظرف هذه الدروس يستدعيه بإلحاح... وفي هذا ما يجيب على بعض تساؤلاتك وأنت تتابع هذه الأوراق فقد كان أكثرالمستمعين من زوّار عقيلة الوحي الصِّديقة الصغرى عليها السلام القادمين من بلدان شتى.. مما يفرض طبيعة متسائلة ومتحركة في جمهور المستمعين.. وطريقة مستجيبة لذلك في تقديم المادة...

وحيث أن النقاط المنهجية.. تحظى بحيِّز هام في ما ستقرأ.. ونظراً لأهمية البحث في المنهج.. فقد تبلورت فكرة كتابة مستقلة ـ شارفت الإنجاز ـ حول مقاربة مكانة المعصوم، والنص..

فالموضوعان: هذه الأوراق، و«في المنهج» متكاملان..

وهو سبحانه المرجو أن يجعلهما خالصين لوجهه الكريم.. ليكونا مساهمة في نقل الاهتمام من الشخص إلى المنهج ومن القول إلى المنطلقات.. وفيها تكمن الخطورة.. وهي المستهدف أولاً وبالذات.. طلباً لرضا الله تعالى.. والحمد لله رب العالمين.

حسين كوراني

بيروت: ١٣ شعبان ١٤٢٢هـ

بسم اللّه الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ألحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا ونبينا نبي الرحمة والهدى أبي القاسم محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

السلام على سيدنا ومولانا قائدنا وهدانا ونور أبصار الورى والبصائر بقية الله في الأرضين صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله تعالى وبركاته[١].

---

(١) افتتاح الأحاديث.

(١)

أجواء الولادة

وخطورة «المنهج» السائد

* تمهيد . .
* فرادة السرور . . والغربة . .
* نموذج من كلمات العلماء الأعلام . .
* ما معنى وجه الله؟ . .
* على روح العصر أن تنسجم مع الإسلام . .
* تحدث أمها وهي جنين . .
* أشرقت الأرض بنورها .

(١)

الجمعة ٢٠ ج٢ ١٤١٧هـ

في أجواء ذكرى ولادة مولاتنا الزهراء عليها الصلوات الرحمٰن لا بد أن تكون الوقفة على عتبة قرة عين الرسول صلى الله عليه وآله.

وقبل حديثين، وبمناسبة شهادة مولاتنا عليها السلام، وقفت على أعتابها. ولكن.. هل يمكن لمناسبة تقترن باسم الزهراء عليها السلام أن تمرّ بنا دون الوقوف في رحاب عزيزة المصطفى الحبيب وقرة عينه؟

أعد ذكر نعمانٍ لنا إن ذكره　　هو المسك ما كررته يتضوع

يدعو إلى ضرورة الوقوف كثيراً بباب الزهراء أن معرفتها هي معرفة الله عز وجل، ومعرفة المصطفى الحبيب والأئمة جميعاً، معرفة الزهراء دين ينبغي أن يعقدالقلب عليه. صحيح أن معرفتها كما ينبغي.. أو فقل: «حق معرفتها» لا يتاح إلا للصفوة، ولكن.. صحيح أيضاً أننا نتدرّج في سفحٍ نتصور أنه معرفة الزهراء، فندرك على الأقل ملامح من هاتيك العظيمة التي تَداخلت منزلتها مع منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله...

في البداية أيها الأحبة.. كيف ينبغي أن ندخل إلى مجلس الزهراء؟ عند ولادتها... كيف كان الجو في مكة؟

وهذه الأيام.. كيف هو الجو في السماء وفي الأرض عند الذين يعرفون الزهراء ·· كيف هو جو مولاتنا زينب عليها صلوات الرحمٰن وهي تستقبل ذكرى ولادة أمها الزهراء؟.. هل يشبه ما في السماء من احتفال بذكرى ولادة الزهراء ما تحدثنا عنه الروايات عن ذلك الاحتفال السماوي العجيب عندما سطع نور الزهراء، وإذا بذلك النور الزاهر في الجنة ولم يُعهد من قبل، وإذا بالملائكة يتعجبون: ما هذا النور؟ فيأتيهم الجواب أنه نور الزهراء عليها السلام.

في مطاوي الحديث سوف أورد بعض النصوص التي توضح لنا هذه

الحقيقة. أريد في البداية أن نعيش معاً هذا الجو العام الذي عاشته مكة.. وبيت المصطفى الحبيب، وعاشه رسول الله ﷺ نفسه ومعه خديجة أم المؤمنين.. رضوان الله تعالى عليها. تلك الفرحة الغامرة التي كانت بَذْراً فاطمياً سطع نوره في ذلك الظلام المقيم.. ظلام تلك الغربة الدامسة التي كانت تسد الآفاق. كانت الجاهلية مطبقة.. بُعث المصطفى الحبيب ﷺ وبدأت رحلة المعاناة.

في أجواء هذه المعاناة كانت ولادة الزهراء.

كيف كانت معاناة مولاتنا خديجة التي اختارت رسول الله ﷺ؟ ألا نقرأ في كتب التاريخ والسيرة أن نساء قريش قاطعنها فلم تعد واحدة منهن تكلمها.. كنّ يمنعن أية امرأة تريد الدخول إليها.. إذاً، ليست الغربة فقط هي تلك الغربة التي عاشتها الزهراء عليها السلام في الدنيا، ولا تلك الغربة التي عاشتها الزهراء عليها السلام على أبواب شهادتها، ولا فقط تلك الغربة التي عاشها أمير المؤمنين وأهل البيت عندما شُيّعت الزهراء في غربة.. وفي ظلمة الليل، وإنما ولدت الزهراء غريبة، وعاشت غريبة، واستشهدت غريبة، وشيّعت غريبة، ولم يعرف قبرها إلى الآن.. **«وطوبى للغرباء»**.

غربة الزهراء غربة الحق، ولا يمكن للحق أن يحظى بإجماع الناس عليه.. وقليل ماهم

الحق ثقيل مرّ.. **«حفّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»**. طريق النار سهل! ما أشد ما نسرع فيه ثم نحاول أن نلجأ إلى ركن ركين ليعصمنا الله عز وجل.

بدأت غربة الزهراء عليها السلام قبل ولادتها.. رأت غربة أمها فكانت تحدثها (كما سيأتي معنا إن شاء الله تعالى).

في هذا الجو سطع نور الزهراء عليها السلام.

تصور أيها الحبيب فرحة رسول الله ﷺ! التي يمكن القول إنها لم تكتمل.. كأني به ينظر إلى الزهراء وينظر إلى ما سيجري عليها من بعده، كما فعل بأبي عبد الله الحسين عليه السلام عندما أخذه من يد أم أيمن.. قال: **«عزيز**

عليّ أبا عبد الله» يذكرالمولى عبدالله الرضيع في يوم ولادة أبي عبد الله الحسين. . إذا كان المؤمن ينظر بنور الله تعالى. . فكيف بالمعصوم. . وكيف إذاً بمن هو سيد المعصومين جميعاً ومن عِلْمه مظهر عِلْم الله تعالى.

طبيعي جداً أن الفرحة قد شابها الحزن. فاطمة. . هذه العظيمة التي سمعتم قول الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه عنها: «**لو كانت رجلاً لكانت نبياً**»، **أعني لو فرضنا أن الرسول ﷺ لم يبعث وكانت هي موجودة فبالإمكان أن تكون الزهراء نبياً**. . أي أن عظمة الزهراء متداخلة مع عظمة رسول الله ﷺ، ومع عظمة أمير المؤمنين الذي هو نفس رسول الله ﷺ كأني به ﷺ يفرح. . ثم يشوب فرحه الحزن، ولكن المورد في النتيجة مورد فرح وشكر للنعمة الإلّهية العظمى. . وما أدراك ما فاطمة؟

تصوّر أيها الحبيب فرح مولاتنا خديجة رضوان الله تعالى عليها، تصوّر فرح أبي طالب. .وفاطمة بنت أسد، تصوّر لو أن والدي رسول الله ﷺ موجودان آنذاك. . كم هي فرحتهما، وكم هي فرحتهما في العالم الآخر!!

كيف ندخل إلى مجلس التبريك. .

نريد أن ندخل إلى مجلسٍ للتبريك بذكرى مولاتنا. . بجوار مولاتنا زينب عليها السلام. . الذي يدخل إلى بيتٍ وُلِدَ فيه مولود. . كيف يدخل؟ صحيح أننا نتحدث الآن بعد أربعة عشر قرناً. . ولكن العظماء بتمحضهم في الله تعالى فوق المكان والزمان ولا يستطيع الموت أن يطويهم (أوليائي تحت قبابي لا يموتون وإنما يُنقلون من دار إلى دار). هذه الأيام ذكرى الولادة، والسماء في بهجة، ومن في الأرض ممن يعرفون الزهراء في فرحة، المولى صاحب العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف في سرور، لذلك تزف التهاني في مثل هذه الأيام. ماذا نقدم ونحن نريد أن ندخل إلى مجلس التبريك؟ ما هي هديتنا؟ ألا يأخذ الشخص معه هدية عندما يدخل إلى بيت ولد فيه مولود؟ ما هي الهدية التي نقدمها؟ سأقترح عليكم هدية آمل أن تنفعنا نفعاً كبيراً. نأمل أن لا يرد لنا معها طلب بإذن الله عز وجل. .

ليلتزم كل منا بألف مرة: «اللهم صل على محمد وآل محمد» هدية منه إلى

المولى عبد المطلب[١]، والمولى أبي طالب، ومولاتنا فاطمة بنت أسد، ووالدي رسول الله عبد الله وآمنة، وكذلك إلى مولاتنا خديجة، وإلى مولاتنا زينب، وإلى مولانا حمزة عم رسول الله ﷺ.

بعد هذا التمهيد أذكر نموذجين من كلمات بعض علمائنا الأعلام وهم يتحدثون عن الزهراء عليها السلام:

النموذج الأول: لآية الله الشيخ محمد حسين الأصفهاني المعروف بالكمپاني أو الغروي.

من هو آية الله الشيخ محمد حسين الأصفهاني؟ هو العالم الجليل والفيلسوف الإسلامي الكبير ـ الذي يفتخر السيد الطباطبائي صاحب «تفسير الميزان» بأنه تتلمذ على يده ست سنوات.. والسيد الطباطبائي يعتبر فيلسوف الإسلام في هذا العصر ـ يعتبر أن الله عز وجل منّ عليه بلطف خفيّ فوُفِّق للتتلمذ على يد هذا العالم..

هذا العالم الجليل له قصائد في أهل البيت.. في المصطفى الحبيب وآله الأطهار. وقصائده تكشف عن لغة علمائنا.. هذه اللغة التي يتحدث بها الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه، والتي يتحدث بها الشيخ المفيد رضوان الله عليه، والتي وردت في كتاب «الكافي» وفي كتاب «بصائر الدرجات» أو في كتاب «الاختصاص» للشيخ المفيد أو المنسوب إليه، وغيرها من المصادر.

ولكي لا تتبادر إلى الذهن شبهة ضعف الاستشهاد بالشعر في مثل هذه المواضيع الحساسة أوضح أولاً إن شعر العالم المحقق والفيلسوف المدقق والعلم الرباني يختلف عن شعر غيره.. فهو لا يطلق الكلام جزافاً.. بل بلحاظ أنه مسؤول عن دلالة كل كلمة يقولها.. خصوصاً عندما يكون المضمون الذي يصدر منه هو ما ورد في الروايات كما تجد في ما يأتي.

---

(١) قال الشيخ الصدوق عليه الرحمة: اعتقادنا في آباء النبي ﷺ أنهم مسلمون من آدم إلى أبيه عبد الله، وأن أبا طالب كان مسلماً وأمه آمنة بنت وهب كانت مسلمة، وقال النبي ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم»، وأضاف الشيخ الصدوق: وروي أن عبد المطلب كان حُجة وأبا طالب كان وصيه.. الشيخ المفيد، الاعتقادات، ص١١٠.

واستحضر في ذهنك استشهاد المصطفى الحبيب بشعر لبيد. . ومدحه لمضمونه واعتباره أفضل كلمة قالها الشعراء. . مردداً قوله: ألا كل شيء ما خلا الله باطل إلخ. . ولا تنس أن المورد هنا ذكر نماذج من كلمات علمائنا الأعلام. . وللحديث الاستدلالي سياق آخر.

في قصيدته حول الصِّديقة الكبرى عليها السلام من ديوانه «الأنوار القدسية» يقول آية الله الأصفهاني قدّس سرّه:

جوهرة القدس من الكنز الخفي[1] بدت فأبدت عاليات الأحرف

إلى أن يقول:

بل هي أم الكلمات المحكمة في غيب ذاتها نكات مبهمة
أم أئمة العقول الغرّبل أم أبيها[2] وهو علة العلل
روح النبي في عظيم المنزلة[3] وفي الكفاء كفُو من لا كفؤَ له[4]
وحبُّها من الصفات العالية عليه دارت القرون الخالية
وليس في محيط تلك الدائرة مدارها الأعظم إلا الطاهرة
حجابها مثل حجاب الباري بارقة تذهب بالأبصار

إلى أن يقول:

دنت إلى مقام «أو أدنى» فلا تبتغ من ذاك أعلى مثلا[5]

---

(١) إشارة إلى الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً»، الفصول المهمة للحر العاملي، ص١٤٨.

(٢) ليست أم الأئمة فقط وإنما هي أم أبيها، كما ورد في الحديث النبوي المشهور.

(٣) «**فاطمة روحي التي بين جنبيّ**»: لا تعني أن فاطمة هي ابنتي وأحبها فقط. . لا، وإنما هي روحه في عظيم المنزلة.

(٤) «**لولا علي لما كان لفاطمة كفؤ من آدم فما دونه**». المحجة البيضاء ٤/ ٢١٠ وهو مضمون عدة روايات.

(٥) مقام الزهراء دنا إلى مقام رسول الله. . . مقام «**قاب قوسين أو أدنى**». . فهل ستجد سمواً فوق هذا السمو؟

إلى أن يقول:

بل وجهها الكريم وجه الباري وقِبلة العارف بالأسرار[1]

الزهراء، وجه الله عز وجل.. ما معنى هذا المصطلح؟ ما معنى أن أهل البيت وجه اللهٰ تعالى؟ الروايات كثيرة بمضمون «**نحن وجه الله**». وفي دعاء الندبة مثلاً نقرأ عن الإمام صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف: «**أين وجه الله الذي إليه يتوجه الأولياء**»؟

ما معنى وجه الله؟ دعونا نقف بعض الشيء عند هذا المصطلح.

أولاً: ما هو الوجه؟ إنه الجزء المشرَّف في الإنسان الذي إذا أردت أن تخاطب إنساناً فإنك تواجهه، فإذا أراد الإنسان أن يخاطب الله عز وجل ـ والله سبحانه وتعالى منزّه عن الجسمية ـ فإلى من يتوجه؟ يتوجّه إلى رسول الله.. إلى الزهراء.. إلى أمير المؤمنين وأهل البيت، وليس غيرهم أحد يُتوجّه به إلى الله عز وجل..

هذا تقريب للمعنى..

تقريب آخر: الوجه يستعمل في اللغة العربية بمعنى الجهة؛ أنت أرسلت إنساناً إلى مكان.. يذهب هذا الشخص ويقول: ذهبت في الوجه الذي وجهني إليه أبي.. أو فلان. وهو تعبير مستعمل في اللغة العربية.. «في الوجه الذي وجهتني إليه»، مثلاً: في رسالة الشهيد مسلم بن عقيل رضوان الله عليه.. أو في رسائل أخرى نجد هذا النص: «الوجه الذي وجهتني فيه» أو إليه، إذاً.. الوجه: جهة. رسول الله ﷺ وأهل البيت جهة الله، الجهة التي تؤدي.. وتوصل إلى الله عز وجل.. والتي من أتاها فقد أتى الله تعالى.

تقريب آخر: وجه الشيء أو وجه القوم: هو الوجيه في القوم، فلان وجه القوم. كان الشيخ الصدوق وجه العلماء في زمانه، أو وجه الطائفة، كما في بعض التعابير، فلان وجه من الوجوه المعروفة، ألا يقال ذلك؟ وجه القوم أي هو وجيه القوم، أي هو الموجَّه عند هؤلاء القوم، وجه الله: الوجيه عند الله: الموجّه عند الله. مصطلح وجيه موجود في القرآن الكريم: «**وكان عند الله وجيهاً**».

---

(١) الشيخ الأصفهاني، الأنوار القدسية، ص٢٦.

إذاً. . مصطلح «**وجه الله**» يمكن أن يفسر تفسيرات كثيرة، وكلها مقبولة، فلماذا يضيق صدرنا عندما نسمع هذا المصطلح؟

أو هناك تقريب آخر: وجه الشيء الذي إذا كشفته لم تجد تحته إلاهذاالشيء. أي هناك وجه، وما تحته هوهذاالشيءهذه الحقيقة المعينة. يقول أحد مراجعناالأعلام ماخلاصته:

رسول الله ﷺ.. وجه الله، بمعنى أنه فني في الله عز وجل، يعني: في الظاهر فقط يوجد عنوان محمد، لكن هذا العنوان.. عنوان محمد ﷺ يشير إلى الحقيقة الإلٓهية ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾، الزهراء كذلك، أمير المؤمنين كذلك، كل إمام من الأئمة المعصومين كذلك.

يشرح هذا المرجع الجليل هذه الفقرة من رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، يقول فيها: «**وإنما سميت فاطمة لأن الخلق فطموا عن معرفتها**». ذكرت في الحديث السابق أن هناك رواية أخرى غير هذه الرواية، أنها «**سميت فاطمة لأن الله فطمها وفطم محبيها وشيعتها عن النار**». و هذه غيرها. يقول هذا المرجع: **لقد فَنِيَت هذه الثلة الطاهرة** (المصطفى الحبيب وآل البيت) **في الله عز وجل وقد بُرهن على أن أحكام المفنيّ فيه تلحق الفاني، وتنقلب بعد الفناء أحكام الفاني إلى أحكام المفنيّ فيه، بمعنى أنه لا يعود ثمة عليّ ولا فاطمة ولا حسن ولا حسين ولا يبقى إلا وجه الله**»[1].

ذكرت في حديث سابق[2] مثال الحديدة المحماة بالنار.. الحديدة عندما تزول خصوصياتها وتصبح كأنها جمرة لطول بقائها في النار فتكون قد فنيت في النار، وانتقلت إليها أشكال الناروخصائصهاولكنها ما تزال حديدة.. لا تخرج عن كونها حديدة. كذلك شدة القرب من الله عز وجل تجعل المخلوق.. العبد بحيث تنتقل إليه الخصوصيات الإلٓهية التي يمكن أن تنتقل، إلا أنه يبقى عبداً، ويبقى الله عز وجل السبب لكل شيء، ومصدر كل شيء، لا حول ولا قوة إلا به

---

(١) آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني، مقتطفات ولائية، ص١٠٣، ترجمة ابن نخي، الطبعة الأولى.
(٢) هو الحديث الآتي فليلاحظ.

ومنه. روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لنا مع الله حالات.. هو فيها نحن، ونحن فيها هو، وهو هو، ونحن نحن**»(١).

لا يقولن أحد: لا يصح أن تُطرح هذه المفاهيم على الناس.. فالقرآن الكريم طرحها: ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾.

اليد في بيعة الشجرة يد رسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أن الله عز وجل يقول عنها: ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾. الذي ينطق.. الذي كان يتكلم هو رسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أن الله عز وجل يقول لنا: كلامه كلامي: ﴿**وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى**﴾.

عظمة الزهراء ينبغي البحث عنها في مطاوي البحث عن عظمة رسول الله صلى الله عليه وآله، في هذا الموقع المتقدم. إذا جئنا إلى أجواء مولد الزهراء عليها السلام في مكة فإننا نجد نصاً يحدثنا بخصوصيات أريد أن أقدم لها ببعض الملاحظات:

أيها الأحبة.. تعرفون أن هناك منهجاً سائداً في كثير من الأوساط يرتكز إلى جملة من الثوابت بعضها متفق عليه إلاأن الخلل في تطبيقه يبلغ أقصى حدود الكارثة، والبعض الآخر ماأنزل الله به من سلطان..

يقولون: ينبغي أن ينزّه الإسلام عن الخرافات.. وهذا لاإشكال فيه، لكن ما المراد بالخرافات؟ يقع الاختلاف. يقولون: لماذا نعرض الإسلام أمام الغرب بطريقة لا يقبلها، لماذا نعرض الإسلام على الجامعيين والمثقفين بطريقة لا يقبلونها.. إلى هنا قد نكون متفقين، فلا شك أن من واجبنا الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة.. ولكن نسأل: ما هي برأيكم الطريقة التي يجب أن تعتمد.. يقولون: إن علينا أن نتجنب الأمور التي تستفز استنكارهم.. ونعتمد المنهج الذي يستهويهم ويقنعهم.. ونسأل: هل هذا أسلوب أو منهج.. هل هو هدف مرحلي لتشكل القناعات الأولية مدخلاً إلى الدخول في العمق.. إذا كان كذلك فلا مانع منه.. بل هو المطلوب.. «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق**».

---

(١) اللمعة البيضاء للتبريزي الأنصاري، ص٢٨، نقلاً عن الكلمات المكنونة للفيض الكاشاني، ص١١٤؛ والإمام الخميني في مصباح الهداية، ص٦٧.

يقولون: ليست المسألة مسألة هدف مرحلي أو أسلوب.. فالإسلام دين العقل، ويجب أن ينزّه عن الخرافات.. وعن كل مظاهر الأمية في الخطاب الديني.

ويقال لهم: لنبدأ أولاً بالأمية في الخطاب الديني فهي حديث ذو شجون.. حيث أن أكثر مفردات الخطاب الديني السائد تسيء إلى الدين.. وتصد كثيراً من الناس عن دين الله أفواجاً.

نوافقكم الرأي في ضرورة إخضاع الخطاب الديني لتغيير جذري في الشكل والمضمون.. والأداء.. ولكن دعونا نتفق على المقصود من تنزيه الخطاب الديني عن الخرافات.

يقولون: المراد أن نعتمد العقل.. والمنهج العقلي.. ونحذر من كل ما لا يقبله العقل.. خصوصاً الكرامات وسائر الغيبيات التي تدخل في المنهج الغيبي.. ونحن في عصر تفتُّح مدارك العقل وبلوغها الذروة.. والإسلام دين العقل.. فلماذا نُصِرّ على طرحه بالطريقة التي تنفر الناس منه.

ونقول: بلى الإسلام دين العقل.. ولا بد من أن نعتمد العقل والمنهج العقلي إلا أننا لا نوافقكم الرأي في أن المنهج الغيبي نقيض المنهج العقلي.. ولا نوافقكم على أن الكرامات والغيبيات.. بالمطلق، يجب الحذر منها.. والدليل على الأول هو ما قلتموه ولم تلتزموا بمضمونه.. من أن الإسلام دين العقل.. فإن معنى ذلك أن الغيب هو في صميم العقل.. لأن الإسلام دين الإيمان بالغيب.. فكيف يمكن أن نفهم قولكم: إن المنهج العقلي نقيض المنهج الغيبي؟!.. لا يمكن فهمه إلا على أساس أن من يرى رأيكم لا يعرف الإسلام.. ولا العقل..

إن العقل الحجة شيء آخر غير المزاج، والوهم والخيال، والوقوع في أسر العادة والمألوف وما تصورتموه عقلاً ليس شيئاً غير هذه المفردات المتقدمة.. ورب مستغرب شديد الغرابة إلى أقصى الحدود يقوم عليه الدليل العقلي.. ثم إنكم تخلطون بين الغيب والخرافة.. ما يجب الحذر منه هو الخرافة وكل باطل.. أما الغيب الذي قام الدليل على وجوده فهو حق.. وأما المغيبات فينبغي

اعتماد المنهج العلمي في التثبت منها. . والأخذ بما قام عليه الدليل والإعراض عما لم يعتضد به. . ورب أمر هو كالخرافة. . يكون الإيمان به دليل سلامة العقل. . ويأتي مزيد إيضاح إن شاء الله تعالى. . أما أن نرفض المغيبات بناءً على موقف مسبق يُسقط عليها جميعاً فإن هذا يتنافى مع الإيمان بالغيب عملياً على الأقل إن لم يكن عملياً ونظرياً. . وللتفصيل في ذلك مجال آخر.

وأذكر هنا بالمناسبة خلاصة تجربة ثقافية في لبنان. . فلقد أحدثت استجابة أهلنا النوعية والنادرة لخطاب الأمام الخميني رضوان الله تعالى عليه انقلابا في موازين القوى داخل الساحة الإسلامية، كانت أولى تداعياته ثقافية. . وسرعان ماتجلى ذلك في ميادين الجهاد ضد العدو الصهيوني، عبر أولي الألباب المستنيرة بنور الله تعالى والقلوب الكبيرة التي تتسع لهموم المسلمين وسائر المستضعفين.

لم يكن هذا التحول الثقافي ـ السياسي ـ الجهادي ممكنا إلا في ضوء توفيق الله عز وجل لأهلنا للبحث عما يروي الغليل في رحاب نهج الإمام الخميني المرتكز إلى واقعية الإسلام وعقلانيته القائمتين على إحلال كل من الغيب والشهادة في موقعه الطبيعي، والتعامل معهما بحجميهما الحقيقيين. . فالواقع الموضوعي ليس غيباً فقط، وليس شهادة فقط وهذا هو الأهم، فلم يفتَر المدركون لأهمية الغيب يوماً على عالم الشهادة، في حين أن الفرية قائمة أبداً من (المدركين) لأهمية عالم الشهادة على الغيب والمغيبات.

إن إخراج عالم الغيب من عملية تثقيف الأمة يعني ببساطة الوقوع في وهدة الثقافة المادية العاجزة عن تحريك خلجة واحدة من مشاعر الإنسان في الاتجاه السليم.

ولا يعني ذلك على الإطلاق أي تساهل في اعتماد الضوابط الصارمة التي تمنع من تحويل ساحة الغيب المقدسة إلى ميدان لقطاع الطرق المشعوذين المستأكلين بادعاء المقامات! ذلك أن أولى العلامات الفارقة بين النجدين صدقة السر التي هي في العمق عبادة السر وطهارته التي تتوقف على عدم إخراج النفس من حد التقصير وعدم الأستحقاق، فضلاً عن التظاهر. . وفضلاً عن قبيح منكرالأدعاء. كان الجو الثقافي عندنا في لبنان، كما كان عليه ـ في الأعم الأغلب ـ في سائر بلادالمسلمين، حتى إيران نفسها. . ضمن (المنهج الإسلامي المادي)

وكان (الإسلام اللبناني) سبَّاقاً في التنازلات باسم(الإنفتاح) بحكم التركيبة اللبنانية التي كانت تقوم على قاعدتي تعدد الطوائف واعتبار لبنان قطراً غربياً اتفق وقوعه الجغرافي في الشرق، إنه بداية الغرب، وليس أحد ثغور الشرق من جهة الغرب.

لقد شكل تواصل أهلنا في لبنان مع الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه، مفصلاً ثقافياً بالغ الأهمية والآثار التي ما تزال فصولها تتوالى.. فانطلقت عملية تثقيف من نوع آخر غير ما كان مألوفاً.. وكان الجو مميزاً شديد الاستقطاب بالغ التأثير.. ولم يكن يخفى على المعنيين أن محاولاتٍ تبذل همساً، تحاول لجم هذه الاندفاعة الثقافية الخمينية، وقد طال الهمس مفاصل في النهج الثقافي الأصيل، منها مايرتبط بالصديقة الكبرى، وبسيد الشهداء، والإمام المهدي، وأهل البيت عموماً عليهم جميعا صلوات الرحمن.. ـ وأتعمد ترك التفاصيل ـ ولا أشك في أن أكثر تلك المحاولات ـ على الأقل ـ كانت صادرة عن حسن نية، وخلل منهجي خطير، بات من الواضح تماما أن الأخطر منه تصور أنه ظاهرة فردية أو أفرادية، في حين أن بلاءه يكاد يكون مطبقاً، وما أبريء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء.. ولا ينافي ما تقدم أن لبعض الأفراد الدور الريادي في تنكب المنهج العلمي والعقلي والإصرار عليه، بدعوى الانتصار للعقل وذود الخرافة عن ساحة الدين.

وقد استمرت انحناءة النهج الآخر بكل أطيافه حتى نهاية الحرب الأمريكية ببرقع عراقي ضد الجمهورية الإسلامية وقبول الإمام الخميني بالقرار ٥٩٨.

كانت المقاومة الإسلامية في ذروة من ذرى توهجها، والجهاد والشهادة فعل (الجمهور) لا (النخبة) إلا من غادر نخبويته المدعاة ليصبح من النخبة الحقيقية، عبادِ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً.. والثقافة المستجيبة لهذا الجو هي الثقافة النخبوية على مستوى الأسس والمنطلقات، الجماهيرية في طريقة العرض على قاعدة: الحقيقة لكل الناس، للجماهير، لا (للنخبة) فحسب.. وموقع القصة في إيصال الفكرة عبر أقصر الطرق موقع فريد يكشف عنه موقع القصص القرآني من كتاب الله تعالى.. وكانت تُطرح بعض القصص من قبيل القصص التي أوردها آية الله الشهيد دستغيب رضوان الله تعالى عليه في كتابه القيِّم «القصص العجيبة»، وهي قصص يشهد هذا العالم الجليل بأنه لم يورد منها في كتابه إلا ما

تأكد من صحته. كان الجومقبولاً ـ إجمالاً ـ ثم بدأت أرى في بعض الفترات أن هناك من يتذمر من طرح هذه المسائل، وأنا على يقين أن السبب لايرجع إلى الأسلوب أو إلى أن ما يطرح ليس صحيحاً واقعاً، بل يرجع إلى الخجل بكثير مما أمرنا أن نعتقد به ونجاهر بالحديث عنه.. إما بحجة (هل نربي الناس بالقصص) أو مخافة أن يسمع ذلك المسيحي وغير المسلم عموماً[1]!

وكان القائمون على الشأن الثقافي حريصين على أن تكون المادة الثقافية التي تقدم في وسيلة إعلامية، تلحظ تنوع المشارب.. إلا أن في صلب الحقائق الدينية ما لا يستسيغه الآخرون.. أليست القصص التي يسمعها هؤلاء من خلال قراءة القرآن الكريم أكثر غيبية فهل نحذف القصص القرآنية التي تصدمهم وتثير استنكارهم؟!.. هل نحذف من القرآن الكريم قصة ضرب قتيل من بني إسرائيل بلحم البقرة فإذا به حيّ يقول: قتلني فلان؟

هل نحذف من القرآن الكريم حديث الهدهد واكتشافه لعرش بلقيس، وكلامه التوحيدي العقائدي: ﴿**وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزُين لهم الشيطان أعمالهم**﴾؟ ما هذا الهدهد العاقل الموحّد؟! ربما يُذهب شيخ إلى أمريكا أو أوروبا ويرجع منبهراً بالإنجاز المادي، لايرى غيره، لكن هذا الهدهد أدرك الإنجاز المادي: ﴿**أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم**﴾.. **وبقي قلبه يدور مدار التوحيد ومقتضاه، لم يتأثر سلباً، فجزم بأنهم من حيث المعتقد ـ وهو الأهم ـ متخلفون**..

هل نحذف حديث النملة: ﴿**فتبسم ضاحكاً من قولها**﴾؟.

---

(١) الملفت جداً أن هناك محطة تلفزيون نصرانية في بيروت مخصصة للتبشير.. وهي تستفيض في ذكر المغيبات و«الكرامات» بل إن نسبة «الغيب» في هذه المحطة في زيادة واطّراد دائمين، دون أدنى تردد أو تلعثم.. وفي إحدى المقابلات شارك رجل دين مسلم وآخر نصراني فأفاض النصراني في الحديث عن المغيبات.. أما المسلم فقال: لا اطّلاع لي على هذا المجال.. وهو صادق وموضوعي في ذلك لأن «المنهج» السائد عندناهوالانصراف عن لب الإيمان وعصبه.. والإعراض عن المغيبات بدلاً من التدقيق فيها.

وأمثال ذلك كثير كما لا يخفى. .

هل التركيز على ذلك ضرب من التخلف ـ والعياذ بالله ـ وهل هو تربية للناس بالقصة؟. وهل يجب أن نحذر أن يسمعه غير المسلمين؟

قد يقال: ولكن هذا قرآن!! ولا يصح أن نقيس به غيره.

ولا إشكال في أن كل ماعدا القرآن الكريم ليس مثله، ولكن ألا يشَكِّل ما في القرآن أصلاً ينبغي أن نؤسس عليه في التعاطي مع المغيبات.

ليست المشكلة أيها الحبيب في أن هذه الأمور الغيبية لم ترد في القرآن. . فلذلك لا نقبلها، هناك حسن نية عند البعض يقترن بخلل منهجي فاضح يصل إلى حد الخجل من ذكر الغيب. . بدعوى الواقعية والعقلانية!!

وبين إفراط الندرة وتفريط الأكثرية التي تتحمل مسؤولية ذلك الإفراط تقع الجادة الوسطى في التعاطي مع الغيب. . ولا يعني الإفراط الكم، فهو مطلوب بما يتناسب مع حجم الغيب بالنسبة إلى عالم الشهادة، بل يعني المنهجية التي تنتظم المفردات في سلكها. .

إما أن ننسجم مع عنواننا القرآني (المؤمنين بالغيب) الموقنين بأنه واقع موضوعي بل الواقع الموضوعي والشهادة ظله. . وإماالروح الإنهزامية التي تستقوي بالخارج (الثقافي) وتداهنه إلى حد الغزْل بمغزله والنسج على منواله، لتحظى بإطرائه.

إذا أردنا أن نطرح الإسلام بما ينسجم مع الغرب أو الغربيين أو أشباه «المثقفين والدكاترة» والمتفرنجين والعلمانيين، فلن يبقى من الإسلام شيء! يجب أن نطرح الإسلام كما هو. . وفي باب المغيبات نجد أن الله عز وجل يقول: هذا القرآن الذي يتلى في كل مكان. . اقرأوا فيه بأعلى الصوت، أعلى الصوت أن الله عز وجل أمات شخصاً مائة عام ثم بعثه وإذا بطعامه لم يفسد ﴿**لم يتسنّه**﴾. . وحماره (هكذا ومن يخجل فلماذا لا يخجل بدولي والثيران المستنسخة وفئران المختبرات) بلى الحمار دبت فيه الحياة من جديد ليري الله عز وجل صاحبه كيف يُنشز العظام ثم يكسوها لحماً. . يريدنا أن نقول هذا. . بملء الفم وأعلى الصوت في كل مكان، هذا هو المنهج القرآني.

ولا يعني هذا على الإطلاق أن نحدث الناس بما لا يقبلون، ونتركهم في حيرة، أو نحملهم على الرفض. .

بل المقصود أن نطرح الإسلام كما هو دون أن ندخل أمزجتنا، فالمطلوب وصوله إلى الناس هو دين الله تعالى وليس دين زيد وعمرو. . علينا أن نقول: هذا هو الإسلام، وندافع عنه، ونقربه إلى الأذهان بالحكمة والموعظة الحسنة، ليست الموضوعية أن نطرح ما نريد من الإسلام ونخفي ما لا نريد! ليس من دين الله في شيء أن نخفي كرامات رسول الله وأهل البيت بدعوى أنها لا تنسجم مع العقل.

ليس من الإسلام في شيء أن نخفي كل أحاديث المستحبات لأنها تحدثنا عن ثواب عظيم بحجة أن هذا لا يتقبله الكثير من الناس. . إن المشكلة فينا وليست في الناس. . يتقبل الناس الآن أن جائزة يانصيب تصل إلى مائة مليون دولار! فإذا كان شخص لا يتقبل أن صلاة ركعتين يمكن أن يحصل الإنسان من أجلها على ثواب عظيم هو مثلاً مئات القصور في الجنة، فإن علينا أن نقرب له المسألة بالطريقة المناسبة، لكن لا يجوز أن نحرف الإسلام فنخفي أكثره بحجة الحرص على الإسلام! ولقد أدى ذلك إلى سيطرة مقياس لا أساس له ولا سقف هو أن نطرح الإسلام بالطريقة الانتقائية والتجزيئية التي تشوّه الإسلام!!

أيها الأحبة. . أكثر الأحاديث حول الزهراء عليها السلام لا يمكن أن تفهم بناءً على هذا المنهج السائد. سأذكر نموذجاً هذا النص. . وقد نقلته من «البحار» عن «أمالي الشيخ الصدوق»، والنص عن الإمام الصادق عليه السلام، سئل كيف كانت ولادة فاطمة عليها السلام؟ فقال:

«**نعم، إن خديجة عليها السلام لما تزوج بها رسول الله صلى الله عليه وآله هجرتها نسوة مكة، فكنّ لا يدخلن عليها، ولا يسلمن عليها، ولا يتركن امرأة تدخل عليها** [لاحظوا الغربة!]، **فاستوحشت خديجة لذلك وكان جزعها وغمها حذراً عليه صلى الله عليه وآله** [رغم أن خديجة رضوان الله عليها، مستهدفة بالمقاطعة. . فإن حذرها وخوفها على رسول الله صلى الله عليه وآله] **فلما حملت بفاطمة كانت فاطمة عليها السلام تحدثها من بطنها وتصبّرها. .**».

ماذا يقول الكثيرون عندما يسمعون هذا الحديث؟: هذا منافٍ للعقل. . منافٍ للمنطق السليم.

إذا كان الرفض ينطلق من دراسة السند فهو مجال للبحث، أما أن ينطلق من ادعاءات عريضة في الحداثة والتجديد فإن حداثة دين الله تعالى أولى بالأتباع من كل حداثة مدعاة.

إن تكليفنا أن نطرح الإسلام كما هو بالدليل والبرهان والأسلوب الأمثل ويكون الهدف أن ينسجم العصر وتنسجم الحداثة مع الإسلام.

وبالعودة إلى النص: «. . تحدثها من بطنِها وتصبّرها، وكانت تكتم ذلك من رسول الله ﷺ».

«فدخل رسول الله ﷺ يوماً فسمع خديجة تحدث فاطمة عليها السلام، فقال لها: يا خديجة من تحدثين؟ قالت: الجنين الذي في بطني يحدثني ويؤنسني. قال: يا خديجة. . هذا جبرئيل يخبرني أنها أنثى، وأنها النَّسمة الطاهرة الميمونة، وأن الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها أئمة، ويجعلهم خلفاءه في أرضه بعد انقضاء وحيه. فلم تزل خديجة عليها السلام على ذلك (أي تحدث فاطمة وفاطمة تحدثها) **إلى أن حضرت ولادتها».**

ثم يتحدث النص عن نزول النساء الأربع: سارة وآسية، ومريم، وكلثم أخت موسى عليه السلام، إلى أن يقول:

«فلما سقطت إلى الأرض أشرق منها النور حتى دخل بيوتات مكة. . ولم يبق في شرق الأرض ولا غربها موضع إلا أشرق فيه ذلك النور. ودخل عشر من الحور العين كل واحدة منهن معها طست من الجنة وإبريق من الجنة وفي الإبريق ماء من الكوثر. . . (إلى أن يقول):

«فنطقت فاطمة عليها السلام بالشهادتين. . . وبشر أهل السماء بعضهم بعضاً بولادة فاطمة عليها السلام، وحدث في السماء نور زاهر لم تره الملائكة قبل ذلك. وقالت النسوة: خذيها يا خديجة طاهرة مطهرة، زكية ميمونة، بورك فيها وفي نسلها. فتناولتها فرحة مستبشرة[١].

(١) دلائل الإمامة للطبري، ص٧٧؛ وبحار الأنوار ١٦/ ٨٠، ٤٣/ ٢ ـ ٤.

تعالوا لنحاكم هذا النص بهدوء وفق المنهج القرآني. لماذا حدثنا الله عز وجل عن خصوصيات في النبي عيسى عليه السلام؟ ثمة قرائن كثيرة توحي بأن الهدف الأساسي من حديث القرآن الكريم عن بعض الخصوصيات العقائدية حول الأنبياء السابقين وغيرهم أن نعرف أن هذا الأمر بالنسبة الى المصطفى الحبيب وأهل البيت أمر طبيعي جداً.

ألم يتكلم النبي عيسى عليه السلام بمجرد ولادته؟ كم هو الفرق بين أن يتكلم الجنين في بطن أمه أو أن يتكلم الجنين بمجرد أن يولد؟ أنا أعرف بعض الحالات التي تأكدت منها.. أن الأم تسمع بكاء الطفل في بطنها، الأم العادية والطفل العادي. حسناً، دعونا نجر مقارنة: أم مريم مؤمنة أخلصت لله عز وجل، نذرت له سبحانه وتعالى ما في بطنها محرراً، كان ما في بطنها أنثى، ووضعت مريم. وفي ما بعد جاء جبرئيل يخبرمريم بأنها ستلد. جبرئيل نزل على مريم.. عندما نقول: نزل جبرئيل على السيدة الزهراء ينبغي أن يدخل الإنسان في جدل لا يكاد ينتهي.. جبرئيل ينزل على السيدة الزهراء؟! حول نزول جبرئيل على مريم قال تعالى: ﴿**فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سوياً**﴾. وبالرجوع إلى تفسير الميزان والتفاسير الأخرى نجد الجزم بذلك، يصرح السيد الطباطبائي بأنه لا مجال للشك في أن المقصود أن جبرئيل عليه السلام هو الذي نزل على مريم، إذاً.. أن ينزل جبرئيل على السيدة مريم.. أمر مقبول، لكن أن ينزل على السيدة الزهراء فهذه إسرائيليات! أن يتكلم النبي عيسى بمجرد أن يولد، لا مشكلة في ذلك.. لكن أن تتكلم السيدة الزهراء.. تحدث أمها وهي في بطنها.. فذلك رجعية وتخلف! ثم إذا ولدت الزهراء عليها السلام تقول: أشهد أن لا إله إلا الله فهذه أحاديث خرافية، ينبغي أن لا نعرضها لأنها لا تنسجم مع روح العصر!!

ألا يكشف ذلك بوضوح أن اعتراض هؤلاء على الغيبيات، أبعدمن الأسلوب بكثير، يصل إلى ملامسة الأصل، وإن كان يحاذر الجهر به.

على أي حال.. ما أنا بصدده بالإضافة إلى هذه الخصوصيات: ما هي محصلة هذا النص؟ محصلته أن السيدة الزهراء تحدث أمها.. أن السيدة الزهراء بمجرد أن ولدت تحدثت.. نطقت بالشهادتين، وذكرت أسماء: المصطفى

الحبيب، رسول الله ﷺ وذكرت أمير المؤمنين والأئمة، وذلك طبيعي في نظر المؤمن بقدرة الله تعالى. لكن لشدة ما حاول المحاولون خلخلة هذا الأساس في أذهان الناس انطلقت الشبهات بحجة العقل المدعى.. وما تزال..

الأمر الآخر الذي أريد أن أقف عنده هو هذه المقارنة، أم مريم عبدة صالحة ـ كما ذكرت ـ وصلت إلى ذروة إخلاص، فمنّ الله عز وجل عليها بمريم، وليس بالنبي عيسى مباشرة، حتى تكون مرحلة تمهيدية.. نقلة لاستحقاق عيسى عليه السلام. أتلاحظون: مريم هي ثمرة وصول أمها إلى قمة من قمم القرب من الله تعالى. النبي عيسى هو ثمرة وصول مريم وأمها إلى القمة المتاحة لهما في الإخلاص، حسناً.. امرأة أخلصت (أم مريم) أو امرأتان (مريم وأمها) فكان لهمامن الله تعالى هبة خاصة.. فما هي الذرى المحمدية التي كان فيها رسول الله ﷺ..؟ تلك الذرى لم يصل إليها بشر، ولا يصل إليها بشر على الإطلاق.

لقد كان ﷺ دائماً في الذرى التي لا يبلغها أحد غيره، لكن لا شيء يمنع من أن من كان في الذرى الأعلى يرفع الله درجته: «وتقبّل شفاعته في أمته وارفع درجته». والأدعية كثيرة حول رفع الدرجة. في حديث الإسراء والمعراج معروف أن جبرئيل عليه السلام يقول: «إذا تقدمت قيد أنملة احترقت» أليس كذلك؟ رسول الله ﷺ في الذروة التي لا يصل إليها أحد. لكن الإسراء هو عبارة عن درجة ومرتبة مميزة لرسول الله ﷺ بنزول القرآن الكريم كان المصطفى الحبيب ـ كما يعبر الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه ـ في مرحلة: «استنزلت أنفاسه الطاهرة القرآن الكريم بإذن الله تعالى». بالإسراء والمعراج كانت المرتبة مرتبة أن الله عز وجل رفعه إليه ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾.

في هذه الذروة المحمدية كانت هناك هدية من الله عز وجل للمصطفى الحبيب.. في بعض الروايات: رطب، في بعض الروايات: تفاح، ولا مانع من الجمع. كانت الزهراء تلك الهدية التي تتناسب مع درجة المصطفى الحبيب، ومع مرتبة المصطفى الحبيب ﷺ. فإذا كانت مريم عطية لأمها نتيجة درجة إخلاص

معينة. وكان ابن مريم فيما بعد عيسى عليه السلام، فإن الزهراء عطية لرسول الله.. هبة لرسول الله، ثم كان بعد الزهراء الأئمة الأحد عشر الذين يأتون في الدرجة الثانية من مرتبة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويصلي نبي الله عيسى خلف آخرهم. رحم الله الشيخ الفرطوسي عندما يقارن.. بين الإمام الحسين والنبي عيسى، فيقول:

بمهدك آيات ظهرن لفطرسٍ[١]   وآية عيسى أن تكلم في المهد
فإن ساد في أمٍ فأنت ابن فاطم   وإن ساد في مهدٍ فأنت أبو المهدي[٢]

أيها الحبيب.. هذه الخصوصيات أحببت الوقوف عندها، علماً بأن النقطة المركزية التي ينبغي أن يطول وقوف القلب عليها وعكوفه ببابها: كيف ترضى عنا الزهراء.

سيدتنا.. يا من يرضى الله لرضاها.. هل أنت راضية عنا؟ ما أشد مأساة الشخص عندما يكتشف لا سمح الله.. يوم القيامة أنه لا يستحق رضا الصديقة الكبرى عليها صلوات الرحمن.

أيهاالحبيب.. من السهل أن نلعن الشمر، من السهل أن نلعن شبث بن ربعي، لكن من الصعوبة بمكان أن يكتشف الإنسان مواطن التشابه بينه وبين الشمر وبين شبث بن ربعي لا سمح الله.

حب الدنيا هو القاسم المشترك. ما دام هذا القلب يخفق بحب الدنيا فلا يمكنه أن يصبح فاطمياً.

فلنتوسل بالصديقة الكبرى..

سيدي.. أخرج حب الدنيا من قلبي.. إلهي.. أعلم أني لا أستحق، ولكنك أرحم الراحمين، وهم مظهر رحمتك. عادتك الإحسان إلى المسيئين.

اللهم لا تردّنا عن بابك خائبين، بالزهراء وأبيها، وبعلها وبنيها، والسرّ المستودع فيها، برحمتك يا أرحم الراحمين.

---

(١) قصة «فطرس» الملَك الذي كان مهيض الجناح معروفة.

(٢) إذا ساد ـ من السيادة وعلو المنزلة ـ النبي عيسى بأمه مريم فأنت ابن فاطمة الزهراء عليها السلام، وإذا ساد بأنه تكلم في المهد، فأنت أبو المهدي الذي يصلي خلفه عيسى عليه السلام.

(٢)

أجواء الشهادة

وملامح من عظمتها عليها السلام

* تمهيد.

* سر العظمة.. القرب من الله تعالى.

* لنبحث عن عظمة الصِّديقة في عظمة المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم.

* نور الصدِّيقة الكبرى عليها السلام.

* مصحفها عليها السلام.

* في غير مراتبهم التي رتبهم الله فيها!!

(٢)

الجمعة ٥ ج٢ ١٤١٧ هـ

هذه الأيام، أيام ذكرى شهادة مولاتنا الزهراء عليها صلوات الرحمٰن، وبناء على المنهج الذي ذكرته واعتمدته لهذه الأحاديث في هذا الملتقى فإن العلاقة بالمعصومين من أهم الأسس التي لا بد من الوقوف عندها. نعم.. شهادة الزهراء، وإذا سمعت مني لفظ «وفاتها» فذلك من سبق اللسان.

في الرواية عن علي بن جعفر عن أخيه الإمام الكاظم عليه صلوات الرحمٰن: «**إن فاطمة عليها السلام صدّيقة شهيدة**»[1]. وما أدراك ما ذكرى شهادة الزهراء!

كيف كانت المدينة المنورة عشية انتقالها عليها صلوات الرحمٰن إلى جوار الله عز وجل..

بجوار مولاتنا زينب يسبق القلب إلى تلك الصورة داخل بيت أمير المؤمنين وقد أصبح أولاد المرتضى والزهراء أيتاماً.. كيف كان حال أبي محمد الإمام الحسن المجتبى عليه صلوات الرحمٰن، وحال أبي عبد الله الحسين، وحال مولاتنا زينب؟ وهل تقوى يا قلب على أن تتذكر شيئاً.. رشحةً من حال أمير المؤمنين عليه صلوات الرحمٰن؟

ينقل بعض العارفين أن سلمان الفارسي رضوان الله تعالى عليه فوجئ - قبل شهادة الزهراء - بالمرتضى والزهراء يطرقان باب بيته إبّان تلك الجولة التاريخية على الأنصار.. طُرق الباب.. فتح سلمان الباب: سيّديّ ما الذي جاء بكما؟! سيدتي يا فاطمة.. ماالذي جاء بك؟ قالت: يا سلمان رأيت علياً وحيداً..!

---

(١) برنامج مصادر بحار الأنوار، نقلاً عن مسائل علي بن جعفر، ص٣٢٥، الإمامة وفضل الأئمة.

غربة عليّ أقضّت مضجع الزهراء، وها هو علي بعد شهادة الزهراء أشدّ غربة. بربّك أيها الموالي.. غربة علي أشدّ مضاضةً أم غربة الحسين في كربلاء؟! حتى الواحد والسبعون لم يكن لهم ذكر.. أصبح علي غريباً إلى درجة أنه رغم كلّ الجلد العلوي.. رغم كلّ التصبُّر فهو يقول: إنه قد قَلَّ صبره بعد فجيعته بالزهراء!! قبل شهادة الزهراء كانت الفجيعة بالمصطفى ﷺ موزّعة بين المرتضى والزهراء، وها هو ثقل الفجيعة بالمصطفى الحبيب الآن ينصبّ بكامله على المرتضى.. ويضاف إليه فجيعته بفقد الزهراء! غربة أبكت رسول الله ﷺ من قبل.. يحدّث أمير المؤمنين أنه كان يسير مع المصطفى الحبيب في بعض شوارع المدينة، وعندما وصلا إلى مكان خال من الناس وضع رسول الله ﷺ رأسه على كتف أمير المؤمنين وأجهش بالبكاء.. ويسأله المرتضى عن السبب فيقول: «**يا علي.. ضغائن في صدور قوم لا يبدونها لك إلاّ من بعدي**»[١].

واسمع ماذا ينقل ابن أبي الحديد في «شرح النهج» عن شيخه أبي جعفر الإسكافي.. يقول: إن النبي ﷺ دخل على فاطمة فوجد علياً نائماً، فذهبت تنبّهه، فقال: «**دعيه.. فربّ سهر له بعدي طويل.. وربّ جفوة لأهل بيتي من أجله شديدة**». فبكت فاطمة عليها السلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تبكي.. فإنكما معي.. وفي موقف الكرامة عندي**»[٢].

نريد أن نتحدث عن شهادة الزهراء.. ولا يمكن أبداً إلا أن نقف في محراب غربة علي أمير المؤمنين.. يا شيعة علي. أتباع المصطفى الحبيب.. لعل هذا الحب المبارك في قلوبنا لأبي الحسن الذي أمرنا به رسول الله يرتفع منسوبه فيغسل أدران ذنوبنا، لعلنا حينئذ نوفّق لشيء من معرفته ومعرفة الزهراء عليهما صلوات الرحمٰن.

ها هو علي بعد شهادة الزهراء أشدّ غربة، لذلك نجده يقف على قبر الزهراء.. يسلم على رسول الله ﷺ بتلك المقطوعة العلوية، والرواية عن المولى

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٢٨/ ٥٤ و٧٨.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح النهج ٤/ ١٠٧.

أبي عبد الله الحسين، قال: لما قبضت فاطمة عليها السلام دفنها أمير المؤمنين سراً، وعفى على موضع قبرها، ثم قام فحوّل وجهه إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«السلام عليك يا رسول الله، عنّي، والسلام عليك عن ابنتَك وزائرتك، والبائنة في الثرى ببقعتك، والمختار لها سرعة اللحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفيّتك صبري، وعفا عن سيدة نساء العالمين تجلّدي، إلا أن لي في التأسّي بسنّتك في غربتك موضع تعزّ، فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك، وفاضت نفسك بين نحري وصدري.. بلى، وفي كتاب الله لي أنعم القبول، إنّا لله وإنّا إليه راجعون. قد استُرجعت الوديعة.. وأُخذت الرهينة.. واختُلست الزهراء.. فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله، أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهّد، وهمّ لا يبرح من قلبي أو يختارَ الله لي دارك التي أنت فيها مقيم»[1]!!

هل هذا هو الحزن الذي تحدّث عنه المصطفى الحبيب.. هل هذا هو السهر الطويل لعلي أمير المؤمنين الذي تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وآله؟ بلى.. دخلت رحلة السهر الطويل للمرتضى في منعطف من نوع آخر.

أيها الحبيب.. في ذكرى شهادة الزهراء كيف ينبغي أن نتعاطى مع الزهراء عليها السلام؟ ماذا نعرف من عظمتها عليها صلوات الرحمن، عند أي خصائص نقف؟ ينقل آية الله المقدس السيد المرعشي رضوان الله تعالى عليه عن المولى الإمام صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في قصة ضمن قصص كتبها المرحوم المرعشي بخط يده، ولم يصرح فيها بأنه هو الذي تشرّف برؤية الإمام المنتظر أرواحنا فداه.. إلا أن أحد العلماء، نقل لي عنه أن المقصود في هذه القصص.. بالشخص الذي تشرّف بلقاء الإمام هو نفسه، أي السيد المرعشي رضوان الله تعالى عليه. ينقل تعليمات كثيرة عن الإمام المنتظر.. من جملتها أنه أمر بهذا القنوت أن يقنت به في الصلاة باستمرار: (وإنما أستشهد به لأن الروايات تعضده)

«اللهم صلِّ على محمد وآله، اللهم إني أسألك بحق فاطمة وأبيها، وبعلها

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٤٣/ ١٩٣.

وبنيها، والسرّ المستودع فيها أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن تفعل بي ما أنت أهله، ولا تفعل بي ما أنا أهله».

عظمة الزهراء كما يظهرها هذا النص هي عظمة محورية: «بحق فاطمة وأبيها، وبعلها وبنيها، والسرّ المستودع فيها». معرفة الزهراء عليها السلام الطريق إلى معرفة الله عز وجل، والخلل في معرفتها لا بد وأن ينعكس خللاً في المعتقد، بمعنى أن الإنسان لا يستطيع أن يقول إنه على سلامة من معتقده إذا لم يعرف الزهراء عليها السلام. عندما نريد أن نتحدث من بعيد عن مكامن العظمة في هذه الشخصية المحمدية العظيمة.. كيف نتعامل معها.. بم نصفها؟

أحياناً يشعر المستمع أن من يتحدثون عن المعصوم يتحدثون عن عالم من كبار العلماء مع فارق وامتياز قليلين. وهو ما يجعل الحديث عن الزهراء عليها صلوات الرحمن لا يصل إلى أدنى سفح عظمتها.. فضلاً عن الخلل الكبير الذي يقع فيه الكثيرون، الذي يجعل الحديث أحياناً ينافي الأدب.

نحن مدعوون من منطلق التكليف الشرعي.. وبعيداً عن أي شيء آخر أن نتعرف على المصطفى الحبيب، وعلى الزهراء، وعلى أمير المؤمنين، وعلى سائر الأئمة باعتبار أن معرفة الله عز وجل تتوقف على ذلك، وهذا أوضح معاني: **«من أراد الله بدأ بكم»**(١).

كيف ينبغي أن نتحدث عن الزهراء.. بأية لغة؟ عندما نقارن بين لغة الكثيرين من الكتّاب وبين لغة بعض العلماء.. ـ والمقياس الذي ينبغي اعتماده في هذا العصر للغة علمائنا الأعلام كلام الإمام الخميني القائد رضوان الله تعالى عليه ـ عندما نقارن نجد الفارق الكبير.. تارة نجد الحديث من النمط الذي ذكرت، وتارة نجد الحديث عن أن المرتضى والزهراء يأتيان في درجة تلي مباشرة درجة رسول الله صلى الله عليه وآله خير خلق الله.. أمير المؤمنين نفس رسول الله، الزهراء بضعة من رسول الله.. شجنة من رسول الله.. روحه التي بين جنبيه.. ما معنى هذا؟ كم سمعنا حديث: **«فاطمة بضعة مني»**؟ هل حاولنا الوصول إلى عمق دلالة هذا

---

(١) الزيارة الجامعة، عن الإمام الهادي عليه السلام.

الحديث فقط؟ معنى هذا أنك عندما تقول: «فاطمة» فقد قلت: «رسول الله». . معنى هذا أن فاطمة هي رسول الله. . نفس رسول الله ﷺ، عندما نريد أن نستوضح الصورة بعض الشيء دعونا نتفق على سرّ العظمة في الشخص. . ما هو سرّ العظمة. . بِمَ يصبح الشخص عظيماً؟ كلنا نعرف أن المقاييس والمعايير التي نصنعها نحن باطلة. . ومن النداءات في يوم القيامة: «**أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا. . فأنصتوا إلي إنما هي أعمالكم ترد عليكم. . أيها الناس، إني جعلت نسباً (معياراً) وجعلتم نسباً. . فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم، قلت: إن أكرمكم عند الله أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان وفلان أغنى من فلان فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي: أين المتقون. . .**»[1].

نحن نصنع معايير لسرّ العظمة وما هو (المعيار) في الحقيقة إلا القرب من الله عز وجل. . طاعة الله سبحانه وتعالى، بعبارة ثانية: عندما يطيع الإنسان الله، فهو عاقل، وعندما يعصي فقد خرج عن دائرة العقل بهذا المقدار. ومن لا تعرف سيرتُه إلا الطاعة الأتمّ لله عز وجل فهو العاقل الأتمّ، أقرب الناس إلى الله والمتمحض في طاعته سبحانه، عندما يقترب الإنسان قليلاً من الله عز وجل لا بد وأن تظهر نتائج هذا القرب، كلنا نسمع أو نقرأ الحديث القدسي: «**عبدي أطعني تكن مثلي. تقولَ للشيء كن فيكون**»[2]. كلنا نقرأ في كتاب الله

(١) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء ٧/ ٢٧٧؛ والسيوطي، الدر المنثور ٥/ ٣٤٠؛ والحاكم النيسابوري، المستدرك ٢/ ٤٦٤؛ وعبد الصمد الهمداني في بحر المعارف ص٢٢٧ بصيغة أخرى، مختصرة.

(٢) هذه هي الصيغة المشهورة لهذا الحديث القدسي. انظر: الإمام علي، للرحماني الهمداني، ص٣٦٢، وهناك عدة صيغ أخرى: «عبدي أطعني تكن مثلي (أو مثلي) أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون». أبو طالب حامي الرسول، نجم الدين العسكري، ص١٨٥. «عبدي أطعني حتى أجعلك مثلي أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون». الحائري، شجرة طوبى ١/ ٣٣. وبنفس الصيغة المتقدمة: بحار الأنوار ١٠٢/ ١٦٥؛ وفي الجواهر السنية، للحر العاملي، ص٣٦١ ورد حديث يقرب منه: «عبدي أطعني أجعلك مثلي، أنا حي لا أموت أجعلك حياً لا تموت، أنا غني لا أفتقر أجعلك غنياً لا تفتقر، أنا مهما أشاء يكون أجعلك مهما تشاء يكون».

تعالى: **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾** ونقرأ: **﴿يد الله فوق أيديهم﴾**. رسول الله ﷺ لشدّة قربه من الله عز وجل وصل إلى مقام لا يمكننا أن نتصور كنهه، الإنسان العادي إذا أطاع الله عز وجل فبمقدار طاعته يقترب، فإذا وصل إلى مرحلة مميزة من الطاعة تصدر عنه أمور من الغرائب. ما أكثر العلماء الأجلاء من أصحاب الكرامات الذين كانوا لقربهم من الله عز وجل يقومون بمثل هذه الأمور، ما أكثر ما سمعتم.. ما أكثر ما قرأتم من هذه الكرامات.. وما هوالمحور..؟ إنه القرب من الله عز وجل.

إذا أردنا أن نتعرف إلى بعض جوانب قرب رسول الله ﷺ.. وأهل البيت من الله عز وجل فينبغي أن نقف أولاً عند مثال يوضح الصورة، (المثال يذكره بعض العلماء): لو فرضنا أننا وضعنا حديدة في النار.. وطال بقاء هذه الحديدة في النار، ماذا نرى بعدئذ.. ما هي النتيجة؟ نرى أن الحديدة اكتسبت جميع خصائص النار.. من يضع يده عليها يتألم.. من ينظر إليها يظن أنه ينظر إلى النار، لقد اكتسبت من شدة القرب وطول مدة القرب جميع خصائص النار، لكن.. هل أصبحت هذه الحديدة ناراً... هل تغير جوهرها؟ أو تغيَّرت حقيقتها؟... أم أنها ما تزال حديدة؟ والنار... هل أصبحت حديداً أم أنها ما تزال ناراً؟ شدة قرب المؤمن من الله عز وجل تجعل هذا المؤمن مظهراً لبعض الخصائص الإلٰهية. هذا بالنسبة للمؤمن العادي، فكيف بالنسبة إلى رسول الله ﷺ؟ هل هناك بين الخلق جميعاً أقرب إلى الله عز وجل من المصطفى الحبيب؟ إذاً.. ما هي نتائج هذا القرب؟ نتائجه: **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾** يد رسول الله يعبَّر عنها بيد الله تعالى، نطقُ رسول الله **﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى﴾**. ماذا تريد أن تقول لنا هذه الحقائق: المصطفى الحبيب ﷺ هو مظهر قدرة الله تعالى، مظهر علم الله تعالى، مظهر حلم الله تعالى، مظهر كرم الله تعالى، والزهراء روح المصطفى التي بين جنبيه.. بضعة منه.. شجنة منه[1]. ينبغي أن نبحث عن عظمة فاطمة عليها صلوات الرحمٰن في عظمة رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرضى لرضى فاطمة..**»، ألم نسمع

---

(١) البضعة: تلفظ بفتح الباء وبكسرها ومعناها قطعة اللحم، والشجنة (بالتحريك): مشتبَك العروق واللحم. (المعجم الوجيز).

جميعا بهذا الحديث؟ يقف عنده أحد كبار العلماء[1] فيقول ما خلاصته: لو كان الحديث هكذا: إن فاطمة لترضى لرضى الله وتغضب لغضبه. . لكان هذا الحديث يدل على درجة عظيمة للزهراء، ولكنه بصيغته الحالية يدل على درجة أعظم بكثير، لا يقول الحديث: إن فاطمة ترضى لرضى الله وتغضب لغضبه، بل يقول: «**إن الله ليرضى لرضى فاطمة ويغضب لغضبها**». هذه مرتبة أعلى. متى يصبح الإنسان مطيعاً تمام الطاعة لله عز وجل؟ عندما يصبح عاقلاً، وكلما كانت الطاعة أتمّ كان العقل أكمل كما مر . .يقول هذا العالم الجليل: هذه الرواية تدل على عظمة مميزة للزهراء عليها صلوات الرحمٰن.

أقف هنا عند نص للإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه لنكتشف أن كثيراً مما نعرفه ونتداوله لا علاقة له بشخصية الزهراء صلوات الله وسلامه عليها. يتحدث الإمام في «صحيفه نور» باللغة الفارسية ما ترجمته:

«**إنها ـ أي الزهراء ـ موجود ملكوتي ظهر في العالم في صورة إنسان، بل هي موجود إلهي جبروتي ظهر في صورة امرأة. جميع الهُويات الكمالية المتصوَّرة في إنسان موجودة فيها، وفيها عليها السلام جميع خصائص الأنبياء**».

يضيف الإمام: «**لو كانت رجلاً لكانت نبياً. . لو كانت رجلاً لكانت مكان رسول الله صلى الله عليه وآله. التجليات الملكوتية. . التجليات الإلهية. . التجليات الجبروتية. . التجليات المُلكية والناسوتية كلها مجتمعة في هذا الوجود**».

حتى إذا لم أفهم كل دلالات كلمات الإمام رضوان الله تعالى عليه. . فهو يكشف عن أن اللغة التي ينبغي أن نتحدث بها عن الزهراء عليها السلام ينبغي أن تكون لغة مميزة.

إذاً، في باب الإشارة إلى عظمتها عليها صلوات الرحمٰن ينبغي أن نضبط حركتناعلى هذا الأساس.

وعندما نريد أن نتعرف إلى بعض خصائصها، مثل (نور الزهراء) ونحاول أن نكوّن فكرة عما في الروايات عن نور الزهراء، بعد الحديث عن العظمة ماذا نجد؟

---

(١) هو آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني في «مقتطفات ولائية» ١٤٢.

أولاً: حيثما وجدتَ الحديث عن النور في القرآن الكريم أو في الروايات.. تجد حديثاً عن الزهراء. ما هو سرّ هذه العلاقة بين الزهراء والنور الإلهي؟ نجد في الروايات ما ينبغي أن يكون هو المصبّ لاستلهام هذه الحقيقة، ولا يمكن الوصول إلى كنه الحقيقة مباشرة على الأقل، إلا أن هناك أموراً واضحة.. مثلاً: هل كانت الزهراء نوراً قبل أن يخلق الله الخلق؟ ومن يشك في ذلك من بين كلّ علمائنا الأعلام!؟ لنتأمل مجاميعهم في الحديث، لنتأمل كتبهم. سنجد أن هذا الأمر من المسلمات لا مجال للنقاش فيه أبداً. أذكر هنا كمثال: في «روضة المتقين».. يصرح المجلسي الأول كما يصرح كذلك الشيخ الصدوق بصحة أحاديث تضمنت أن نور الزهراء عليها السلام كان قبل أن يخلق الله عز وجل الخلق بآلاف الأعوام. والروايات في هذا الباب كثيرة جداً، بعضها يتحدث عن نور فاطمة فقط، وبعضها يتحدث عن أنوار المصطفى وعترته. والنور واحد.. يكفي أن نجد في الزيارة الجامعة: «**خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين**».

يكفي أن نقف عند الروايات التي وردت عن المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله في حديثه حول نور الزهراء: «**نور فاطمة من نورنا**»، «**نورنا ونور فاطمة واحد**»[(١)].

أذكر هنا حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام وقد سئل: لم سُميت فاطمة الزهراء زهراء؟ فقال: «**لأن الله عز وجل خلقها من نور عظمته، فلما أشرقت أضاءت السماوات والأرض بنورها، وغشيت أبصار الملائكة، وخرّ الملائكة لله ساجدين، وقالوا: إلهنا وسيدنا.. ما هذا النور؟ فأوحى الله إليهم: هذا نور من نوري، وأسكنته في سمائي، خلقته من عظمتي، أُخرجه من صلب نبي من أنبيائي أفضّله على جميع الأنبياء، وأُخرج من ذلك النور أئمة يقومون بأمري.. يهدون إلى حقي، وأجعلهم خلفاء في أرضي بعد انقضاء وحيي**»[(٢)].

فالزهراء عليها السلام إذاً مصدر نور الأئمة الأحد عشر على الأقل.. إن شئت.. كما يفهم من ظاهر هذه الرواية.

---

(١) يأتي ذكر مصادر هذه الروايات في حديث خاص حول روايات النور.

(٢) الطبري، نوادر المعجزات، ص٨٢؛ ودلائل الإمامة، ص١٤٩ مختصراً؛ والحر العاملي في الجواهر السنية، ص٢٤٠؛ والمجلسي، بحار الأنوار ٤٣/ ١٢.

عندما نريد أن نقف عند بعض الخصوصيات التي تكشف عن أبعادٍ تفتح لنا آفاقاً في محاولة رفع مستوى معرفتنا بالزهراء لنرفع بذلك مستوى تديُّننا. . لا يمكن أبداً إلا أن نقف عند الحديث عن «مصحف فاطمة». طال الكلام وكثر حول مصحف الزهراء. . البعض يتهموننا بأننا نعتبره مصحفاً بديلاً عن القرآن الكريم والعياذ بالله! ورواياتنا صريحة في أن مصحف الزهراء ليس فيه حرف من القرآن الكريم. . هو شيء آخر. . لربما نجد تشكيكاً من بعض أوساطنا في مصحف فاطمة، أو في أهميته، أو في بعض خصوصياته. التكليف الشرعي أيها الأحبة ـ بعيداً عن أية مزايدة ـ يقتضينا أن نقف عند هذه الأمور. . يصاب الإنسان بالفجيعة عندما يقابل بين حديث علمائنا الأعلام عن مصحف فاطمة وبين ما نسمعه. . ولا نحب. . كما لا نحب الإصرار عليه على الإطلاق. نجد أن الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه يفتخر في وصيته بأمور من جملتها مصحف فاطمة، فما معنى ذلك؟ إن هذا يكشف عن مكانة عظيمة للصحيفة الفاطمية كما يسميها الإمام، يقول رضوان الله عليه:

«**نحن نفخر أن لنا مناجاة الأئمة الشعبانية، ودعاء عرفات للحسين بن علي عليه السلام، والصحيفة السجادية زبور آل محمد هذا والصحيفة الفاطمية، ذلك الكتاب الملهم من قبل الله تعالى للزهراء المرضية**» (كتاب ملهم من الله عز وجل للزهراء).

في مكان آخر يتحدث الإمام عن مصحف فاطمة عليها السلام حديث الأمر المفروغ منه، يقول ما خلاصته:

«**عندما كان جبرائيل عليه السلام ينزل على الزهراء عليها السلام ويحدثها بما يجري على ذريتها من بعدها**»(١). . أليس من المحتمل أنه حدثها عن الجمهورية الإسلامية في إيران؟.

وحول بعض تفاصيل نزول جبرئيل عليه السلام على مولاتنا الزهراء عليها السلام؟

---

(١) سمعت ذلك منه في إحدى خطبه عبر التلفزيون ولم أعثر على النص في (صحيفه نور).

أترك الحديث هنا أيضاً للإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه حيث بيّن في كتاب «صحيفهء نور» جزء ١٩ صفحة ٢٧٨ ـ ٢٧٩ هذه الخصوصيات بما لا مزيد عليه، يقول عليه الرحمة والرضوان:

«أنا بالنسبة إلى حضرة الصدّيقة سلام الله عليها أرى نفسي قاصراً حتى عن ذكرها إلا أنني أكتفى برواية فقط وردت في الكافي الشريف، ونقلت بسند معتبر» (لاحظ. . في كتاب الكافي والسند معتبر) وهي: **سئل الإمام الصادق عليه السلام عن مصحف فاطمة فقال:**

«إن فاطمة عليها السلام مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله خمسة وسبعين يوماً، وكان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبرئيل عليه السلام يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها، ويطيّب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان عليّ عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة».

يضيف الإمام الخميني رضوان الله عليه:

«وظاهر الرواية أن تردد جبرئيل طيلة هذه الخمسة والسبعين يوماً كان كثيراً» (يعني جبرئيل عليه السلام لم يأت مرة أو مرتين أو ثلاث مرات. . فظاهر الرواية أنه كان كثير التردد إلى الزهراء عليها السلام:

يضيف الإمام: **«ولا أظن أن مثل هذا قد ورد حول غير الطبقة الأولى من الأنبياء العظام، طيلة خمسة وسبعين يوماً، كان جبرئيل يتردد إليها، ويذكر المسائل التي ستقع في المستقبل لذريتها، وكان الأمير عليه السلام أيضاً يكتب ذلك. . كان الأمير كاتب الوحي كما كان كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله»** (ثم يضيف الإمام): **«طبعاً ذلك الوحي بمعنى التشريع كان قد تمّ. .»**.

الوحي المقصود هنا ليس بمعنى الوحي القرآني أو تشريع الأحكام. . إنما هو وحي من نوع آخر. وأول سؤال يرد هنا: وهل هناك وحي من نوع آخر؟ هل يوحى إلى غير رسول الله؟

والجواب: أوَلسنا مسلمين. . ألم نقرأ القرآن الكريم. . ألا نجد في القرآن:

﴿وأوحينا إلى أم موسى..﴾، ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة﴾؟! حديث الوحي في القرآن يشمل حتى النحل. إذاً، يمكن أن يكون وحي من غير نوع الوحي القرآني. يضيف الإمام:

«ذلك الوحي بمعنى التشريع كان قد تمّ بذهاب رسول الله ﷺ، كان علي عليه السلام كاتب وحي الصدّيقة في هذه الخمسة والسبعين يوماً».

ثم يصل الإمام إلى مجيء جبرئيل إلى الزهراء عليها السلام. هل يمكن أن يجيء جبرئيل إلى أي شخص كان؟ مجرد أن جبرئيل جاء إلى شخص.. فإن هذا يدل على سمو مرتبته مجرد مجيء جبرئيل عليه السلام هو الدليل! يضيف:

«مسألة مجيء جبرئيل إلى شخص ليست مسألة عادية.. لا تتصور أن جبرئيل يأتي إلى أي شخص، أو أن من الممكن أن يأتي، إن هذا بحاجة إلى تناسب بين روح ذلك الشخص الذي يأتي جبرئيل إليه وبين مقام جبرئيل الذي هو الروح الأعظم».

ثم يدخل الإمام في تفاصيل لا ضرورة لها هنا.. إلى أن يقول:

«هذا التناسب كان قائماً بين جبرئيل الروح الأعظم والدرجة الأولى من الأنبياء كرسول الله وموسى وعيسى وإبراهيم وأمثالهم». إلى أن يقول: **«إنني أعتبر هذه الفضيلة للزهراء عليها السلام.. على الرغم من عظمة كل فضائلها الأخرى.. ـ أعتبرها ـ أعلى فضائلها، حيث لم يتحقق مثلها لغير الأنبياء.. بل لم يتحقق مثلها لجميع الأنبياء وإنما للطبقة العليا منهم.. ولأعظم الأولياء الذين هم في رتبتهم، ولم تتحقق لشخص آخر. وهذه من الفضائل المختصة بالصدّيقة سلام الله عليها».**

إيّانا أن نظلم أنفسا بإنزال رسول الله ﷺ وأهل البيت عليهم السلام في غير مرتبتهم التي رتبهم الله فيها.. فإننا آنذاك لا يمكن أن نصل إلى التدين الحقيقي.

أساسٌ لا بد من الوقوف عنده في طريق التديُّن هو معرفة الزهراء والعلاقة بالزهراء. حب الزهراء هو الذي ينبغي أن يكون محور حركة القلب، ولا يمكن أن يحب الإنسان الزهراء حباً حقيقياً إذا كانت الحجب تحول بينه وبينها. من هذه

الحجب التصورات الخاطئة. ولا يمكن أيضاً أن يحب الإنسان الزهراء عليها السلام إلا إذا خفق قلبه بحب العبادة،.. يقول الإمام الحسن عليه السلام:

«..**رأيتها تصلي طيلة الليل وتدعو حتى انفجر عمود الصبح، وما سمعتها تدعو لنفسها.. سألتها في ذلك فقالت: يا بني.. الجار ثم الدار**»[1].

ومن أنا حتى أتحدث عن عبادة الزهراء عليها السلام؟

ولا يمكن أن يتعرف الإنسان على الزهراء إذا لم يخفق قلبه بحب الجهاد، فالزهراء أم المجاهدين.. أم الشهداء.. أم الأسرى..

يا زينب.. سيدتنا.. في جوارك.. على عتبتك نمرّغ جبهة القلب، نريد دعوة منك إلى الله تعالى، بحق الزهراء أن يجعلنا من شيعتكم الحقيقيين.. من أهل المودة في القربى، ويوفقنا للجهاد في سبيله، إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) الطبري، دلائل الإمامة، ص١٥٣؛ والمجلسي، البحار ٤٣/ ٨٢.

(٣)

الزهراء عليها السلام هي المقياس

* تمهيد.
* الحديث عن ظلامة الصدّيقة الكبرى لا ينافي الحرص على الوحدة الإسلامية.
* الزهراء هي المقياس... وبها يعرف الإسلام.
* من ملامح أجواء السقيفة.
* الخطوط العامة للخطبة التاريخية.
* روح المصطفى تخاطب الأجيال.
* ظلامة الصدّيقة وجزئياتها.. في صميم المعتقد.
* ختام.

(٣)

الجمعة ١٦ ج١ ١٤١٨ هـ

في أجواء الأيام الفاطمية حيث ذكرى شهادة مولاتنا الزهراء عليها السلام بناءً على رأيٍ في هذا المجال حيث أنَّ تاريخ الشهادة ليس محدداً كما أنَّ قبرَ الزهراء عليها السلام ليس محدداً ولا معروفاً.

في أجواء هذه الذكرى أيها الحبيب من واجبنا أن ننير عقولنا والقلوب بأنوار الزهراء عليها السلام هذه الذكرى ليست فقط مناسبة للحديث عن معصوم ندين الله تعالى بحبه وليست فقط مناسبة عن معصوم معرفته مفتاح معرفة الله تعالى وإنما هي مناسبةٌ للحديث عن استمرار الإسلام المحمدي الأصيل حيث أنَّ هذا الاستمرار فاطمي كما هو علويٌّ وكما هو حسنيٌّ وحسيني. لكل معصوم في منظومة المعصومين الأربعة عشر هذا الموقع في استمرار الإسلام، كما أنَّ الاعتقاد بالمعصومين الأربعة عشر لا ينفك بعضه عن بعض، فمن لم يعتقد بمعصوم منهم فإنه لا يدين بدين الله عزَّ وجل الذي ارتضاه لعباده، والزهراء عليها السلام واسطة العقد في هذه المنظومة.

في البداية أطرح هذا السؤال الذي قد يتبادر إلى الأذهان: كيف توفقون بين الحديث عن الزهراء عليها السلام وبين الحديث عن الوحدة الإسلامية،فنحن نعيش في مرحلة حساسة من عمر الإسلام «برز الإيمان كله إلى الكفر كله» ودماء الشهداء تغلي وهذه أصداؤها تتردد في أرجاء العالم الإسلامي، ونحن مدعوونَ إلى توحيد الكلمة في مواجهة الغارة الأمريكية والصهيونية على أمتنا فكيف توفقون بين الحديث عن ظلامة الزهراء عليها السلام وبين الحديث عن وحدة الأمة ووحدة الكلمة، ألا ينافي الوحدة إدانة خصوم الزهراء؟

والجواب على هذا السؤال: نحن نقف أمام أمرين كل منهما دين لا يمكننا ألا أن نتعامل معه ونحرص عليه.

الأمر الأول: إظهار الإسلام المحمدي والحفاظ على هوية الإسلام الأصيل.

الأمر الثاني: وحدة الصف وحفظ قوّة الإسلام والمسلمين في مواجهة الأعداء وكِلا الأصلين دين لا نتعاطى معه على أساس أنه شعار للاستهلاك.. كلا.. عندما ندعو إلى وحدة الكلمة نعني ما نقول وعندما نتحدث عن ظلامة الزهراء عليها السلام لا نرى في ذلك تنافياً مع الدعوة الصادقة إلى توحيد كلمة المسلمين في معترك الصراع ضد العدو الأمريكي والصهيوني.. كيف ذلك؟

سيتضح من مطاوي الحديث أنَّ معرفة الزهراء هي معرفة الإسلام المحمدي الأصيل، بل لا أبالغ أبداً إذا قلت إنَّ الزهراء عليها السلام هي الإسلام، وسيأتي مزيد توضيحٍ بعد قليل إن شاء الله تعالى.

ومسألة الوحدة لا نفهمها مجاملة وتظاهراً وتصنُّعاً، أو نفاقاً، أي أن يقول الشيعي للسني ـ أو العكس ـ أنا مثلك تقريباً. هذا ليس توحيداً لكلمة المسلمين.. مسألة التوحيد لا تتنافى مع الإثنينية فهناك نمطان، وفهمان، وتغاير في كثيرٍ من الأمور ومع وعينا لهذا التغاير نُصِرُّ على الوحدة لأننا نريد الوحدة بين أهل فهمين تجمعهما قواسم مشتركة في مواجهة الأعداء.. تجمعهما وحدة الاعتقاد بالله تعالى ونبوة المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله وقدسية القرآن الكريم وعظمة أهل البيت عليهم السلام وغير ذلك كثير..

الأمر الذي لا بُدَّ من إيضاحه أنَّ لكلٍ من الفريقين الشيعي والسني أن يتحدث في دائرته الخاصة بما يعتقده حقاً بينه وبين الله تعالى يعزز كل فريقٍ قناعته، يربي جمهوره على ما يعتقدأنه الدين إلا أن خصوصيات الوحدة الإسلامية، يجب أن تلحظ لا سيما في الدائرة العامة.

ولا ننسى أننا رواد الحوار مع الغير، فلماذا لا نعتبر الحوار بيننا دليل قوة فيرى الجميع أنا نتحاور في أمور حساسة ولا يؤثر ذلك على وحدة صفنا.. لا تعني الوحدة إلغاء الفوارق الموجودة أصلاً، وإنما تعني أن لا نسمح لهذه الفوارق أن تمزقنا فننشغل بالصراع فيما بيننا ونغفل عن الصراع مع الأعداء، يمكن أن نجمد الصراع ولكن الحوار والبحث والتحقيق ومحاولة التعرُّف على الإسلام المحمدي الأصيل كلٌّ من وجهة نظره أمر آخر.

وينبغي التنبه جيداً إلى أن تثبيت معادلة أن الوحدة تساوي المداراة ـ التي هي بالنفاق أشبه ـ والامتناع عن البحث في ما نشعر بضرورة البحث فيه يشكل خطرا كبيرا على المعتقد وعلى الوحدة معا.

إذاً لا يصح أن تطرح الأحاديث عن ظلامة الزهراء عليها السلام في إطار إثارة النعرات بين المسلمين. يجب الحرص جداً على أن لا يعلو صوتٌ فوق صوت المعركة مع أمريكا والعدو الصهيوني وأن تطرح حقائق الإسلام ويجري البحث عنها في الإطار الذي ينبغي لأنَّ التعريف بالإسلام المحمدي الأصيل واجبٌ لا مجال لأن نحيد عنه.

أما مسألة أنَّ الزهراء عليها السلام هي الإسلام.. فعندما نجد شخصاً ورعاً متقياً قمة في الإيمان كما يقال، لا يخالف أحكام الشرع أو أنه حريصٌ جداً على عدم المخالفة، دقيق في التزامه بالحكم الشرعي.. ماذا نقول عنه؟.. نقول: إنه تجسيدٌ للإسلام، إنه إسلامٌ يمشي على الأرض، فإذا كان يصح هذا الوصف بالنسبة لشخصٍ غير معصومٍ فكيف بالنسبة للمعصوم الذي لا ينفك عن الإسلام ولا ينفك الإسلام عنه، الزهراء عليها السلام هي الإسلام لأنها القمة المحمدية التي لا تُبارى، ربما أتناول إذا قدَّر الله تعالى في الأسابيع المقبلة الحديث عن عظمة الزهراء عليها السلام، وأفرد حديثاً لهذا الموضوع لأورد كلماتٍ لبعض العلماء السُّنة الكبار حول أنَّ الزهراء عليها السلام أعظم من جميع الأنبياء باستثناء أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله.

الزهراء عليها السلام عظيمة، وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وآله أن عظمتها فوق ما نتصور بكثير.. «**فاطمة بضعة مني**» «**إن الله ليرضىٰ لرضى فاطمة**» وغير ذلك من الأحاديث التي تناولتها في حديث سابق، ليس كل عظيم يرقى إلى مرتبة أنه بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله أو يرضى الله تعالى لرضاه.. ولأنها عظيمة فقدأكَّد عليها المصطفى هذا التأكيد لأسباب منها: أنَّ الفترة التي ستلي شهادة المصطفى ستكون فترةً فاطمية بامتياز شديد وإلا فإن كل القرون فاطمية..

لا يمكن أن يُعرف خط استمرار الإسلام المحمدي الأصيل في تلك الفترة وبعدها إلاَّ من خلال رصد مواقف الزهراء عليها السلام كما سنرى، هذا الأمر ينبغي

أن يضعنا أمام حقيقة أنَّ الزهراء عليها السلام في تلك المرحلة في أجواء السقيفة خاطبت الأجيال وسنجد في خطبتها المباركة المؤشر على ذلك «أنها كانت تخاطب الأجيال». كانت تعلم أن القوم الذين يسمعونها لن ينصروها، لذلك أشارت إلى أنها تخاطب الأجيال. والمصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله أكّد عليها لأنها تستحق هذا التأكيد ولأنَّ هذا التأكيد يجعل إصغاء الأجيال عبر القرون إلى صوت الزهراء عليها السلام الذي دوى في أجواء السقيفة إصغاءً مميزاً، وهذا يعني أنَّ الزهراء عليها السلام هي المقياس في معرفة الإسلام.

إذا أردنا أن نوضح ذلك بعض الشيء فلا بدَّ من الوقوف عند بعض خصوصيات أجواء السقيفة.

أولاً: كانت الردة مستبطنة، موجودة في زمن المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله **﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾** فالقرآن الكريم يتحدث عبر هذا الانقلاب على الأعقاب عن رِدَّةٍ مستبطنة، ونجد أنَّ القرآن الكريم يصف أركانها بأنهم مردوا على النفاق.

هذا هو المَعْلَمْ الأول مِنْ معالم أجواء السقيفة.

المَعْلَمْ الثاني: أن وفاة المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله أتاحت الفرصة، رأى أولئك أنَّ الفرصة مؤاتيةٌ للانقضاض على الإسلام بالطريقة المناسبة.

المَعْلَمْ الثالث: أن علياً عليه السلام كان مأموراً بالصبر..

إذا أردنا أن نستوضح هذه الخصوصيات بعض الشيء أقف عند روايتين قلما يتمُّ التعرض لهما أو لمضامينهما:

الرواية الأولى: عن شخص اسمه أحمد بن همام، يقول: جئت إلى عبادة بن الصامت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله في ولاية أبي بكر (يريد أن يسأل عُبادة باعتبار أنَّ عبادة عاصر المصطفى الحبيب وكان هذا في ما يبدو صغيراً لم يُتح له ذلك) قال له: يا أبا عمارة أكان الناس على تفضيل أبي بكر قبل أن يُستخلف؟ (هل كان الناس يرون تفضيل أبي بكر قبل الخلافة!؟).

فانفجر عبادة بن الصامت في وجهه قائلاً: **يا أبا ثعلبة إذا سكتنا عنكم فاسكتوا** (أمورٌ لا تعرفون كيف تخوضون فيها أتركونا وشأننا وهناك أمورٌ لا

نستطيع أن نقولها) **فاسكتوا ولا تبحثوا فوالله لعلي بن أبي طالب كان أحقَّ بالخلافة كما كان رسول الله ﷺ أحق بالنبوة من أبي جهل، وقال أزيدك؟** (عبادة بن الصامت يقول لأحمد بن همام: أزيدك؟ ماذا يزيده يقول له: ذات يوم كنت مع رسول الله ﷺ وإذا بثلاثة أشخاص يدخلون.. دخل فلان ثم دخل فلان، ثم دخل علي وإذا بوجه رسول الله ﷺ قد تغير..) يقول عبادة: **فكأنما سُفِّي على وجه رسول الله ﷺ الرماد قال: يا علي أيتقدمانك!؟**... ارتبك الرجلان فقال أحدهما: سهوت، وقال الآخر: نسيت، قال رسول الله ﷺ: **ما نسيتما ولا سهوتما وكأني (...) ولكأني بأهل بيتي وهم المقهورون المشتتون في أقطارها وذلك الأمر قد قضي... ثم بكى رسول الله ﷺ... حتى سالت دموعه... ثم قال: يا علي الصبر الصبر حتى ينزل الأمر ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم فإنَّ لك من الأجر في كل يوم ما لا يحصيه كاتباك فإذا أمكنك الأمر فالسيف السيف، فالقتل القتل حتى يفيؤوا إلى أمر الله وأمر رسوله فإنك على الحق ومن ناوأك على الباطل وكذلك ذريتك إلى يوم القيامة**(١).

وربما تسأل إذا كان هذا الأمر سيقع فلماذا يتحدث عنه المصطفى الحبيب ﷺ بوضوح؟ ألم يكن كتمانه أفضل حتى لا يشجع القوم على ما فعلوه؟..والجواب: بالعكس تماماً إذا كان هذا الأمر واقعاً فلا بدَّ من التحذير لكي يكون واضحاً للمسلمين أين هو المسار الصحيح، أين هو الإسلام المحمدي الأصيل، ثم لننتبه أنَّ المصطفى الحبيب ترك الأمر مبهماً فإذا أمكنت أمير المؤمنين الفرصة فالسيف السيف، والقتل القتل».

الرواية الثانية: أوردها ابن أبي الحديد في «شرح النهج»وخلاصتها: أن سائلاً قال لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين لو كان لرسول الله ﷺ ولد يستحق أن يكون خليفة هل كان القوم يسلمون الخلافة إليه؟ فيقول أمير المؤمنين: كلاَّ.. كانوا يقتلونه إلاَّ أن يفعل كما فعلت.. لنستمع إلى النص:

قيل لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين أرأيت لو كان رسول الله ﷺ قد ترك ولداً ذكراً قد بلغ الحلم وآنس منه القوم الرشد أكانت العرب تسلم إليه أمرها؟

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ١/ ٢٩١؛ وفي بحار الأنوار للمجلسي ٢٩/ ٤٢٥.

قال: لا، بل كانت تقتله إن لم يفعل ما فعلت، ولولا أن قريشاً جعلت اسمه (أي اسم رسول الله ﷺ) ذريعة إلى الرئاسة وسلماً إلى العز والإمرة لما عبدت الله بعد موته يوماً واحداً[1].

أي لولا أن قريش رأت أن اسم رسول الله ﷺ وسيلة للوصول إلى الحكم لما تظاهرت بالإسلام بعد المصطفى الحبيب يوماً واحداً.. هذه هي الأجواء التي نقرأ فيها عن مواقف الزهراء عليها السلام والتي أطلقت فيها للأجيال خطبتها الفصل.

عندما نلقي نظرة سريعة على أهم عناوين هذه الخطبة المباركة نجد أنها عليها صلوات الرحمٰن كانت تريد أن تثبت حقائق الإسلام ومفاهيمه في خطبة تاريخية خالدة، بل هي السند الأقوى على الخط الإسلامي المحمدي الأصيل تبدأ الخطبة بالحديث عن توحيد الله تعالى ثم الحديث عن اختيار المصطفى الحبيب قبل أن يخلق الله تعالى الخلق «إذ الخلائق بالغيب مكنونة»، ثم تتحدث باختصار عن البعثة وعن الشهادة، ثم تتحدث عن جملة من العناوين الإسلامية الأبرز، الصوم تثبيتاً للإخلاص وما بعده.. ثم ترجع إلى الحديث بالتفصيل عن أجواء البعثة والحروب التي خاض غمراتها المصطفى الحبيب ﷺ إلى أن تصل إلى الظرف الذي كانت فيه: **فلما اختار الله عزَّ وجل لنبيه دار أنبيائه ومأوى أصفيائه ظهرت فيكم حسيكة النفاق**، ـ الحسيكة: الضغينة والحقد، **وسمل جلباب الدين** أصبح ثوب الدين بالياً **ونطق كاظم الغاوين** ـ المراد هم الضالون الذين كانوا ساكتين فنطقوا، **ونبغ خامل الأقلين** الذي كان يأتي في آخر قافلة المسلمين، أصبح يأتي في الطليعة. **وهدر فنيق المبطلين** الفنيق: «الفحل» **وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم** ـ الخطاب هنا موجّه إلى المهاجرين والأنصار وثمة خطاب خاص بالأنصار ـ **فألفاكم لدعوته مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً هذا والعهد برسول الله ﷺ قريب والكَلْم رحيب؟** الكلم: هو الجرح أي الجرح لفقد المصطفى كبير، **هذا والعهد قريب والكَلَمْ رحيب والجرح لمَّا يندمل تُسرّون حسواً في ارتغاء**، الذي يشرب الحليب وعلى وجهه رغوة يتظاهر بأنه يشرب الرّغوة ولكنه في الأثناء يسرق من الحليب أي يتظاهر بشيء ويُسر شيئاً لذا

(١) ابن أبي الحديد، شرح النهج ٢٠/٢٩٨، وتأتي تتمة النص في الحديث رقم ٤ فلاحظ.

يقال له: تسرُّ حسواً في ارتغاء، **تسرُّون حسواً في ارتغاء وتمشون لأهله وَوَلده** (أو وَوُلده) **في الخمر والضراء**، المراد هنا: كنتم كالصياد يكمن في مكان خلف الشجر تارة لا يكاد يخفيه.. وتارة يخفيه جيداً ليستطيع أن ينال من فريسته **ونصبر منكم على مثل حز المدى ووخز السنان في الحشا وأنتم تزعمون أن لا إرث لنا ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقومٍ يوقنون﴾**.

بعدئذ تدخل في محاجة أبي بكر، بعد ذلك تتحدث مع الأنصار ثم تؤكد أنها تعرف أن الأنصار لن ينصروها، لن ينصروا علياً عليه السلام.

تقول عليها صلوات الرحمٰن: **ألا وقد قلت ما قلت على معرفةٍ مني بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم ولكنها فيضة النفس**... إلى قولها عليها السلام **وتقدمة الحجة** حجةٌ عليهم وحجة للأجيال عندماتريد تحديد الموقف الذي لايمكن أن يكون سليما إلا في ضوء هذا الموقف الفاطمي الإلهي الفريد. كانت عليها السلام تخاطب الأجيال.. القادمة.. ألا تذكرون أن مصحف فاطمة يتضمن ما يجري على ذريتها.. نعم كانت عليها السلام تتطلع إلى الأجيال إلى كل فردٍ يمكنه أن يلبي دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله.. فدعوة الزهراء عليها السلام ودعوة أمير المؤمنين وأهل البيت ليست شيئاً آخر غير دعوة المصطفى الحبيب هذه الدعوة التي أصبحت تتجسّد الآن في دعوة مولانا صاحب العصر والزمان «أرواحنا فداه» وتتجسّد حركتها السياسية في ثمرة الإسلام في هذا العصر الجمهورية الإسلامية بقيادة ولي أمر المسلمين دام ظله، والتي يشكل التزامها لقضية المسلمين الأولى (فلسطين) الدليل الأوضح على سلامتها في البعد السياسي من الزيغ والتحريف.

أيها الحبيب: ما هو واجب الأجيال تجاه هذا الخطاب الفاطمي؟ لنستحضر أن أمير المؤمنين عليا عليه السلام لم يتصد في تلك المرحلة، كان مأموراً بالصبر، الزهراء عليها السلام هي التي تصدت، ما معنى ذلك؟ معناه أن تراقب الأجيال مواقف الزهراء في تلك الفترة الحرجة وتحاول معرفة الإسلام المحمدي الأصيل من خلال مواقف الزهراء عليها السلام.

إذا أردت أن أقف عند بعض الدلالات لتصدي مولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام فينبغي أن أؤكد في البداية على أن من الدلالات أن استمرار

الإسلام رهن مواقف الزهراء عليها السلام. ولكي نستوعب أهمية هذه النقطة يجب أن ننتبه إلى مايلي:

هناك نمطان في الحديث عن ظلامة الزهراء عليها السلام في الدائرة الشيعية. نمط يريد أن يوحى لنا أنَّ ظلامة الزهراء على الهامش، فالصراع كان موجوداً بين عليٍّ عليه السلام وبين المناوئين له و على هامش هذا الخلاف وقعت ظلامة الزهراء عليها السلام هذا الفهم خاطئ.

النمط الآخر: أن الحجة التي يعرف بها الإسلام المحمدي الأصيل ينبغي أن يبحث عنها في تلك الفترة النوعية في ظلامة الزهراء عليها السلام ينبغي أن لا توضع ظلامة الزهراء على الهامش على الإطلاق وإنما هي المدخل، فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام مأموراً بالصبر ولذلك نجد الموقف البارز هو موقف الزهراء عليها السلام ولم تأت الخطبة الشقشقية التي هي السند الثاني الأكبربعد وفاة المصطفى الحبيب إلا بعدخمسة وعشرين عاماولم يتصد في أجواء السقيفة أحد غير الزهراء عليها السلام وعندما نريد أن نبحث عن الحجة الأبرز ... لا أقول أنه لا توجد روايات وأحاديث، وحجج تامة جداً وشديدة القوة والوضوح بلى إنها فوق الإحصاء ولكن عندما نريد أن نبحث عن الحجة الأقوى والأبرز والأشد وضوحاً التي يمكن أن يقف عندها العدو والصديق البعيد والقريب نجد أن مواقف الزهراء عليها السلام هي الحجة الأقوى، هذا الأمر يجعلنا نتنبّه إلى خطورة أدنى تقليل من شأن ماجرى على الصديقة الكبرى.

والدلالة الثانية: أن التأكيد على كل مفردة من مفردات ظلامة الزهراء تأكيد على الإسلام المحمدي الأصيل حيث أنه تأكيد على أقوى حجة يمتلكها الإسلام لإثبات المسار الصحيح وتمييزه من مسار مسجد الضرار. إن التأكيد على كل مفردة من المفردات أمر ضروري.

والدلالة الثالثة: أن إضعاف أية مفردة من مفردات ظلامة الصدّيقة الكبرى عليها السلام هو إضعاف للإسلام المحمدي الأصيل كيف؟

عندما نتحدث عن فدك أو نتحدث عن إحراق الباب، أو نتحدث عن سقط الجنين أو عن ضرب مولاتنا الزهراء عليها السلام فإننا لا نتحدث عن ذلك لمجرد

استثارة العواطف وإنما لأن في هذه المفردات السند القوي على الإسلام المحمدي الأصيل الذي ينبغي أن ندين الله عزَّ وجل به ونتبعه ونلتزمه، عندما نجد أن علماء سنّة يؤكدون على هذه المفردات ومنهم من كبار القوم فلماذا التشكيك في هذه المفردات يا ترى؟ في معرض حديثه عن إسقاط جنين زينب (بنت رسول الله ﷺ) عند محاولة خروجها من مكة إلى المدينة قال ابن أبي الحديد في «شرح النهج»:

«فَرَوَّعها هُبار بالرمح وهي في الهودج، وكانت حاملاً (. . .) فلذلك أباح رسول الله ﷺ يوم فتح مكة دم هبار بن الأسود.

أضاف: وهذا الخبر قرأته على النقيب أبي جعفر رحمه الله فقال: إذا كان رسول الله ﷺ أباح دم هبار بن الأسود لأنه رَوَّع زينب فألقت ذا بطنها، فظهر الحال أنه لو كان حياً لأباح دم من رَوَّع فاطمة حتى ألقت ذا بطنها.

فقلت: أروي عنك ما يقوله قوم إن فاطمة رُوِّعت فألقت المحسن فقال: لا تروه عني ولا تروعني بطلانه فإني متوقف في هذا الموضع لتعارض الأخباري عندي فيه»[1].

قال العلامة المجلسي بعد نقله ما تقدم:

«ظاهرٌ أن النقيب رحمه الله عمل التقية في إظهار الشك في ذلك، من ابن أبي الحديد أو غيره، وإلا فالأمر أوضح من ذلك كما سيأتي في كتاب الفتن»[2].

أؤكد: إنما نطرح هذه الأمور من باب الموازنة بين أمرين حفظ الإسلام المحمدي الأصيل من جهة وحفظ وحدة المسلمين وقوتهم، نوازن فنرى أنَّ حفظ الإسلام ينبغي أن يكون في الأولوية وفي الطليعة لذلك نحرص على الحديث عن ظلامة الزهراء ونحرص على التأكيد أن مولاتنا الزهراء عليها السلام هي المقياس.. دون أن يفت ذلك من عضدنا في التزام مبدأالوحدة قيد أنملة.

في الختام أيها الحبيب درسٌ عملي بالإضافة إلى الدروس الكثيرة في العبادة

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٤/ ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٢) المجلسي، بحار الأنوار ١٩/ ٣٥١.

والورع وغير ذلك هو درس الجهاد في سيرة مولاتنا الزهراء عليها صلوات الرحمٰن، هي أم المجاهدين وأم الأسرى وأم الجرحى وأم الشهداء، إذا أردنا أن نكون فاطميين، مع الزهراء، لترضى عنّا عليها السلام فينبغي أن نكون في خط الجهاد ونحن في عصرٍ لا يصح أن يحرم الإنسان نفسه من التطلع إلى الشهادة. ما أسوأها من عاقبة أن يحرِم الإنسان الشهادة وقد فتحت أبوابها في عصر نرى فيه كيف يقتحم فيه المجاهدون في فلسطين وفي المقاومة الإسلامية في لبنان سوح الجهاد، علينا أن نكون معهم ونبحث عن رضا الزهراء عليها السلام في خدمتهم بل في الحرص على أن نكون منهم وما ذلك على الله تعالى بعزيز.

والحمد لله ربِّ العالمين

(٤)

هل نعرف الزهراء عليها السلام

* تمهيد.
* حذار من المعرفة الباهتة.. والسطحية والارتجال.
* الرواية الأولى: على معرفتها دارت القرون الأولى.
* رأي المحقق النجفي.
* الرواية الثانية: سميت الزهراء لأن الله تعالى خلقها من عظمته.
* الرواية الثالثة: أن الله تعالى خلقهم من نوره وعرض ولايتهم على أهل السمٰوات والأرض وأنها شرط قبول الأعمال.
* أشد الناس حسرة يوم القيامة.. من عرفهم ولم يستقم..
* ولايتهم الغنى والسعادة.. لأنها ولاية الله تعالى..
* الرواية الرابعة: بضعة مني.. يؤذيني ما آذاها.
* رأي علماء سنة القسطلاني، النووي، المناوي.. وآخرين..
* تذييل حول أنواع الأذى واللعن.
* الرواية الخامسة: أشهدهم الله تعالى خلق الأنبياء وقرن طاعته بطاعتهم..
* الرواية السادسة: لولا علي لم يكن لها كفؤ..
* عدة روايات.. بهذا المضمون والاستدلال بها على أفضليتها على النبيين ما عدا المصطفى صلى الله عليه وآله.
* الرواية السابعة: مصحف فاطمة.. ونزول جبرئيل وميكائيل وإسرافيل.. ووقوفهم تأدباً..
* قصة مؤمن عادي حفظ القرآن في لحظة.. وشهد بحفظه المراجع الكبار..
* ختام: على أبواب الشهادة، حزن أبي الحسن.. وحزنها لغربته عليه السلام..

(٤)

الجمعة ٣٠ ج١ ١٤١٨هـ

كل الأيام فاطمية. . إلا أن لهذه الأيام خصوصيتها من هنا كان الوقوف على عتبة قُرَّة عين الرسول ﷺ أكثر إلحاحاً.

مصب الحديث إذا قدَّرَ الله تعالى معرفة الزهراء عليها السلام.

هل نعرف الزهراء عليها صلوات الرحمٰن؟

المراد بالمعرفة المسؤول عنها هو بالتأكيد غير تلك المعرفة الباهة التي تجتمع مع إنكار الكثير من مقامات الزهراء عليها السلام بل تجتمع مع الكثير مما يتنافى مع عظمتها عليها صلوات الرحمٰن.

المقصود هو المعرفة المحرّكة، المعرفة الحقيقية التي تجعلنا نطل ولو من بعيد على مكامن العظمة في شخصية مولاتنا الزهراء عليها السلام وندرك كذلك ولو من بعيد منزلتها بالنسبة إلى الأنبياء والأولياء جميعاً عليهم صلوات الرحمٰن.

إذاً ينبغي أن نحاول التعرف بشكلٍ أفضل وأدق على المعصومين جميعاًومنهم الصِّديقة الكبرى صلوات الله وسلامه عليها.

أيها الحبيب. . حذار من ادعاء المعرفة، حذار من وهم المعرفة، من زيف المعرفة. . لنتذكر أنَّ الروايات كثيرةٌ في الحث على معرفة المصطفى الحبيب وآله الأطهار «صلى الله عليه وعليهم» حتى أننا عندما نقرأ عن زيارة أبي عبد الله الحسين عليه السلام نجد شرط «عارفاً بحقه» «من زاره عارفاً بحقه» كذلك حول غيره من الأئمة عليهم السلام، فقد ورد في الروايات مصطلح «عارفاً بحقهم»(١).

المعرفة التي هي شرط يتم الحديث عنها مع الشيعة الذين يفترض بأدناهم مرتبة أنه يمتلك تلك المعرفة الباهتة الإجمالية.

---

(١) انظر: الصراط المستقيم، للبياضي العاملي ٢/١٤٥؛ والجواهر السنية للحر العاملي، ص٢٦٩؛ والبحار ٢٦/٢٨٦.

إن التأكيد على المعرفة بحقهم عليهم السلام يشير لنا إلى ضرورة التعمق ومغادرة الارتجال والسطحية وعدم الوقوف عند السقوف التي قد يضعها جهلنا.

لننتبه إذاً إلى أن المعرفة المطلوبة تختلف كثيراً عما هو السائد والمتداول.

سأذكر رواياتٍ مختارة في حدود ما يسمح به الوقت من شأنها أن تقربنا بعض الشيء في طريق معرفة مولاتنا عليها صلوات الرحمٰن.

الرواية الأولى: عن الإمام الصادق عليه السلام يتحدث عن زواج المولى أمير المؤمنين ومولاتنا الزهراء إلى أن يقول في آخر الحديث وهي «الصِّديقة الكبرى وعلى معرفتها دارت القرون الأولى»(١).

أترك الحديث هنا لأحد علمائنا الأجلاء وهو المحقق أبو الحسن النجفي في كتاب ملتقى البحرين يتحدث حول هذه الرواية على ما نُقل عنه فيقول:

إنَّ المراد من القرون (..) قرون جميع الأنبياء والأوصياء وأممهم من آدم فمن دونه، حتى نفس خاتم الأنبياء «صلى الله عليه وآله أجمعين».

يضيف: يعني ما بعث الله عزَّ وجل أحداً من الأنبياء والأوصياء حتى أقروا بفضل الصِّديقة الكبرى ومحبتها، ثم يقول: ويؤكد ذلك ما ذكره السيد هاشم البحراني «رضوان الله تعالى عليه» في كتاب مدينة المعاجز نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام وهو قوله: «ما تكاملت النبوَّة لنبي حتى أقرَّ بفضلها ومحبتها»(٢).

إذاً كل نبي كان لا بدَّ له من الإقرار بفضل مولاتنا الزهراء ومحبتها، وفي جميع أدوار الأنبياء كانت معرفتها عليها السلام محوراً.. من أراد الله تعالى لا بد وأن يبدأ بها ليمكنه الوصول.. إن علينا في ضوء ذلك أن نبحث عن مكامن العظمة في

---

(١) رواه الشيخ الطوسي مسنداً في الأمالي في مجلس يوم الجمعة سلخ رجب، ص٦٦٨، ط. مؤسسة البعثة، المعجم الفقهي، الإصدار الثالث؛ وأورده عنه في البحار ٤٣/ ١٠٥؛ وأورده في مستدرك سفينة البحار ٨/ ٢٤٨ عن مجمع النورين للمرندي. انظر ص٣٤٠ نقلاً عن «المناقب» المرتضوي وص٥٠٢ عن أمالي الشيخ، وأشار إلى هذا المضمون آية الله الكمباني في ديوانه الأنوار القدسية، ص٣٧ فقال: وحبها من الصفات العالية عليه دارت القرون الخالية.

(٢) الرحماني الهمداني، فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى، ص٨٦.

شخصيتها على هذا الصعيد.. ما هو موقعها عند الأنبياء جميعاً، وكيف كانوا يتوسلون إلى الله عزَّ وجل بها.

الرواية الثانية: عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنما سميت الزهراء لأن الله عزَّ وجل خلقها من نور عظمته فلما أشرقت أضاءت السمٰوات والأرض بضوء نورها وغشيت أبصار الملائكة وخرّت الملائكة لله ساجدين وقالوا: إلٓهنا وسيدنا ما هذا النور؟ فأوحى الله تعالى إليهم: هذا نورٌ من نوري أسكنته في سمائي وخلقته من عظمتي أخرجه من صلب نبيٍّ من أنبيائي أفضله على جميع الأنبياء وأخرج من ذلك النور أئمةً يقومون بأمري ويهدون إليّ خلقي وأجعلهم خلفائي في أرضي»[(١)].

إذاً نور مولاتنا الزهراء من نور الله عزَّ وجل خلقه الله سبحانه وتعالى من عظمته.

ما العلاقة بين هذا وبين تعبير الإمام الخميني عن مولاتنا الزهراء عليها السلام بأنها موجودٌ جبروتي[(٢)].. ما العلاقة بين هذا والاقتران الدائم بين الحديث عن النور والحديث عن مولاتنا الزهراء.. هذا ما يجب الوقوف على سفحه.. ليمكننا أن نفهم منه بمقدار تزكية نفوسنا.. التي تقربنا من الحقائق بقدرها.. واتقوا الله ويعلمكم الله.

الرواية الثالثة: عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث الإسراء.. أن الله عز وجل قال له: «... يا محمد إني خلقتك وخلقت علياً وفاطمة والحسن والحسين من شبح (سنخ) نور من نوري، وعرضت ولايتكم على أهل السمٰوات والأرض فمن قبلها كان عندي من المؤمنين، ومن جحدها كان عندي من الكافرين، يا محمد لو

---

(١) الطبري، الشيعي، نوادر المعجزات، ص٨٢؛ وأورده ابن سليمان الحلي، القرن التاسع في كتابه المحتضر باختلاف يسير، ص١٣٢، ١٣٣ مروياً عن رسول الله صلى الله عليه وآله، كما أورده الحر العاملي في الجواهر السنية، ص٢٤٠ عن الإمام الصادق عليه السلام، والمجلسي في البحار ٤٣/ ١٢٠؛ والإربلي في كشف الغمة ٢/ ٩٢؛ والحلي في العدد القوية، ص٢٢٧.

(٢) يأتي ذكر النص والمصدر «صحيفه نور».

أن عبداً من عبادي عبدني حتى ينقطع ويصير مثل الشن البالي ثم أتاني جاحداً بولايتكم ما غفرت له حتى يقرّ بولايتكم...»[1].

أيها الحبيب.. لنقف بعض الشيء عند نعمة الولاية التي منَّ الله عزَّ وجل بها علينا بمجرد أننا وصلنا إلى حب أهل البيت عليهم السلام.

هل نعرف العقبات التي وفقنا الله تعالى لاجتيازها والحجب التي أزيلت فوصلنا إلى أعتابهم وأصبحنا نلهج باسمهم إن هذا التوفيق عظيم ونعمة كبرى ﴿**وأتممت عليكم نعمتي**﴾ ومن واجبنا شكر هذه النعمة مجرد أننا وصلنا إلى هنا فهذا أمر عظيم.. و لا يمكن شكر النعمة إلاَّ إذا حافظنا على ما وصلنا إليه وبذلنا الجهد لكي نحصل من الله تعالى على المزيد في مجال معرفتهم أولاً.. والاقتداء بهم ثانياً.. فليس كل من عرفهم سيواصل السير في خطهم وهداهم.. ومن انقلب على عقبيه بعد معرفتهم.. ولوتلك المعرفة الإجمالية فهو بالتأكيد أشدُّ الناس حسرةً وندامة في الآخرة لأنَّ الأمور تنكشف آنذاك فيصبح يرى بكل وضوح أن أقرب الخلق إلى الله عزَّ وجل هم المصطفى الحبيب وآله الأطهار وهو في الدنيا وصل إلى مرحلة كان قريباً منهم نسبياً... ولو أنه أكمل وسار في الطريق إلى آخره فأية مرتبة كانت له في الآخرة ولكن بما أنه قصَّرَ وسمح للشيطان أن يوسوس له فيرتكب المعاصي، تراكمت المعاصي حتى تسببت في سلبه حبَّ أهل البيت عليهم السلام فمات على غير الأيمان فلذلك يكون أشدَّ الناس حسرةً في يوم القيامة «اللهمَّ أعِنّا على أنفسنا».

أشير بالمناسبة إلى أمر تمس حاجتنا إليه وهو على علاقة بالولاية.. هذا الأمر يمكننا من مواجهة التحديات التي نعيشها، يمكننا من التغلب على الهموم.. ما من إنسان منا إلاَّ وهو يواجه مشاكل مختلفة.. كثيراً ما يصل الإنسان إلى الاحباط ينظر في نفسه فيرى أنه فقير، مريض، يرى أنَّ السبل قد سدت في و جهه

(١) الشيخ الطوسي، الغَيْبة، ص١٤٨. وانظر: الطرائف للسيد ابن طاووس، ص١٧٢ نقلاً عن الخطيب الخوارزمي، وكتاب الأربعين للقمي الشيرازي، ص٣٥٤؛ والبحار للمجلسي ٢٧/ ٢٠٠؛ وفيه «سنخ» بدلاً من شبح و٢٦/ ٢٦٢؛ وكشف الغمة للإربلي ٢/ ٩١.

فيعيش الإحباط لننتبه هنا أيها الحبيب إلى أننا أغنياء جداً حتى إذا كنا في منتهى الفقر المادي.. لننتبه إلى أن لدينا حتى عندما نكون في غاية المرض.. والضيق أهم أسباب السعادة، لننتبه إلى أننا نمتلك من خلال ولاية المصطفى الحبيب وأهل البيت «صلى الله عليه وعليهم» التي هي الوجه الآخر لولاية الله عزَّ وجل، ما يجعلنا إذا فكرنا في هذه الخصوصيات أن نشعر بمكامن القوة فينا فنقوى على مواجهة التحديات، فلا نحيد عن خط رضا الله تعالى.. والاستعداد للآخرة.. مع الأخذ بنصيب من الدنيا وهذه هي خلاصة فائدة التوسل ولا يتسع المقام للمزيد.

الرواية الرابعة: عن رسول الله ﷺ: «إنما فاطمة بِضْعَةٌ[(١)] مني من آذاها فقد آذاني، ومن أحبها فقد أحبني، ومن سرّها فقد سرني»[(٢)].

هذه الرواية وما يتحد معها مضموناً ويشبهها لفظاً من المضامين المستفيضة بل المتواترة في مصادر الشيعة والسنّة.. وقد آثرت الوقفة معها لأني وجدت بعض التعليقات لعلماء سنة كبار حولها.

---

(١) بضعة ـ بفتح الباء وقد تكسر ـ بمعنى القطعة من اللحم. وفي شرح صحيح مسلم للنووي ١٦/ ٢ البضعة ـ بالفتح ـ لا يجوز غيره.

(٢) القاضي النعمان، شرح الأخبار ٣/ ٣٠ والمؤلف «النعمان المغربي» من علماء القرن الرابع. وانظر: الاعتقادات للشيخ المفيد، ص١٠٥. فقد أورد روايتين بهذا المضمون؛ والأمالي له، ص٢٦٠؛ والتعجب للكراجكي، ص٥٥، وفيه: «من آذى فاطمة فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله»؛ وأمالي الشيخ الطوسي، ص٢٤؛ وعيون المعجزات لابن عبد الوهاب، ص٥٠؛ ومناقب ابن شهراشوب ٣/ ١١٢؛ والإقبال للسيد ابن طاووس ٣/ ١٦٤؛ والطرائف لابن طاووس نقلاً عن صحيح مسلم؛ والجمع بين الصحيحين، والجمع بين الصحاح عدة روايات بهذا المضمون؛ والصراط المستقيم للبياضي ١/ ١٧٠، أورد حديثاً من صحيح مسلم وقال في آخره: «وبعض المعصوم معصوم». وانظر ٢/ ٢٨٢. قال الشيخ الأحمدي رحمه الله تعالى في مكاتيب الرسول ١/ ٥٦٠، هذا الحديث متواتر بين الفريقين وقد تعرض لنقله على اختلاف ألفاظه وتحقيقه العلامة الأميني رحمه الله تعالى في الغدير ٧/ ٢٣١ ـ ٢٣٦، ثم أورد ثبتاً بالمصادر. وانظر: فضائل الصحابة لابن حنبل، ص٧٨؛ وشرح مسلم للنووي ١٦/ ٢؛ والمعجم الكبير للطبراني ٢٢/ ٤٠٤ بعدة صيغ.

مثلاً: الحافظ القسطلاني وهو أحد شراح صحيح البخاري، عندما يتحدث عن هذه الرواية يذكر حولها ما هذا نصه:

قال العلماء: في هذا الحديث تحريم إيذائه ﷺ بكل حال وعلى كل وجه وإن تولَّد الإيذاء مما أصله مباح «يعني إذا قام الإنسان بعملٍ مباح ولكن هذا العمل المباح الحلال يؤدي إلى أمرٍ فيه أذىً لرسول الله ﷺ فإن هذا العمل يصبح حراماً، الإيذاء حرام وإن كان متولداً من مباح» ثم يقول وهذا من خصائصه ﷺ[1].

ويذكر «النووي» في شرح صحيح مسلم نفس النص تقريباً، وكذلك «المناوي» في «فيض القدير» ولأهمية ما تضمنه هذا المصدر أورد كلامه بالتفصيل، ليكون نموذجاً لمرتكزات الوحدة الإسلامية كاشفاً عن أن الخلاف بين المسلمين يرجع إلى مفتريات وعاظ السلاطين بتحريض وإغواء من البلاط.. وإلا

---

(١) أوردت كلام القسطلاني نقلاً عن كتاب فاطمة بهجة قلب المصطفى للرحماني، ص٤٩، وعندما رجعت إلى المصادر وجدت أن ممن ذكر دلالة حديث: «بضعة مني.. من آذاها فقد آذاني» على حرمة إيذاء النبي بكل حال وعلى كل وجه، بالإضافة إلى القسطلاني الذي ذكر الرحماني عبارته ولم أتمكن من تحصيل نسخة إرشاد الساري، وبالإضافة إلى النووي الذي أورد الرحماني أيضاً عبارته من هامش إرشاد الساري، وتجدها في شرح صحيح مسلم ١٦/ ٢؛ المباركفوري في تحفة الآحوذي؛ والمؤلفون لشرح سنن ابن ماجه ١/ ١٤٤؛ والعسقلاني في فتح الباري ٩/ ٣٢٩.

والعبائر التي تكاد تكون متحدة في جميع المصادر المتقدمة وغيرها هي كما يلي:

«في هذا الحديث تحريم إيذائه ﷺ بكل حال وعلى كل وجه وإن تولد الإيذاء مما أصله مباح». إلا أن الملاحظ أن النووي في شرحه لصحيح مسلم أقحم عبارة بينها أو نقلها عمن أقحمها أو أقحمت في كتابه، قال: قال العلماء في هذا الحديث تحريم إيذاء النبي ﷺ بكل حال وعلى كل وجه وإن تولد ذلك الإيذاء مما كان أصله مباحاً وهو حي وهذا بخلاف غيره.

فإن قيد وهو حي.. إلخ. لا وجود له في أكثر المصادر المتقدمة.. وهو بعد مناف لما تقدم منه من شمول الإطلاق لكل حال وعلى كل وجه.. كما أنه مشعر بمحاولة تبرئة من آذاها بعد وفاته ﷺ.. والحق أن الحديث الشريف مطلق يشمل الحالتين.. خصوصاً وأن هناك تصريحاً منه ﷺ: «من آذاها بعد موتي كمن آذاها في حياتي». القمي، بيت الأحزان، ص١٧٢ نقلاً عن البحار ٤٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

فإن المنهل الذي يستقي منه الفريقان في الأصل واحد.. وكاشفاً كذلك عن عظيم منزلة الصِّديقة الكبرى عند المسلمين جميعاً، الذي يبلغ حد تكفير من يتجرأ على قدسيتها وإن كان في مقام المدح إلا أنه يورد ما يدل على القدح والعياذ بالله تعالى.

جاء في كتاب «فيض القدير»: «فاطمة ابنته(كذا) بضعة ـ بفتح أوله ـ وحكي ـ ضمه وكسره وسكون المعجمة ـ والأشهر الفتح أي جزء مني كقطعة لحم مني، فمن أغضبها بفعل ما لا يرضيها فقد أغضبني». استدل به السهيلي على أن من سبها كفر لأنه يغضبه وأنها أفضل من الشيخين.

قال ابن حجر: وفيه نظر.

قال الشريف السمهودي: ومعلوم أن أولادها بضعة منها فيكونون بواسطتها بضعة منه، ومن ثم لما رأت أم الفضل في النوم أن بضعة منه وضعت في حجرها أولها رسول الله ﷺ بأن تلد فاطمة غلاماً فيوضع في حجرها فولدت الحسن فوضع في حجرها، فكل من يشاهد الآن من ذريتها بضعة من تلك البضعة وإن تعددت الوسائط، ومن تأمل ذلك انبعث من قلبه داعي الإجلال لهم وتجنّب بغضهم، على أي حال كانوا عليه. اهـ.

قال ابن حجر: وفيه تحريم أذى من يتأذى المصطفى ﷺ بتأذيه، فكل من وقع منه في حق فاطمة شيء فتأذت به، فالنبي ﷺ يتأذى به بشهادة هذا الخبر ولا شيء أعظم من إدخال الأذى عليها من قتل ولدها، ولهذا عرف بالاستقراء معاجلة من تعاطى ذلك بالعقوبة في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد.

ثم قال في «المناقب» عن المسور بن مخرمة: فاطمة بضعة ـ بفتح الباء على المشهور ـ وفي رواية: مضغة ـ بميم مضمومة وبغين معجمة ـ ذكره ابن حجر: مني يقبضني ما يقبضها أي أكره ما تكرهه وانجمع مما تنجمع منه، ويبسطني ما يبسطها ـ أي يسرني ما يسرها ـ.

وساق الكلام إلى حيث يقول: قال السبكي «الذي نختاره وندين الله به: أن فاطمة أفضل ثم خديجة ثم عائشة ولم يخف عنا الخلاف في ذلك، ولكن إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل».. إلى هنا كلامه.

قال الشيخ شهاب الدين بن حجر: ولوضوح ما قاله السبكي تبعه عليه المحققون قال: فأفضلهن فاطمة فخديجة فعائشة.

قال في المطامح: «... وقد زل قدم البعض فقال: إن فاطمة إنما شرفت بالمهدي الذي يخرج منها.. وهذا كفر لا غبار عليه، وسمعت بعض شيوخنا يحكيه عن السهيلي عفا الله عنه وقد كفر وامتحن من أجلها، فإنما قال ذلك من قلة الدين والاجتراء على الهوى والباطل. اهـ.

وقد اجترأ عفا الله عنه على السهيلي ونسب إليه ما لم يقله فإنه لم يقل: إنها شرفت بالمهدي كما زعمه، بل قال: إن ذلك من جملة سؤددها، وشتّان ما بين التعبرين، وعبارة السهيلي في روضه عند كلامه على خبر إنها سيدة نساء أهل الجنة ما نصّه قد دخل في هذا الحديث أمها وأخواتها وقد تكلم الناس في المعنى الذي سادت به غيرها دون أخواتها وأمها لأنهن متن في حياة رسول الله ﷺ فكن في صحيفته ومات سيد العالمين في حياتها، فكان رزؤه في صحيفتها ومميزاتها. وقد روى البزار عن عائشة أنه عليه الصلاة والسلام قال لها: هي خير بناتي لأنها أصيبت بي. ومن سؤددها أيضاً: أن المهدي المبشر به في آخر الزمان من ذريتها مخصوصة بذلك كله.

هذه عبارته بحروفها وليس فيها أنها إنما شرفت بالمهدي كما عزي إليه والتعصب يصنع العجائب.

إلى أن يقول: وفي مسند أحمد وغيره أنها لما احتضرت غسلت نفسها وأوصت أن لا يكشفها أحد فدفنها علي بغسلها ذلك.. وذكر العلم العراقي أن فاطمة وأخاها إبراهيم أفضل من الخلفاء الأربعة.. وساق الكلام فذكر قوله ﷺ لعلي عليه السلام: «فاطمة أحبّ إليّ منك يا علي بن أبي طالب وأنت أعز علي منها». ثم أورد حديثاً عن أبي هريرة قال: قال علي: يا رسول الله أيما أحبُّ إليك أنا أم فاطمة؟ فذكره. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح»[1].

وأنت ترى في هذه النصوص بوضوح أن قدسية الصِّديقة الكبرى من قدسية المصطفى الحبيب ﷺ، وأن إيذاء الصِّديقة الكبرى ـ بالسب مثلاً ـ إيذاءٌ له ﷺ..

(١) فيض القدير ٤/ ٤٢١ ـ ٤٢٢، المكتبة الألفية للسنة النبوية، الإصدار الأول.

ومن آذاه فهو يستحق اللعن بنص القرآن الكريم . . قال تعالى : **﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً﴾** [الأحزاب : ٥٧] .

وبديهي أن هؤلاء العلماء الأجلّاء لا يقصدون أن الإيذاء لا يتحقق إلا بالسب، أو بالجرأة على قدسيتها عليها صلوات الرحمٰن باللفظ، فلو أن شخصاً لم يسب ولم يتجرأ باللفظ ولكنه أقدم على ما هو أشنع منهما وأشد فظاظة فإن الحكم يشمله بطريق أولى . . ولعلهم لم يكونوا يستطيعون التصريح بأكثر مما ذكروه . . أو أنهم كانوا في مقام بيان حكم «السب» أو حكم الجرأة على قدسية الصِّديقة الكبرى . . ولو كان من قبيل قول من زلت به قدمه، كما تقدم في كلام صاحب المطامح .

على أي حال فإن من الضروري جداً التنبُّه إلى أهمية الجمع بين الآية المباركة التي تقدم ذكرها **﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾** إلخ . وبين هذه الرواية «يؤذيني ما آذاها» لنستنتج منهما بكل جلاء أصلاً شديد الأهمية في معرفة قدسية الصِّديقة الكبرى . . لنحدد موقفنا من كثير من الأمور الأساسية المفصلية في مجال العقيدة والتاريخ والسياسة على أساس هذا الأصل الذي يمكن أن يصاغ بالطريقة التالية :

كل من آذى الله تعالى ورسوله ﷺ استحق اللعن من الله تعالى ووجب أن يلعنه اللاعنون وفلان سب الصِّديقة الكبرى . . أو آذاها بطريقة أخرى غير السب ـ والعياذ بالله ـ فهو ملعون ويلعنه الله تعالى ويجب أن يلعنه اللاعنون . .

وفي السياق يتضح أن اللعن مبدأ قراني . . على العكس تماماً من السائد حول استنكاره واستهجانه .

ولا غرو . . فالقرآن الكريم حافل باللعن . . لليهود . . وللذين كفروا ولغيرهم **﴿الذين يؤذون الله ورسوله . .﴾** وأشباههم إلا أن تقول إن عنوان الذين كفروا يشمل هذه المصاديق جميعاً .

وبديهي أن للعن قيوده الشديدة . . فلا يجوز لعن إلا من ثبت جواز لعنه . . بخروجه من الدين واتباع غير سبيل المؤمنين . . ولا يصح أن تخضع عملية الإخراج من الدين للأمزجة . . بل يجب أن تبقى في دائرة اختصاص المعصوم، فمن أخبر بخروجه من الدين أمكن لعنه أو وجب . . ومن انطبقت عليه المقاييس

التي حددها المعصوم فكذلك أيضاً، إلا أن تحديد انطباقها يجب أن يكون المرجع فيه هو المختص.

ولا مقياس أوضح مما يحدده المصطفى الحبيب ﷺ كما في هذه الرواية حول الصِّديقة الكبرى عليها السلام **«يؤذني ما يؤذيها»** لدى الجمع بين الرواية والآية الكريمة المتقدمة، ولذلك نجد أن العلماء وقفوا عند هذه الرواية وقفة المدرك لعظيم أبعادها، كما تجد ذلك بوضوح في جميع الشروح التي تناولت الرواية ودلالاتها بالتفصيل[1].

والسبب في هذا الموقع المميز للعن في المسار العملي أن التولي لا يتم بدون التبري.. **«فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله»** فاللعن نسفٌ لكل الجسور التي يمكن أن تمتد بين نفس اللاعن.. وبين مستحق اللعن وبَتْرٌ لكل الخطوط والخيوط.. مهما كان حجمها ضئيلاً حتى إذا كانت مما لا يرى إلا بالمجهر.. كل ذلك حرصاً على إيمان المؤمن وتحصيناً له لا من «حصان طروادة» وحسْب.. بل من كل ما يمكن أن ينقل إليه العدوى ولو كان بحجم أصغر «ميكروب» أو جرثومة..

وينبغي التنبه أخيراً إلى أن اللعن.. غير السب الذي نهينا عنه فنحن نجد في القرآن الكريم **﴿يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾** [البقرة: ١٥٩] وهو كاشف عن مشروعية عمل اللاعنين بل مطلوبيته. ونجد كذلك **﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عَدْواً بغير علم﴾** [الأنعام: ١٠٨]، وهو نهي عن السب والجمع بينها واضح لا يسمح المجال بتفصيله.. والله تعالى العالم.

الرواية الخامسة: عن الإمام الجواد عليه السلام يقول الراوي واسمه محمد: **كنت عنده فأجريت الخلاف بين الشيعة** (كانت هناك آراء بين الشيعة حول الأئمة عليهم السلام وذكر الراوي هذه الآراء بين يدي الإمام الجواد عليه السلام) فقال له الإمام: **يا محمد إن الله تبارك وتعالى لم يزل متفرداً بوحدانيته ثم خلق محمداً**

---

(١) راجع هامش ما تقدم عن القسطلاني تجد ثبتاً بقسمٍ من هذه الشروح وهي لعلماء كبار من السنّة.

وعلياً وفاطمة «سلام الله عليهم أجمعين» فمكثوا ألف دهر، ثم خلق جميع الأنبياء فأشهد رسول الله وأمير المؤمنين والزهراء خلقها (أشهدهم خلق الأنبياء) **وأجرى طاعتهم عليهم** (يعني ألزم الأنبياء بطاعة رسول الله وأمير المؤمنين والزهراء عليهم صلوات الرحمٰن إلى أن قال الإمام الجواد عليه السلام: **يا محمد هذه الديانة التي من تقدمها مرق ومن تخلف عنها مُحِق ومن لزمها لحق خذها إليك يا محمد**[1]..

والأحاديث بهذا المعنى كثيرة جداً.. وهي في الواقع تدور في فلك قوله تعالى: ﴿**ما أشهدتهم خلق السمٰوات والأرض**﴾.. وتجد بعض كبار العلماء السنّة يصرحون بهذا المعنى أو ما يلتقي معه. أكتفي هنا بالإشارة إلى ما ذكره الشيخ محيي الدين بن عربي في الفتوحات المكية[2].

الرواية السادسة: وفي المصادر التي رجعت إليها لم أجد تصريحاً بالمتحدث في هذه الرواية إلا أن فيها إشعاراً بأن المتحدث هو رسول الله صلى الله عليه وآله.. والنص هو خطاب لأمير المؤمنين عليه السلام: «**لولاك لما كان لها كفؤٌ على وجه الأرض**». وهناك بهذا المضمون أربعة أحاديث أخرى عنَ الإمام الصادق عليه السلام وهي كما يلي:

أولاً: لولا أن الله تعالى خلق أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن لفاطمة عليها السلام كفؤٌ على وجه الأرض آدمٌ فمن دونه.

ثانياً: لو لم يخلق الله علي بن أبي طالب لم يكن لفاطمة كفؤ.

---

(١) الحلي، المحتضر، ص١٦٥؛ والبحراني في حلية الأبرار ١/ ١٨، تحقيق الشيخ غلام رضا البحراني وقد أورد الحديث مسنداً ووثق رواته وهم: محمد بن يعقوب (الكليني) عن الحسين بن محمد الأشعري عن معلى بن محمد عن أبي الفضل عبد الله بن إدريس عن محمد بن سنان. والمجلسي في بحار الأنوار ١٥/ ١٩ نقلاً عن الكافي و٢٥/ ٢٤٠ و٥٤/ ١٩٦.

(٢) ابن عربي، الفتوحات المكية ١/ ١١٩؛ وخلاصة ما ذكره أن الله تعالى عندما أراد بدء الخلق «كان يعلم» أن أقرب الناس إليه محمد صلى الله عليه وآله وبعده علي بن أبي طالب عليه السلام، وأسرار النبيين، وتجد في أحاديث النور من هذه الدروس ما يؤكد حقيقة وحدة نور المعصومين الأربعة عشر «عليهم صلوات الرحمٰن».

ثالثاً: لولا أن أمير المؤمنين عليه السلام تزوجها لما كان لها كفؤٌ إلى يوم القيامة على وجه الأرض آدم فمن دونه.

رابعاً: لولا علي لم يكن لفاطمة كفؤ[1].

ويتحدث العلامة المجلسي حول الحديث الثالث فيقول: يمكن أن يستدل به على كون علي وفاطمة عليهما السلام أشرف من سائر أولي العزم سوى نبينا «صلى الله عليهم أجمعين». .

لا يقال: لا يدل على فضلهما على نوح وإبراهيم عليهما السلام لاحتمال كون عدم كونهما كفؤين لكونهما من أجدادها عليها السلام.

لأنّا نقول: ذكر آدم عليه السلام يدل على أن المراد عدم كونهم أكفاءها مع قطع النظر عن الموانع الأخر، على أنه يمكن أن يتشبّث بعدم القول بالفصل.

نعم.. يمكن أن يناقش في دلالته على فضل فاطمة عليهم بأنه يمكن أن يشترط في الكفاءة كون الزوج أفضل.. ولا يبعد ذلك من متفاهم العرف.. والله يعلم[2] ما يريده «رضوان الله تعالى عليه» هو كما يلي:

يقول: يمكننا الاستدلال بهذا الحديث على أن الزهراء عليها السلام أفضل من سائر الأنبياء أي باستثناء المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله.. ثم يجيب من يسأله: وكيف ذلك؟ فيقول: إنهم جميعاً ـ أي من عدا سيدهم ـ ليسوا أكفاءها بحسب هذا الحديث وعلي كفؤٌ لها.. فنستدل بأن علياً والزهراء عليهما السلام أفضل منهم، ثم يطرح سؤالاً حول احتمال أن تنحصر دلالة الحديث على الأفضلية في من عدا إبراهيم ونوح عليهما السلام.. لماذا؟ لأنهما من أجدادها عليها السلام ولا يمكن أن يتزوج الجد حفيدته.

ثم يحاول الإجابة على ذلك فيبيّن أن الحديث يدل على أن الزهراء عليها السلام

---

(١) تجد هذه الروايات في دلائل الإمامة للطبري، ص٧٩، ٨٩٠؛ وأمالي الشيخ الطوسي، ص٤٣؛ وكشف الغمة للإربلي ٢/ ١٠٠؛ وينابيع المودة، ص٢٤٤؛ وهامش الأنوار القدسية للأصفهاني الغروي، ص٣٦ نقلاً عن المحجة البيضاء ٤/ ٢١٠، ويأتي ذكر مصدرها في بحار الأنوار.

(٢) البحار ٤٣/ ١٠ ـ ١١.

أفضل من جميع الأنبياء باستثناء المصطفى الحبيب حتى نبي الله إبراهيم ونوح. والدليل على ذلك ذكر آدم عليه السلام فهو أبوها.. مما يدل على أن معنى الرواية هكذا: لولا علي لم يكن لها كفؤ آدم فما دونه.. إذا لم يكن هناك مانع من الزواج.. إلا أنه لا يرى هذا الجواب شافياً ولذلك يقول: «على أنه يمكن أن يتشبث بعدم القول بالفضل» وربما كان السبب في ذلك أن أجدادها عليهم السلام خارجون تخصصاً عن موضوع الحديث.

ثم يتراجع رحمه الله بعض الشيء فيقول ما حاصله: يمكن النقاش بأن هذه الرواية تدلنا على أن الزهراء عليها السلام وأمير المؤمنين «سلام الله عليه» في نفس مستوى الأنبياء الآخرين باستثناء رسول الله صلى الله عليه وآله فهما ليسا أفضل منهم إلا أنهما في نفس مستوى الأنبياء.. لماذا؟ لأن الزوج عادةً في العرف يكون أفضل من الزوجة.. فالحديث هنا يريد أن يقول لنا إنَّهم ليسوا أفضل منها يعني أنهم من مرتبتها.. بماذا يستدل على ذلك؟ يستدل عليه بالفهم العرفي الذي يشترط كون الزوج أفضل كما لم يستبعد رحمه الله وإن لم يجزم..

وأعيد ذكر عبارته في هذا الصدد: «نعم يمكن أن يناقش في دلالته على فضل فاطمة عليها السلام عليهم (على الأنبياء) بأنه يمكن أن يشترط في الكفاءة كون الزوج أفضل ولا يبعد ذلك من متفاهم العرف» يعني أن الفهم العرفي يقول لنا: أن الزوج ينبغي أن يكون أفضل.

لكن كلامه «عليه الرحمة» يمكن أن يناقش بأن محورالكفاءة في الحديث الشريف هو الإيمان واليقين وسمو مرتبة القرب من الله تعالى.. فمعنى الكفؤ في الزواج متمحض في ذلك.. لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «المؤمن كفؤ المؤمنة».

وبناءً على ذلك.. فما هو المقصود من طرح الفهم العرفي.. أو متفاهم العرف؟

إذا كان المراد أن العرف يشترط في الزوج أن يكون أفضل في الأيمان فهو ممنوع وإذا كان المراد أن العرف يشترط في الزوج أن يكون أفضل في غير الأيمان فهو أجنبي عما نحن فيه ولا علاقة له به.. ويمكن تأييد ذلك بما ذكره علم الهدى في أماليه حول قوله تعالى ﴿**والله سريع الحساب**﴾ حيث قال: وإنما جاز أن يعبر عن المجازاة أو الجزاء بالحساب لأن ما يجزى به العبد هو كفؤ لقوله وبمقداره

فهو حساب له إذا كان مماثلاً متكافئاً[١]. . فالكفؤ هو المساوي والنظير كما تصرح به كتب اللغة[٢].

وتجدر الإشارة إلى أن العلامة المجلسي رحمه الله تعالى يصرح بأفضلية جميع المعصومين الثلاثة عشر على جميع الأنبياء باستثناء رسول الله ﷺ، كما يأتي تحت عنوان «منهج البحث عن عظمتها عليها السلام» إلا أن نقاشه هنا كان في دلالة هذه الرواية على ذلك. . وإلافإن الأدلة على أفضليتها عليها صلوات الرحمان كثيرة جدا أيسرها ما تواتر لدى المسلمين جميعاً حول الصِّديقة الكبرى: «بضعة مني». قال البياضي في الصراط المستقيم «وبعض المعصوم معصوم» فالبحث عن عظمتها عليها السلام يجب أن يكون في قلب البحث عن عظمته ﷺ. ويأتي مزيد إيضاح إن شاء الله تعالى.

الرواية السابعة: وهي حول مصحف فاطمة عليها السلام ومعها نجد أننا أمام رواية شاملة في هذا المجال قلما يتم تداولها على شديد أهميتها مصدراً ودلالة. . حيث أنها تسلط الضوء على بعض مكامن العظمة في شخصية مولاتنا عليها صلوات الرحمٰن وقد وردت الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام أوردها المؤرخ والعالم الثبت ابن جرير الطبري صاحب كتاب «دلائل الإمامة» وهو من علمائنا المتقدمين وليس هو الطبري المؤرخ المعروف وقد أورد الرواية بسنده إلى أبي بصير الذي يقول: **سألت أبا جعفر محمد بن علي عن مصحف فاطمة فقال: انزل عليها بعد موت أبيها قلت: ففيه شيء من القرآن، فقال: كلا** (لا يوجد فيه شيء من القرآن) **فقلت: صفه لي،** يصفه الإمام الباقر عليه السلام وصفين: أولاً: من حيث الشكل ثم من حيث المضمون وكلا الوصفين مهمان. .

الوصف الأول للشكل: قلت: فصفه لي. **قال: دفتان من زبرجدتين**[٣] (الدفتان غلاف الكتاب من الجهتين) **وعلى طول الورق وعرضه حمراوين** (الزبرجد

---

(١) السيد المرتضى علم الهدى، الأمالي ٢/ ٥٤.

(٢) صحاح الجوهري «كفؤ» وفيه: والكفء: النظير وكذلك الكفووالكفؤ. . (. . .) والتكافؤ: الاستواء يقال: المسلمون تتكافأ دماؤهم.

(٣) في بعض نسخ الدلائل «من زبرجد» وما أثبته هنا موافق لنسخة المعجم الفقهي، الإصدار الثالث وهي ط. مؤسسة البعثة، الأولى، ص١٠٥.

في دفتي الكتاب أحمر، فلون الدفتين أحمر) **قلت: جعلت فداك فصف لي ورقه! قال: ورقه من دُرٍ أبيض قيل له: كن فكان.**

الوصف الثاني للمضمون: يقول أبو بصير: **قلت: جعلت فداك.. فما فيه؟** (وأبو بصير موضع) أسرار أهل البيت عليهم السلام فمن الطبيعي أن يتميز مضمون رواياته عن غيره.. خاصة في شؤون الولاية.

قال عليه السلام: **فيه خبر ما كان وخبر ما يكون إلى يوم القيامة وفيه خبر سماء سماء كل سماء بما فيها، وعدد ما في السمٰوت من الملائكة وغير ذلك، وعدد كل من خلق الله مرسلاً وغير مرسل وأسماؤهم** (أي الأنبياء المرسلين وغيرهم بأسمائهم) **وأسماء من أرسل إليهم، وأسماء من كَذَّب ومن أجاب، وأسماء جميع من خلق الله من المؤمنين والكافرين، من الأولين والآخرين، وأسماء البلدان وصفة كل بلدٍ في شرق الأرض وغربها، وعدد ما فيها من المؤمنين، وعدد ما فيها من الكافرين، وصفة كل من كذب، وصفة القرون الأولى، ومن وليَ من الطواغيت، ومدّةُ ملكهم وعددهم، وأسماء الأئمة وصفتهم، وما يملك كل واحدٍ واحد.** . إلى أن يقول الإمام الباقر عليه السلام **وصفة أهل الجنة، وعدد من يدخلها، وعدد من يدخل النار، وأسماء هؤلاء الذين يدخلون الجنة، وهؤلاء الذين يدخلون النار، وفيه علم القرآن كما أنزل وعلم التوراة كما أنزلت، وعلم الإنجيل كما أنزل، وعلم الزبور** إلى أن يصل الحديث إلى كيفية نزول هذا المصحف، الذي ليس قرآناً ولا تشريعاً.

وقبل ذكر هذا المقطع أشير إلى أن ما تسمعه لا ينافي الرواية المعتبرة التي وردت في الكافي الشريف على حد تعبير الإمام الخميني «رضوان الله عليه» والمتضمنة أن جبرائيل عليه السلام كان ينزل ويحدثها وكان أمير المؤمنين عليه السلام يكتب ذلك.. فهذا مصحف فاطمة.. وعدم المنافاة ترتفع بمجرد التنبه إلى احتمال أن الإمام الباقر يحدثنا هنا عن نزول دفعي، دفعة واحدة لمصحف فاطمة عليها السلام وأن تلك الرواية في الكافي تتحدث عن نزولٍ تدريجي.. أو ما شابه من وجوه الجمع الذي هو «أولى من الطرح» كما هو معروف.

يقول الإمام عليه السلام: **لما أراد الله تعالى أن ينزله عليها أمر جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أن يحملوه فنزلوا به عليها وذلك في ليلة الجمعة من (كذا)**

الثلث الثاني من الليل فهبطوا به وهي قائمةٌ تصلي فما زالوا (جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ينتظرون أن تفرع المولاة من صلاتها وقفوا تأدباً مع الزهراء عليها السلام) **حتى قعدت فلما فرغت من صلاتها سلموا عليها وقالوا: السلام يقرئك السلام ودفعوا المصحف إليها فقالت: لله السلام ومنه السلام وإليه السلام وعليكم يا رسل الله السلام، ثم عرجوا إلى السماء فما زالت من بعد صلاة الفجر إلى زوال الشمس تقرأه حتى أتت على آخره..**

وتسأل: مصحف لا بد وأن حجمهُ كبير جداً لأنَّ فيه هذه العلوم الكثيرة، تقرأه الزهراء عليها السلام في هذا الوقت القصير كيف ذلك.

أيها الحبيب.. ما دمنا نعتقد أن الله عزَّ وجل على كل شيء قدير فنحن هنا لا نتكلم عن قارئة عادية وعن كتاب عادي.. لنتذكر بعض الكرامات التي حصلت منها كرامة الكربلائي محمد كاظم ساروقي وهو مدفون في قم هذا الرجل كان لا يمكنه أن يحفظ شيئاً.. أحد الأشخاص الذين عرفوه وعايشوه.. وأنا أعرفه شخصياً وقد بقي معه سبعة عشر يوماً يقول: طيلة سبعة عشر يوماً أردته أن يحفظ اسمي المكون من كلمتين فلم يستطع إلا أنه بكرامةٍ حفظ القرآن الكريم كله في لحظة وقد عرض هو شخصياً تفاصيل حفظه للقرآن الكريم لدى زيارته.. مراجع عصره أي المراجع المقدسين السيد الميلاني والسيد البروجوردي والسيد الحكيم وشهدوا بأنَّ حفظه للقرآن الكريم كرامة وكان من عجائب حفظه أنه يقرأ كل سورة تطلب منه قراءتها من آخرها إلى أولها آية آية ـ أي بالمقلوب ـ كما يقرأها من أولها إلى آخرها أو تسأله عن كلمة مثلاً: أريد الكلمة التي رقمها (٢٠٠) في سورة البقرة ما هي فيجيبك مباشرة إلى غير ذلك من الخصوصيات الغريبة.. ولِمَ العجب.. فنحن الآن في عصر التقدم الهائل في مجال الحاسوب «الكومبيوتر» إذا أردنا أن ننقل موسوعة البحار التي هي(١١٠ أجزاء) إلى مكان ما في الصين مثلاً.. أمكننا ذلك بكبسة زر.. وبلحظة من خلال اتصال جهازي حاسوب في المكانين بواسط التلفون.. ويمكنك أنت أن تفعل ذلك.. فيحفظ الجهاز الآخر مائة مجلد أو آلاف المجلدات في لحظة ومع ذلك تستغرب أن تنتقل المعلومات بقدرة الله تعالى إلى الصِّديقة الكبرى ما بين صلاة الفجر وزوال الشمس..!!

ينبغي أن لا نفسح مجالاً للشيطان لكي يتلاعب بعقولنا..

أرجع إلى نص الرواية:

فما زالت من بعد صلاة الفجر إلى زوال الشمس تقرأه حتى أتت على آخره.. يقول أبو بصير: **قلت: جعلت فداك فلمن صار مصحف فاطمة؟**

قال: دفعته[1] إلى أمير المؤمنين فلما مضى صار إلى الحسن ثم إلى الحسين ثم عند أهله حتى يدفعوه إلى صاحب هذا الأمر.

أيها الحبيب.. في أجواء ذكرى مولاتنا عليها صلوات الرحمٰن أختم بنصين قصيرين من أجواء شهادتها عليها السلام.

وبين يدي النص الأول:

لنتصور حال أمير المؤمنين على أبواب شهادة الزهراء عليها السلام وهو القائل بعد شهادتها: أما ليلي فمسهد.. وأما حزني فسرمد..

كيف كان حاله عليه السلام قبيل الشهادة... وهو الذي ينسب إليه قوله:

وإنَّ افتقادي فاطماً بعد أحمدٍ دليلٌ على أن لا يدوم خليل

وقوله:

نفسي على زفراتها محبوسةٌ يا ليتها خرجت مع الزفرات

فكيف إذا أضفنا إلى ما يدل عليه ما تقدم.. وما يمكنك أن تستنتجه من موقع الصِّديقة الكبرى في منظومة المعصومين وأن فقدها يجدد المصاب بفقد المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله وفي أية أجواء.. في أجواء غربة المرتضى وتنكب الأمة عنه وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم..

كيف إذا أضفنا إلى كل ذلك أن الصِّديقة الكبرى عليها صلوات الرحمٰن كانت في تلك الفترة على أبواب شهادتها.. تحمل في قلبها الإلهي المحمدي غصة الرسالة المضيَّعة من خلال غربة أبي الحسن عليه السلام..

وإليك النص الأول.. يحدثنا **الإمام الصادق** عليه السلام.

لما حضرت فاطمة الوفاة بكت..

فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام **يا سيدتي ما يبكيك؟**..

قالت: أبكي لما تلقى من بعدي. . .

فقال لها: لا تبكي فوالله إن ذلك لصغيرٌ عندي في ذات الله[1].

لقد تجرع أبو الحسن الغصص وتحمل المصائب التي تنهد لأيسرها الجبال قربةً إلى الله تعالى. . فداك نفوس المؤمنين. . يا أميرهم. . رضاك سيدي. . ورضا مولاتنا فهو رضا المصطفى ورضا الله تعالى. . لنكون من المؤمنين.

لا يمكن للموالي عندما يتذكر هذه الخصوصيات إلاَّ أن يكون قلبه مظهر الحزن والفجيعة. . «ولمثلهم فليبك الباكون» لا على حطام الدنيا الزائلة. . وجاهها الهباء. . وسرورها الذي يكمن النكد في خاصرته. .

النص الآخر على أبواب شهادتها عليها صلوات الرحمٰن:

تحدثنا أسماء تقول: **رأيتها رافعة يديها إلى السماء وهي تقول. . .**

«اللهمَّ إني أسألك بمحمدٍ المصطفى وشوقه إليَّ وبعلي المرتضى وحزنه عليَّ وبالحسن المجتبى وبكائه علي. . وبالحسين الشهيد وكآبته عليَّ. . ثم يأتي دور مولاتنا زينب عليها السلام !! (آه. . الشام. . الشام. . الشام. .).

وببناتي الفاطميات وتحسرهن علي. . (أن) **ترحم وتغفر للعصاة من أمة محمد وتدخلهم الجنة إنك أكرم المسؤولين وأرحم الراحمين»**[2].

إلٓهي. . إلٓهي. . أنا عبدك العاصي. . مملوكك الآبق. . إلٓهنا. . وسيدنا ومولانا اغفر لنا وارحمنا مُنَّ علينا بما أنت أهله. . بالزهراء وأبيها وبعلها وبنيها والسِّر المستودع فيها أصلح قلوبنا، مُنَّ علينا بمكارم الأخلاق المحمدية، انصرنا على الشيطان الرجيم والأنفس الأمّارة بالسوء.

والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٤٣/٢١٨، ٧٨/٣٩١؛ واللمعة البيضاء للتبريزي، ص٨٩٠ نقلاً عن مصباح الأنوار، ص٢٦٢.

(٢) الرحماني، فاطمة بهجة قلب المصطفى، ص٣٠١ نقلاً عن وفاة فاطمة الزهراء للبلادي البحراني، ص٧٨.

(٥)

الخطبة الفاطمية

الوثيقة الكبرى المضيّعة[١]

* تمهيد.
* أهمية الخطبة.
* لا تنافي بين الوحدة الإسلامية والبحث العلمي.
* علي عليه السلام يتحدث عن الانقلاب على الأعقاب.
* وجهان لحقيقة واحدة: سكوت علي وموقف فاطمة عليها السلام.
* على عتبة الموقف الفاطمي.
* ليس الخلاف «عقارياً»!!
* الخطبة.. فقرات.. ودلالات..
* وختامها.. إعلان الحرب على الانقلابيين.

(١) لم يتسع الوقت حينها لاستعراض جميع فقرات الخطبة.. وقد تمّ هنا استعراضها جميعاً، مع إعادة كتابة الموضوع.

(٥)

الجمعة ٨ ج٢ ١٤١٨هـ

ما زلنا في الأيام الشديدة الاختصاص بمولاتنا الصِّديقة الكبرى عليها صلوات الرحمٰن.

من هنا سيكون حديث هذه الليلة إذا قدَّر الله تعالى حول خطبتها عليها السلام، في المسجد النبوي المبارك..

هذه الخطبة الوثيقة.. بل الوثيقة الكبرى.. المضيَّعة بيننا.. رغم أن أهل البيت عليهم السلام يأمرون بحفظها.. وفي ما نقل عن المولى صاحب العصر والزمان كفاية.. حيث أمر بحفظ الخطبة الشقشقية.. وخطبة مولاتنا الصديقة الكبرى، وخطبة مولاتنا زينب عليها السلام هنا في الشام في مجلس يزيد لعنه الله تعالى.

سيتضح من خلال العرض إن شاء الله تعالى أن الخطبة الفاطمية.. ينبغي الوقوف عندها طويلاً للمؤرخ الذي يريد أن يدوّن بصدق الوقائع التي جرت بعد المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم.

وينبغي الوقوف عندها طويلاً للباحث في المجال العقائدي.. الذي يريد أن يهتدي إلى الإسلام المحمدي الأصيل.

وينبغي كذلك الوقوف عندها طويلاً لمن اختار طريقه.. الموالي.. الذي يريد أن يرفد مخزونه الشعوري والوجداني بالدقائق الولائية التي تزخر بها هذه الخطبة المباركة..

أما الزمان الذي أوردت فيه هذه الخطبة فهو بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعشرة أيام[1]..

وأما المكان.. فهو كما تعرف.. مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. المركز الوحيد

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح النهج ١٦/٢٦٣.

لإدارة الدولة الإسلامية آنذاك. والحضور.. جمع حاشد من المهاجرين والأنصار.. بينهم أركان الانقلاب على الأعقاب الذي حذر منه الله تعالى... وأمر المصطفى الحبيب.. أن يأمر علياً بالصبر.. وفاطمة الزهراء بالتصدي.. وأما الجو السياسي العام في المدينة المنورة آنذاك.. فهو جو الانقلاب على الأعقاب.. وهل تجد تعبيراً أدق في وصف الردة المتربصة.. التي رأت الفرصة سانحة.. والظروف مواتية.. فاستبدل القوادم بالذنابى.. والآخرة بالدنيا.. والإسلام بالجاهلية والقرآن بالهوى...

قال تعالى: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين**﴾.

في جو الانقلاب على الأعقاب هذا.. انشغل أكثر المسلمين عن تجهيز رسول الله ﷺ، والصلاة عليه، ودفنه وهو أعظم خلق الله تعالى على الإطلاق.. ولا يوازي فقده والفجيعة به.. فقد ولا فجيعة..

وبماذا انشغلوا؟ اشرأبت الأعناق للزعامة.. والرئاسة.. انشغلوا بالدنيا التي طالما حذرهم منها المصطفى الحبيب ﷺ.

ولم يبق في الصراط المستقيم إلا ثلة وقفت مع علي عليه السلام..

وأقف هنا لتوكيد أن الحديث عن هذه الخصوصيات لا يصدر من منطلق إثارة الفتنة بين المسلمين والعياذ بالله تعالى.. كما أنه لا يقدح على الإطلاق بمفهوم الوحدة الإسلامية.. هذا المفهوم المقدس الذي يجب أن نصر عليه لأننا جميعاً كأمة إسلامية محمدية واحدة نواجه هذه الغارة الصليبية الجديدة علينا المتمثلة بمحاولة الشيطان الأكبر أمريكا ومن يدور في فلكها إحكام قبضتهم على العالم.. وخصوصاً العالم الإسلامي..

إلا أن هذا لا يمنع من البحث العلمي وذكر الحقائق في أطرنا الخاصة.. لتحديد خصائص المعتقد.. إن إخواننا المسلمين السنّة أحرار في مجالسهم وأطرهم بطرح ما يريدون.. وهم يفعلون.. فحرية التعبير عن الرأي حق محفوظ مصان.. وفي المقابل.. لنا في مجالسنا وأطرنا الحق بطرح ما نعتقد.

كل ما في الأمر أن يبقى البحث ويفهم في نطاقه العلمي.. بحثاً عن الحقيقة.. دون تحميل أخطاء الماضين لغيرهم..

إن العلاقة برسول الله ﷺ هي الهدف.. باعتباره الطريق الوحيد إلى طاعة الله تعالى.. وطبيعي أن البحث عن الطريق الموصل إلى رسول الله ﷺ ومنه.. بل وبه إلى الله تعالى أمر لا مجال للمداهنة فيه ولا للمساومة لدى أي مسلم..

وبناءً عليه فإن فهم الوحدة الإسلامية بما يتناقض مع اعتقاد المسلم بضرورة البحث عما يبرئ ذمته أمام الله تعالى يكشف أن هذا الفهم يعاني من ضبابية قد تشتد وتقوى فتهدد سلامة رؤيته..

الوحدة الإسلامية من صميم الدين.. والبحث عن الحقيقة كذلك.. وعلينا أن نوفق بينهما.

وقد نخطئ في التطبيق.. إلا أن الأصلين يجب أن لا يمسا بسوء.. فضلاً عن رفع اليد عن أحدهما.. وأعود إلى أصل الموضوع.. وسياق الكلام..

في جو الانقلاب على الأعقاب هذا.. كانت الوثيقة الكبرى.. الخطبة الفاطمية..

ولكي ندخل إلى بعض تفاصيل هذا الجو.. وترتسم أمامنا بعض ملامحه.. أنقل نصاً عن أمير المؤمنين علي عليه السلام.. يحدثنا عن أسباب الانقلاب على الأعقاب.. وبعض أخطر نتائجه.. ـ تقدم ذكره مختصراً ـ وعندما يكون المتحدث علي بن أبي طالب عليه السلام.. فعلى الخبير سقطت.. وعند جهينة الخبر اليقين.. ينقل ابن أبي الحديد في «شرح النهج» ما يلي:

قال له (لعلي) قائل: يا أمير المؤمنين أرأيت لو كان رسول الله ﷺ ترك ولداً ذكراً قد بلغ الحلم وآنس القوم منه الرشد، أكانت العرب تسلم إليه أمرها؟ قال: لا، بل كانت تقتله إن لم يفعل ما فعلت. إن العرب كرهت أمر محمد ﷺ وحسدته على ما آتاه الله من فضله واستطالت أيامه حتى قَذَفَتْ زوجتَه ونفَّرت به ناقته مع عظيم إحسانه إليها (العرب) وجسيم مننه عندها وأجمعت مذ كان حياً

على صرف الأمر عن أهل بيته بعد موته، ولولا أن قريشاً جعلت اسمه ذريعة إلى الرئاسة وسلما إلى العز والإمرة لما عبدت الله بعد موته يوماً واحداً ولارتدت في حافرتها[1]، وعاد قارحها[2] جذعاً[3] وبازلها[4] بكراً[5]، ثم فتح الله عليها الفتوح فأثرت بعد الفاقة وتمولت بعد الجهد والمخمصة، فحسن في عيونها من الإسلام ما كان سمجاً وثبت في قلوب كثير منها من الدين ما كان مضطرباً وقالت: لولا أنه حق لما كان كذا. ثم نسبت تلك الفتوح إلى آراء ولاتها وحسن تدبير الأمراء القائمين بها، فتأكد عند الناس نباهة قوم وخمول آخرين، فكنا نحن ممن خمل ذكره وخبت ناره وانقطع صوته وصيته حتى أكل الدهر علينا وشرب، ومضت السنون والأحقاب بما فيها ومات كثير ممن يعرف ونشأ كثير ممن لا يعرف، وما عسى أن يكون الولد لو كان إنَّ رسول الله ﷺ لم يُقرِّبني بما تعلمونه من القُرب للنسب واللُّحمة بل للجهاد والنصيحة. أفتراه لو كان له ولد هل كان يفعل ما فعلت؟ وكذاك لم يكن يُقَرَّب ما قُرِّبت ثم لم يكن (أي القرب للولد أو قربي) عند قريش والعرب سبباً للحظوة والمنزلة، بل للحرمان والجفوة. اللهم إنك تعلم أني لم أرد الإمرة ولا علو الملك والرئاسة، وإنما أردت القيام بحدودك والأداء لشرعك ووضع الأمور في مواضعها وتوفير الحقوق على أهلها والمضي على منهاج نبيّك وإرشاد الضال إلى أنوار هدايتك[6]

---

(١) الحافرة: قال تعالى: ﴿إنا لمردودون في الحافرة﴾ أي في أول أمرنا... ويقال: رجع على حافرته أي في الطريق الذي جاء منه.

(٢) القارح: من الخيل ما بلغ السنة الخامسة.

(٣) الجذع: من الضأن ما بلغ الستة أشهر إلى سنة. وفي صحاح الجوهري: ما بلغ السنة الثانية.

(٤) البازل: من الضأن ما بلغ التاسعة، وفطر نابه، ومن الإبل ما نبت نابه، والرجل كامل التجربة.

(٥) البكر: البكر من الإبل بمنزلة الفتى من الناس. انظر: صحاح الجوهري.
والمعنى أن العرب لولا أنها جعلت اسم رسول الله سلماً للرئاسة لارتدت في الحافرة ورجعت إلى جاهليتها ولانقلبت الموازين (أكثر مما انقلبت) ولما ظل للسابقة في الجهاد.. وتقوى الله تعالى وقدم الصحبة عين ولا أثر، وإنما بقي ما بقي من القيم مع الإصرار على تطبيقه بشكل مغلوط لأنهم رأوا في الإسلام طعمة وباباً للدنيا.. ثم جاءتهم الفتوح إلخ..

(٦) ابن أبي الحديد، شرح النهج ٢٠/٢٩٨ ـ ٢٩٩.

ويدلنا هذا النص بوضوح على بعيد غور الانقلاب على الأعقاب.. فهو من جهة قد عبر عن نفسه في زمن رسول الله ﷺ من خلال حديث الإفك بل تعدى الأمر كل مظاهر الحسد للمصطفى الحبيب ووصل إلى التآمر لقتله ﷺ **«ونفرت به ناقته»** وهذا يعني أن الانقلاب على الأعقاب قد استبطأ كثيراً موت رسول الله! الأمر الذي يفسر بوضوح هذه اللهفة على الرئاسة التي جعلت أكثر المسلمين لا يشاركون في دفن رسول الله ﷺ[1].

وهو ما يكشف أن جميع التناقضات القبلية والعشائرية في بيئة ممعنة في الروح القبلية.. قد تفجر خزينها فجأة.. فالتهمت نيرانها الإيمان المدعى ولم يسلم من ذلك غير «الشاكرين» الذين وعد الله تعالى في آية الانقلاب على الأعقاب بجزائهم ما يستحقون.. لشكرهم نعمة الإسلام والإيمان والثبات في خط القرآن الكريم..

منطق السقيفة منطق قبلي.. وأجواؤها قبل وبعد.. أجواء قبلية.. وأبو سفيان يحاول النفخ في نار العصبية القبلية.. وعلي عليه السلام ينحدر عنه السيل.. ولا يرقى إليه الطير.. منصرف إلى الفجيعة بالمصطفى الحبيب ﷺ ومقتضياتها.. وهو في انصرافه هذا في قلب الحدث.. وصميم المستجدات.. فلقد بدأت مرحلة «فالصبر الصبر» إنها الفتنة الفتنة.. والإسلام على مفترق طريقين: الزوال.. أو هذا البقاء.. ولا خيار لعلي عليه السلام إلا أن يكون صبره جسر الإسلام للعبور من بحر هذه الفتنة المصطلمة إلى هذا البقاء لتبدأ بعد ذلك رحلة الأمة مع الأئمة.. رحلة نقب الباطل ليستخرج الحق من خاصرته.. والدنيا دار بلاء واختبار **﴿ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾**.

أمر واحد كان بالإمكان اعتماده.. والقيام به.. لمحاصرة هذه النار المضطرمة فلا يكون بوسعها التهام إلا من يصر على إلقاء نفسه في أتونها..

---

(١) نص على ذلك المؤرخون.. وتبنّاه بقوة الشيخ المفيد، الإرشاد ١/ ١٨٩؛ والبحار ٢٢/ ٥١٩؛ والأنوار البهية، للقمي، ص٥٠؛ ومواقف الشيعة، للأحمدي ٢/ ٢٥٠؛ وبيت الأحزان، للقمي، ص٦١، نقلاً عن الإرشاد.

هذا الأمر هو أن تتصدى شخصية مميزة. . تحظى باحترام الجميع. . ليست طرفاً متهماً. . أو يسهل توجيه التهمة إليه ـ ولو دون مبرر ـ في مجال الطمع بالرئاسة. . فتفصح عن مكنون سريرة من لا ينطق عن الهوى. . وتسجل رأيه الصريح الواضح. . وتطلق صرختها المدوية الهادرة في وجه الانقلاب على الأعقاب. . .

وهكذا ندرك أنه لو لم تكن فاطمة عليها السلام موجودة. . لاقتضى الأمر أن توجد. . وبنفس الخصائص. . وندرك أيضاً. . مدى أهمية كل كلمة قالها المصطفى الحبيب ـ وكلامه وحي ـ عن فاطمة عليها السلام.

وليتنا ندرك. . أن رسول الله صلى الله عليه وآله. . كان يرى بنور الله تعالى. . تفاصيل ما سيجري من بعده. . يكشف هذه الحقيقة بوضوح ما روي عنه حول الأحداث التي وقعت من بعده ويكفي أن نتذكر الحديث عن تسلط بني أمية والحديث عن كلاب الحوأب.

كان صلى الله عليه وآله يرى موقع كل كلمة يقولها عن الصديقة الكبرى في منظومة استمرار الإسلام. . وحفظ الذكر بأمر الله تعالى. وليتنا ندرك أن معنى «**ولولا فاطمة ما خلقتكما**» لا تعني تفضيلاً. . وإنما تعني فرادة «دور». . وعليه فإن هذه العبارة في الحديث القدسي وقوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**﴾ بمعنى واحد. . بلحاظ فرادة الدور. . وحفظ الذكر وبقاء الإسلام. . ولكل منهما خصوصياته. . وللتفصيل مجال آخر. .

لم يكن لهذا الموقف الإلٓهي إلا فاطمة عليها صلوات الرحمٰن. .

إنها بالإضافة إلى كل مقومات عظمتها. . ومكانتها لدى الأمة رغم هذا الانقلاب على الأعقاب. . ابنة المصطفى الحبيب الوحيدة. .

«**فإن تعزوه ـ تنسبوه ـ تجدوه أبي دون نسائكم**».

هي المعزّاة به. . وهي الذكرى. . والأمانة، والوديعة. .

وما دام الأمر كذلك فإن باستطاعتها تسجيل الموقف الإلٓهي. . التاريخي. . حيث ترى ذلك مناسباً.

وعلى الآخرين أن يحذروا. . ويتخذوا ما بوسعهم من احتياطات. . خاصة وأن الوضع لم يكن قد استقر بعد. .

فعشرة أيام لا تكفي لإخراج الانقلابيين من ذعرهم. . مهما بدت عناصر السيطرة على الوضع متوفرة. . ومهما كان ميزان القوى لصالحهم. .

ولا يجود التاريخ علينا. . كعادته في كثير من المفاصل الحرجة. . بتفاصيل عن فكرة توجه روح المصطفى الحبيب إلى المسجد. . وإن كنا نستطيع أن نقرأ في النص وبين كلماته أن الحشد في ذلك المجلس كان قد أحيط علماً بذلك. أما كيف تم اطلاع القوم. . وماذا سبق ذلك من مداولة. . أو مداولات. . فلم أعثر حتى الآن على ما يسلط الضوء عليه. .

ومن الجدير بالذكر هنا أن لا نسمح للنصوص التي روجتها الأنظمة المتعاقبة حول هذا الموقف الإلَهي الفاطمي الخالد. . أن ترسم لنا الصورة التي تتكون ملامحها في عقولنا والقلوب. . ونحن نتابع الموقف الفاطمي بدءاً من فكرة التوجه إلى المسجد النبوي. . مروراً بتنفيذها. . وصولاً إلى المواقف المتعددة التي تلت ذلك. .

إن اعتماد هذه النصوص يعني محاولة فهم حقيقة موقف المعارضة وخططها من خلال وسائل إعلام الانقلابيين أو النظام!.

وطبيعي أن يضعنا التنبه لهذه الحقيقة أمام مهمة البحث الجاد والاستقصاء الدقيق المكثف. . للوصول إلى النصوص التي ينبغي اعتمادها. . خصوصاً وأن خط الممانعة والاعتراض الذي أرست قواعده روح المصطفى الحبيب في المسجد النبوي كان هاجس الأنظمة الجائرة التي أصبحت ملكاً عضوضاً. . يقوم على مصادرة كرامة الإنسان التي هي روح الإسلام. . وبهذا تماهت تلك الأنظمة (الإسلامية) مع الكسروية والقيصرية. . وحرمت البشرية من عميم فوائد التجربة النبوية الفريدة في نظام الحكم والإدارة، التي ما تزال «أرقى» التجارب رغم القرون تقصر عن محاكاة سفحها. . ولقد كان في صميم هدف الموقف الفاطمي، تسليط الضوء على هذا الاستبدال الجذري. . والتحول الخطير الذي يحاوله المتسللون تحت جنح ظلام الانقلاب على الأعقاب. . وبالتالي نزع الشرعية، ورفع غطاء التستر بالإسلام عنهم. . .

وقد تحقق ذلك بأجلى صوره.. فلا يُقاس الربح والخسارة في مجال الحقيقة إلا ببقائها في مرمى البصيرة.. تعجز ظلمات الباطل عن حجبها.. ليستولي الشيطان على أوليائه.. وما عدا ذلك من المقاييس الآنية زائف.. لا يفقه طبيعة النفس التي يحملها من هو قبضة من تراب، وروح من أمر الله تعالى، ولا يفقه طبيعة الرسالة الإلّهية التي تبحث عن القلب الذي يبحث عنها.. ولا تقيم وزناً للسلطة الظاهرية المتنكّبة صراط القلب.. وهذا ما يجب أن نفهمه بوضوح منطلقاً للموقف الفاطمي.. وقد عبرت عنه صلوات الله عليها باستشهادها بهذه الفقرة القرآنية: **﴿أفنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾؟!!**

لم يكن الهدف على الإطلاق تسجيل نصر سلطوي على حساب الرسالة.. ولم يكن بالإمكان تسجيل نصر رسالي دنيوي.. أو فقل إن شئت: سلطوي لحساب الرسالة.. فالطلقاء وأبناؤهم مع أزلامهم وأنصابهم في عالم آخر.. والأنصار منقسمون، كل هم الخزرج أن لا يسود الأوس.. وكل هم الأوس أن لا يتقدمهم الخزرج.. وكلاهما طامح إلى الرئاسة يحاول اغتنام الفرصة لمعرفته بطبيعة الخارطة السياسية بين المهاجرين، ومثل هذا الجو لا يشكل مناخاً يمكن استثماره لصالح الرسالة[١]..

أما لماذا استقر الأمر على هذا الحال فهو بحث آخر، يخرجنا تناوله مما نحن بصدده..

---

(١) وفي مجال الحديث عن النصوص التي ينبغي اعتمادها في دراسة هذه الفترة، ينبغي التنبُّه ـ بالإضافة إلى المصادر المعروفة ـ إلى الروايات المعتبرة عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.. كما ينبغي الاهتمام الجاد بكتاب سليم بن قيس المشهور، وقد توسع في البحث حوله الإمام الخوئي في معجم رجاله ويظهر منه الميل الشديد إلى اعتباره.. حيث فنَّد كل التهم الملصقة بهذا الكتاب دون مبرر.. إلا أنه إلى جانب ميله العلمي الشديد هذا يرى أنه لا طريق لنا إلى الكتاب بسندي الشيخ.. للقدح ببعض رجاله، ولا تنحصر الطرق إليه بطريقي الشيخ كما يأتي، وهذا يعني بلغة منهجية عدم استبعاد نصوص سُليم من دائرة البحث والمقارنة حتى عند من لا يجدون إليه طريقاً.. علماً بأن فريقاً من كبار العلماء يؤكدون وثاقة الكتاب وكونه النص الأكمل الذي وصلنا من قلب دائرة المعارضة. قال المحدث النوري: «..من الأصول المعروفة.. وللأصحاب إليه طرق كثيرة، ونقل عن النعماني في الغيبة: نفي الخلاف في أن كتاب سليم أصل من الأصول التي رواها أهل العلم..». المحدث النوري، خاتمة المستدرك ١٥٨/٦.

ولو أن علياً عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جرد سيفه ذا الفقار في مثل هذا الجو لأمكنه بكل تأكيد أن يحرز نصراً دنيوياً أيسره تسجيل موقف معارض بلون الدم.. إلا أنه خارج سياق كل مواقفه الجهادية الحمراء.. التي كانت لصالح الرسالة.. أما هذا فعلى حسابها لأن الردة المستبطنة ستحرج فتخرج.. والقوى العظمى آنذاك تتلهف لمثل هذه الفرصة.. كان على ذي الفقار أن يبقى في الغمد.. وعلى صاحبه أن يصبر على الاستضعاف ليبقى نور الرسالة في مرمى البصيرة.. وماذا غير هذا يمكنك استنتاجه من النص التالي:

قال الشيخ المفيد: وقد جاءت الرواية أنه لما تم لأبي بكر ما تم وبايعه من بايع جاء رجل إلى أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو يسوي قبر رسول الله ﷺ بمسحاة في يده فقال له: إن القوم قد بايعوا أبا بكر، ووقعت الخذلة في الأنصار لاختلافهم، وبدر الطلقاء بالعقد للرجل خوفاً من إدراككم الأمر..

فوضع طرف المسحاة في الأرض ويده عليها ثم قال:

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿**أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين. أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون**﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٤].

ثم ذكر مجيء أبي سفيان محرضاً بني هاشم بشعره ونثره.. وقول أمير المؤمنين في جوابه:

«**يا أبا سفيان.. والله ما تريد الله بما تقول.. وما زلت تكيد الإسلام وأهله، ونحن مشاغيل برسول الله ﷺ، وعلى كل امرئ ما اكتسب وهو ولي ما احتقب..**»[١].

إذا كانت السياسة فن المكمن.. فالسياسة الحكيمة فن المكمن في خط الحكمة وخط الثوابت والأصول لا على حسابها.. وقد يكون الممكن في سياسة الحمأ المسنون.. محالاً في سياسة أولياء الله تعالى.. فقد «**يرى الحُوّل القُلّبُ وجه الحيلة ودونها حاجز من أمر الله ونهيه..**».

---

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد ١/ ١٩٠.

وحيث أن بقاء الإسلام.. وحفظ الذكر بأمر الله تعالى هو الهدف.. فلم يكن ثمة من مناص إلا الصبر على هذه «الطخية العمياء» ولا يعني هذا الصبر اعتزالاً.. بل هو الصبر المرابط الذي يرصد بكامل الجهوزية للتدخل حيث ينبغي..

وما استدعى صبر علي.. استدعى تصدي الزهراء عليها السلام.. فالقاسم المشترك بقاء نور الإسلام بحيث يمكن الاهتداء به إليه.. فالموقفان وجهان لحقيقة إلٓهية محمدية واحدة.. بل هما موقف واحد كما لا يخفى..

في ضوء ما تقدم أصبح باستطاعتنا استنتاج بعض دلالات توجه الصِّديقة الكبرى إلى المسجد النبوي.. لنراها بكل وضوح كما يلي:

١ ـ أركان الانقلاب على الأعقاب محرجون.. فلا هم يستطيعون منع ذلك.. ولا هم مطمئنون إلى الإمساك بالوضع وبالتالي إلى ما تؤول إليه الأمور.

٢ ـ الناس عموماً مشدودون إلى هذا التطور النوعي.. الذي خمدت له الأنفاس.. وسكنت الأجراس يتابعونه بمنتهى الاهتمام واللهفة...

٣ ـ أعلن الانقلابيون حالة التأهب القصوى.. واتخذوا كل الإجراءات الممكنة.. وجميع الاحتياطات المتصورة تحسباً لكل طارئ.. ولم يغب عن البال للحظة أن هذا الموقف قد يكون جزءاً من خطة متكاملة تبدأ بتهيئة المناخ عبر تأليب الجمهور.. ولا يعرف أين تنتهي..

٤ ـ المحور في ذلك كله.. والذي يشكل الهاجس الأكبر لأركان الانقلاب بشكل خاص.. ماذا يمكن أن تقول فاطمة عن علي عليه السلام وهو قطب الرحى.. وما أدراك ما علي.. وما أدراك ما فاطمة..

وسيان.. أقصرت مدة هذه الدلالات أم طالت.. سيان.. أكان انتشر خبر توجه الصِّدِيقة الكبرى إلى المسجد وخطبتها فيه قبل يوم مثلاً أو أكثر أو أقل.. فإن الفرق على فرض طول المدة أن فتك هذه العوامل في النفوس كان أشد ضراوة.. وأما على فرض قصر المدة.. فإن الصاعقة لا يحول دون تأثيرها الصاعق أن زمنها لحظة..

في هذا الجو.. كان الموقف الإلٓهي..

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم كله في ليلة القدر، قبل أن ينزل نجوماً.. وقد حفظ الله تعالى الذكر كله في ليلة القدر الفاطمية من خلال الخطبة الفاطمية.. الوثيقة الكبرى المجهولة..

ومن الغباء السياسي بمكان، ومن التيه العقائدي والضلال المبين في الصميم أن نسهم في طمس مغالم كل هذه الدلالات ونشترك في إنزال أهل بيت العصمة في غير مراتبهم التي رتبهم الله فيها.. فنعبث بكل هذه العظمة ونحشرها تحت عنوان «عقاري» هو «فدك» في حين أن الخطبة لا تتضمن ولو مرة واحدة كلمة فدك..

تبدأ بقولها عليها السلام: أفي دين الله يا ابن أبي قحافة. وهو استهلال يكشف أنها تحدَّثت عن ذلك باعتباره من أبرز ما يفقد الانقلاب على الأعقاب مشروعيته.. فإن الجهل بدين الله تعالى أو الجرأة عليه لا يتركان عذراً لمعتذر.. ولدى التدقيق تجد أن كل حديثها عليها السلام عن الإرث بهذه اللغة. إن علينا أن نفسر «فدكاً» حيث نجد التصريح بها.. ونفسر ما يرتبط بها حيث لا نجد المصطلح.. بالخلافة.. واستمرار الإسلام وخط النبوة.. لا العكس..

ولقد علمنا الإمام الكاظم عليه السلام أن «فدك» عند أهل البيت لم تكن يوماً تحمل دلالة عقارية..

ولعل هذا هو السبب في أن الإمام علياً عليه السلام لم يستردها حين ولي الخلافة ظاهراً.. «**وما أصنع بفدك وغير فدك**» فقد روي أن «هارون المسمى بالرشيد» كان يقول للإمام الكاظم عليه السلام: خذ فدكاً حتى أردها إليك.. فيأبى حتى ألح عليه فقال له عليه السلام: لا آخذها إلا بحدودها.. قال: وما حدودها؟ قال: إن حددتها لم تردها! قال: بحق جدك إلا فعلت..

قال: أما الحد الأول فعدن.. فتغير وجه الرشيد وقال: إيهاً.. قال: والحد الثاني: سمرقند.. فاربدّ وجهه.. والحد الثالث: أفزيقية.. فاسودّ وجهه وقال:

هيه.. قال: والرابع: سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية. قال الرشيد: فلم يبق لنا شيء.. فتحولْ إلى مجلسي!!

قال موسى (الكاظم عليه السلام): لقد أعلمتك أنني أن حددتها لم تردها.. فعند ذلك عزم على قتله[1].

فهل بوسعنا بعد هذا كله أن نبقى على إصرارنا في تسمية الخطبة بالخطبة الفدكية.. مهملين دلالاتها العظيمة.. مما يدل على أن فدك عندنا ـ عموماً ـ غير ما هي عليه عند أهل البيت عليهم السلام..

وهل يبقى أي مبرر لتحييد أي جانب من جوانب هذه المرحلة الشديدة الحساسية، من مراحل الإسلام.. ربما استدعت حراجة الظرف أن يبادر الانقلابيون على الأعقاب إلى جعل فدك عنواناً لكل ما يمكن أن يصدر عن الزهراء عليها السلام.. وربما استدعت هذه الحراجة نفسها أن تكون فدك أوالإرث عمومًابالنسبة للصِّديقة الكبرى المدخل والمنطلق.. إلا أن هذا لا يعني على الإطلاق.. أن يُدرج هذا الموقف الفاطمي العظيم في سياق الخلاف على قطعة من أرض خيبر أو الحجاز!

إن عرض الأمور كما هي.. ومواجهة الحقائق دون مسبقات وإسقاطات.. سيقودنا حتماً إلى أن علينا أن نحدد: هل نحن مع الصديقة الكبرى عليها السلام؟ نبحث عن رضاها الذي جعله المصطفى الحبيب مقياساً لرضا الله تعالى.. أم أننا ـ لا سمح الله تعالى ـ في الصف الآخر.. والجبهة الأخرى؟

بهذه الحقائق.. وهذه الأسئلة.. نتابع ما جرى في المسجد النبوي.. بعد عشرة أيام من رحيل أفضل الخلق وسيد الأنبياء صلى الله عليه وآله.. في محاولة لتسليط الضوء على الفقرات السياسية من الخطبة المباركة.. مع بعض الفقرات التي تسهم في رسم صورة الموقف..

---

(١) ابن شهراشوب، المناقب ٣/ ٤٣٥ نقلاً عن كتاب أخبار الخلفاء، والمجلسي في البحار ٢٩/ ٢٠٠، ٤٨/ ١٤٤ نقلاً عن المناقب.

«لما أجمع أبو بكر[١] على منع فاطمة عليها السلام فدك، وبلغها ذلك لاثت خمارها[٢]، واشتملت بجلبابها[٣] وأقبلت في لمة من حفدتها[٤]، ونساء قومها تطأ ذيولها[٥] ما تخرم[٦] مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة[٧] فجلست ثم أنَّت أنَّةً أجهش القوم لها بالبكاء[٨]، فارتج المجلس[٩] ثم أمهلت هنيئة حتى إذا سكن نشيج[١٠] القوم، وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله (تعالى) والثناء عليه. . والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله فعاد القوم في بكائهم. .

هذه الملاءة المناطة. . والستارة المرفوعة. . التي أشجت الكون أنَّة من خلفها. . هل تحمل رسالةً ما، إلى الأجيال؟

هل تريدنا أن نفهم أن الحديث عن حقوق المرأة مهما شرّق وغرب. . فيجب أن ينطلق على أساس هذا الأصل الفاطمي:

المرأة في قلب دائرة صنع الحدث. . ويبقى الستر والعفاف في قلب الأصالة الحديثة المتجددة. . تجدد الحقيقة الدائم. . لا على هامش الحداثة المفتراة. .

---

(١) اعتمدت في نقل فقرات الخطبة المباركة: الاحتجاج للطبرسي، وبلاغات النساء لابن طيفور، ودلائل الإمامة للطبري، والسقيفة وفدك للجوهري برواية ابن أبي الحديد، والإربلي في كشف الغمة. . مع الإشارة غالباً إلى موارد الاختلاف الحادة.

(٢) لاثت خمارها: لاث العمامة لفّها، والخمار: الغطاء من التخمير بمعنى التغطية ومنه تخمير الشهادة أي كتمانها.

(٣) اشتملت بجلبابها: الجلباب الملحفة أو الثوب الواسع كالعباءة واشتمالها لبسه أو تغطية الجسد به.

(٤) اللمة: قيل (بضم اللام وفتح الميم غير مشددة) وهي من الثلاثة إلى التسعة، أو بمعنى مجموعة وعدد، والحفدة هنا بمعنى الأعوان.

(٥) تطأ ذيولها: وفي نسخة تطأ في ذيولها. . تعبير بلاغي عندما تكون الثياب طويلة.

(٦) ما تخرم مشيتها إلخ: لا تختلف مشيتها عن مشيته صلى الله عليهما وآلهما أدنى اختلاف.

(٧) فنيطت دونها ملاءة: علقت بينها وبين القوم ستارة، ويقال للملاءة: ريطة إذا كانت قطعة واحدة لا قطعتين.

(٨) أجهش القوم لها بالبكاء: غمرتهم علامات التهيؤ للبكاء. . ومنها الأنين. . أو تعالي بعض الصرخات من هنا وهناك.

(٩) فارتج المجلس: الراجح أنه هنا بمعنى الرجة والارتجاج جراء الإجهاش بالبكاء.

(١٠) هنيئة: برهة، فترة قصيرة. والنشيج: امتلاء الجوف بكاءً من غير نحيب. .

ربما. . وعليه فتكون الرسالة ـ رغم عمومها ـ خاصة بالمرأة المسلمة. . و«الحركية» «المستنيرة» بشكل خاص جداً، فخير للمرأة أن لا ترى رجلاً ولا يراها فضلاً عن أن يحدق في الملامح والقسمات. . وليهزأ المتخلفون المنتفخون بوهم الحداثة فإن الرشد في خلافهم.

فداك نفوس الأجيال المحمدية يا قرة عين الرسول. . وهل تقوى قلوبهم جميعاً وقلوب جميع الملائكة المقربين وسائر الأنبياء والأولياء على احتمال وقع تلك الأنّة. . الفاطمية؟!

عندما تكون روح سر الوجود حزينة. . تتفجع. . فما أشجاها أنّة في مسمع الدهر إلى يوم يبعثون. .

وافتتحت الكلام عليها صلوات الرحمٰن فقالت:

«ابتدئ بالحمد لمن هو أولى بالحمد والمجد والطَّوْل[1]. .

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم والثناء على ما قدَّم، من عموم نعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها وإحسان مِننٍ والاها، جمَّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن المجازاة أمدها، وتفاوت عن الإدراك أَبَدُها، استدعى الشكور بإفضالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وأمر بالنَّدب إلى أمثالها.

وأشهد ألا إلّه إلا الله كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمَّن القلوب موصولها، وأبان في الفِكَر معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام الإحاطة به. .

(١) أشير هنا إلى أن ثمة نسخاً متعددة للخطبة المباركة. . ومن أقدم ما وصلنا نص الطبري في دلائل الإمامة، ونص الجوهري في السقيفة وفدك، ونسخة عنه للإربلي في كشف الغُمة، ونص ابن طيفور في بلاغات النساء. . وقد اعتمدت المقارنة بين هذه النصوص في ما أُورده من فقرات. . معتبراً أن الأصل الذي اعتمده منطلقاً للمقارنة والاقتباس هو نص دلائل الإمامة، وتصحيح الإربلي لنسخة مغلوطة وصلته من كتاب الجوهري، وذلك لخصوصيات علمية وفنية، وجميع هذه النسخ وغيرها موجود في برنامج المعجم الفقهي، الإصدار الثالث.

إلى أن تقول عليها السلام:

وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله، اختاره قبل أن يجتبلَه[١]، واصطفاه قبل أن يبتعثه، وسماه قبل أن يستنجبه[٢]، إذ الخلائق في الغيب في مكنونة (وبستر الأهاويل)[٣] مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً منه بمآيل[٤] الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة منه بمواقع المقدور، فرأى ﷺ الأمم فرقاً في أديانها، وعابدة لأوثانها، عكفاً على نيرانها، منكرة لله مع عرفانها..

فأنار الله بأبي ﷺ ظُلَمَها، وفَرَّجَ عن القلوب بُهَمَهَا، وجلا عن الأبصار عَمَهها..

ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار ورغبة وإيثار، (فمحمدٌ ﷺ من تعب هذه الدار في راحة قد حُفَّ بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار.. صلى الله على أبي نبيه وأمينه على الوحي وصفيه، وخيرته من الخلق ورضيه[٥] (...).

ثم التفتت[٦] إلى أهل المجلس فقالت لجميع (لجمع ظ) المهاجرين والأنصار:

وأنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم (حولكم لله فيكم عهد قدمه إليكم[٧] وبقية استخلفها عليكم[٨].. كتاب الله بينة بصائره (...) متجلية فينا ظواهره...».

---

(١) قبل أن يخلقه.

(٢) قبل أن يجعله نجيبه وهو تعبير آخر عن الاصطفاء، وبمعناه.

(٣) عن كشف الغمة.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الاحتجاج ١/ ١٣٤.

(٦) يبدو أن المراد الالتفات بمعناه في «البيان والبديع» وهو الانتقال من الغائب إلى المخاطب.

(٧) كشف الغمة.

(٨) الاحتجاج.

هنا نجد أن الصِّديقة الكبرى عليها السلام قررت دخول الشأن السياسي من معنى حديث «الثقلين»: كتاب الله وعترتي.. فعهد الله تعالى هو القرآن الكريم وبقية الله المستخلفة هي العترة..

وبعد الحديث عن كتاب الله تعالى.. بدأت بالحديث عن فلسفة التشريع ثم عادت إلى الحديث عن ولاة الأمر لحفظ حدود الله تعالى وتشريعه عز وجل.

«ففرض الله عليكم الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزييداً في الرزق والصيام إثباتاً للإخلاص (...) وطاعتنا نظاماً للملة، وامامتنا لماً للفرقة[1]، والصبر معونة على الاستيجاب[2] والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، والنهي عن المنكر تنزيهاً للدين (....) فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ولا تتولوا مدبرين، وأطيعوه في ما أمركم ونهاكم فإنما يخشى الله من عباده العلماء، فاحمدوا الله الذي بعظمته ونوره ابتغى من في السماوات والأرض إليه الوسيلة، فنحن وسيلته في خلقه، ونحن آل رسوله، ونحن حجة غيبه وورثة أنبيائه...»[3].

وهذه إحدى الفقرات التي لو لم يكن في الخطبة المباركة غيرها لكفى بها دليلاً على نزع أية شرعية عن الانقلاب على الأعقاب فهل ثمة معنى آخر لقولها: **«وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا لماً (أو أماناً) من الفرقة (...) فنحن وسيلته في خلقه (...) ونحن حجة غيبه وورثة أنبيائه».**

ثم قالت عليها السلام:

أيها الناس.. اعلموا أني فاطمة وأبي محمد صلى الله عليه وآله أقول عوداً على بدء، وما

---

(١) في بلاغات النساء «وإمامتنا أمناً من الفرقة».

(٢) في نسخة: استيجاب الأجر، وفي أخرى: الاستجابة، وفي كشف الغمة مؤونة للاستيجاب.

(٣) دلائل الإمامة، وقد نص الجوهري في كتابه «السقيفة وفدك» ـ الذي لم يصل إلينا ـ بناءً على ما نقله عنه ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢١١/١٦، على أن موضع هذه الفقرة هو بعد: ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.. ويبدو أن الطبري في دلائل الإمامة هو الوحيد الذي أوردها كذلك.. وما أجمعا عليه فهو في ذروة الوثاقة.

أقول إذ أقول سرفاً، ولا شططاً لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، إن تَعْزُوه تجدوه أبي دون نسائكم وأخا ابن عمي دون رجالكم، بلَّغ النذارة، صادعاً بالرسالة، ناكباً عن سَنَن المشركين، ضارباً لأثباجهم، آخذاً بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجذّ الأصنام، وينكت الهام حتى انهزم الجمع وولوا الدُّبر، وحتى تفرى الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وهدأت فورة الكفر، وخرست شقاشق الشيطان، وفُهتم بكلمة الإخلاص، وكنتم على شفا حفرة من النار، تعبدون الأصنام، وتستقسمون بالأزلام، مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطئ الأقدام (. . .) أذلة خاشعين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم به بعد اللتيا والتي، وبعدما مُنيَ بِبُهم الرجال، وذؤبان العرب.

ونجد هنا أن الحديث دخل إلى قلب الشأن السياسي. . من خلال إجرائها عليها السلام مقارنة بين ما كان عليه وضع العرب . . وبين ما هو الحال الآن. . دون أن تطيل الوقوف عند الثاني فهو آنذاك الحاضر. . مكتفية بما تقدم في صدر الخطبة وبالتفصيل في خصوصيات الماضي الذي يجعل إدراك الحاضر من خلاله أكثر وضوحاً. . وأشد تحميلاً للمسؤولية، خصوصاً لمن نكث العهد. . مركزة على عظيم الجهد النبوي الذي بدأ الحديث عنه بالأخذ بأكظام المشركين والضرب لأثباجهم، مروراً بمواجهة بُهم الرجال وذؤبان العرب. . وصولاً إلى ما سيأتي. .

وتكشف هذه المقارنة بوضوح كما ترى انتقال العرب على يد المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله من «موطئ الأقدام» إلى «حملة دينه ووحيه» و«بلغاء الله تعالى إلى الأمم». .

وإذا تذكرنا أن الجمهور الذي يصغي إلى هذه الخطبة. . هو حشد المهاجرين والأنصار، بما فيهم أركان الانقلاب على الأعقاب ـ كما عرفت ـ أدركنا أن كل ما تقدم، بلغ ذروة الاستفزاز لهم. . بمروره سريعاً على موقع أهل البيت عليهم السلام كبقية لله استخلفها عليهم. . وأنهم «ورثة أنبيائه». . ، وإشارتها الأسرع الشديدة الوطأة إلى حديث المؤاخاة. .

أما باقي الفقرات.. فإنها رغم قسوتها عليهم قد اتخذت طابعاً تأسيسياً.. مما يرفع من منسوب وجل القلوب المنقلبة على الأعقاب.. من الآتي.. خصوصاً حول الإمام علي عليه السلام..

ولم يطل انتظارهم..

أضافت عليها صلوات الرحمٰن:

«كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، وكلما نجم قرن الضلالة، أو فغرت فاغرة للمشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها[1] بأخمصه، ويخمد لهبها بحده، مكدوداً في ذات الله، قريباً من رسول الله سيداً في أولياء الله.. وأنتم في بلهنية[2] آمنون، وادعون فرحون، تتوكفون الأخبار وتنكصون عند النزال على الأعقاب.. حتى أقام الله بمحمد عمود الدين...».

فهل كانت الإشارة السريعة الشديدة الوطأة في هذا الجو الملتهب، مدخلاً إلى الحديث عن اللهوات التي خاضها أمير المؤمنين بين يدي المصطفى صلى الله عليه وآله «قذف أخاه في لهواتها»؟

أم أن كون علي عليه السلام أخا رسول الله صلى الله عليه وآله يحمل من الدلالات (في هذا الجو) ما لا يخفى.. وهي عليها السلام تريد توكيدها؟.

مهما يكن.. فإنه ليس ثمة ما يثير حفيظة الانقلابي.. مثل مدح الحاكم الشرعي القانوني.. الذي تسلل الإنقلابي تحت جنح الظلام لتنفيذ الانقلاب المؤامرة ضده.. فكيف إذا كان هذا المدح ممن تكفي كلمة منه لنزع الشرعية عن الدنيا بأكملها..

وكيف إذا كان المدح بمستوى ما سمعت مكدوداً في ذات الله، قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله..

وكيف إذا اقترن هذا المدح بالتعريض الذي يبلغ حد التذكير ببعض الحروب

(١) الصماخ: ثقب الأذن، وقيل هو الأذن نفسها.

(٢) البَلهنية: السعة، رغد العيش.

التي نكص فيها من نكص وبعضها الآخر التي هرب فيها من هرب يتوكف الأخبار بعد أن نكص عند النزال. .

كأني بالأكثر نباهة من الحضور، والأقل انقلاباً على الأعقاب. . يتفحصون بعض الوجوه مع الإصغاء لهذه الفقرات بالذات. . وكأني بنتائج قراءتهم للوجوه هذه. . فعلت فعلها في أندية المدينة. . ومجالس السر في الغزوات، وسائر الخلوات. . وقد بات واضحاً أن الصِّديقة الكبرى عليها السلام تؤكد الحقيقة القرآنية حول اشتداد عود حركة النفاق التي حذر منها الله تعالى في قرآنه الكريم. . والتي لا تشكل آية الانقلاب على الأعقاب إلا كشفاً عن مسارها التآمري. . وليست بلهنية العيش، والدعة والفرح، وتوكف الأخبار والنكوص عند النزال، إلا ظواهر مرضية للذين في قلوبهم مرض، لذلك سنجد أن الفقرات التالية لتوكيد أصل وجود حركة النفاق، منصبة على انفجار الخزين الذي طالما اعتمل في القلوب المريضة. . وبذلك يتخذ الحديث منحى مختلفاً. . والجو توتراً من نوع آخر. . فهذا أول حديث مباشر عن الانقلاب على الأعقاب. .

قالت عليها السلام :

«ولما اختار الله عز وجل له دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهرت حسيكة(١) النفاق، وسمل(٢) جلباب الدين وأخلق ثوبه، ونحل عظمه، وأودت رمته، وظهر نابغ، ونبغ خامل، ونطق كاظم(٣)، وهدر فنيق(٤) الباطل يخطر(٥) في عَرَصاتكم(٦) وأطلع الشيطان رأسه من معرسه(٧) صارخاً بكم، فألفاكم غضاباً، فخطمتم(٨) غير

---

(١) الحسيكة: الحقد والضغينة.
(٢) سمل: أصبح بالياً.
(٣) بمعنى تقدم المتأخر وتكلم من لم يعهد منه الكلام.
(٤) الفنيق: الفحل.
(٥) يخطر: يتبختر.
(٦) عَرَصاتكم: ساحاتكم.
(٧) المنزل الذي يبيت فيه، بمعنى أطلع الشيطان رأسه من وكره.
(٨) خطم الإبل: قيل: كيُّها بالنار لثَقْب الأنف، والأصح أنه وضع الخطام وهو الزمام في مقدم أنف الناقة وفمها لتقاد به. والمراد به وبما بعده: أخطأتم الهدف الصائب.

إبلكم، وأوردتموها غير شربكم، بداراً[1] زعمتم خوف الفتنة، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين.. هذا.. والعهد قريب، والكَلْم رحيب[2] والجرح لما يندمل[3] فهيهات منكم وأين بكم، وأنى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم زواجره لائحة[4] وأوامره لامحة، ودلائله واضحة، وأعلامه بينة، وقد خالفتموه رغبة عنه، فبئس للظالمين بدلاً...».

وأنت ترى.. أن هذه الفقرات فوق كل ما يمكن أن يقال حولها.. ستظل رغم الأحقاب والقرون «تقدمة الحجة الفاطمية» التي تُلح على كل موحد أن يعيها ويفقههادلالاتٍ هي أكبر من التاريخ، ومضموناً يصحح حركة القلب.. والمعتقد.. ولا تفوت محور العصمة الإجابة الفصل على شبهة قد تشكل مكمناً للشيطان تتلخص في أن ما حصل كان يهدف إلى درأ الفتنة وهو ما حدا إلى الانصراف عن التفجع لفقد المصطفى الحبيب ﷺ إسراعاً في وضع الأمور في نصابها.. جواباً على ذلك قالت عليها صلوات الرحمٰن: **بداراً زعمتم خوف الفتنة، ألا في الفتنة سقطوا**..

وبنور الله تعالى ترى روح المصطفى الحبيب حركة التاريخ في خط بياني للنفاق متصاعد.. فتقول: إن كان حجم الانحراف هو هذا.. والجرح لما يندمل.. فأين تذهبون.. وأنى تؤفكون.. لتصل بعد ذلك إلى تقرير الحقيقة الصراح أن مخالفة القرآن الكريم لا تستظل بفيء ولا تستتر بشبهة.. بل لمحض الإعراض عن القرآن الكريم رغبة بغيره.. فقد خالفتموه رغبة عنه.. فبئس للظالمين بدلاً!.

وعوداً على بدء.. آمل أن يتفهم المنصف أن اعتبار معرفة ما أراده الله تعالى وما فيه رضاه، من خلال موقف روح رحمة الله تعالى للعالمين.. إنما هو فوق كل اعتبار.. ولا ينطلق بتاتاً من نَزْع إلى تعكير الصفو، فضلاً عن إيقاد نار

---

(١) بداراً: أي مبادرة وإسراعاً. وفي هذه الفقرة رد على من يدّعي أن السقيفة كانت لضرورات درء الفتنة.

(٢) الكلم: الجرح. ورحيب: واسع.

(٣) لما يندمل: لم يلتئم بعد.

(٤) زواجره: نواهيه... ولامحة: بمعنى ظاهرة.

الفتنة لا سمح الله.. لنضرب صفحاً عن المصاديق.. ولنيمم وجه القلب شطر المفهوم.. والحقيقة.. ليكون البحث علمياً صرفاً.. ولنؤجل الاختلاف إلى أوان البحث عن المصاديق.. إذابقي ذلك ضرورياً..

بقيت ملاحظة أخيرة حول هذه الفقرات المقياس.. هل ترى أن مضمونها ينسجم من قريب أو بعيد مع شبهة الفدكية.. أو مع كون روح الخلاف عقارياً!!

أقول ذلك تثبيتاً لما مر.. ولنلمح في الفقرات التالية.. كيف تتم مقاربة الشأن الفدكي كمؤشر على عمق الانحراف وظلم أهل البيت ليس إلا..

قالت عليها صلوات الرحمٰن:

«ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها[١]، ويَسْلس[٢] قيادها، ثم أخذتم تورون[٣] وقدتها، وتهيجون جمرتها وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي، تسرون حسواً في ارتغاء[٤] وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء[٥] ونصبر منكم على مثل حز المدى[٦] ووخز السنان في الحشا.. وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا.. ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾.. أفلا تعلمون ـ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية ـ أني ابنته.. أيها المسلمون.. أغلب على إرثي؟!!».

هل ندرك حقاً بعض ما جرى على أهل البيت بعد المصطفى الحبيب ﷺ.. ألا ترى أن الحديث هنا عن محاولات الاغتيال المعنوي(؟) المتكررة، والإصرار

---

(١) نفرت الدابة: تباعدت.

(٢) يسلس قيادها: يسهل تحريك زمامها، والمراد أنكم أسرعتم إلى ظلم أهل البيت عليهم السلام.

(٣) تورون وقدتها: تشعلون توقدها في موقدها..

(٤) تسرون حسواً في ارتغاء: يقال ذلك لمن يتظاهر بشيء وهو يفعل غيره.. وأصله التظاهر بالارتغاء أي تناول الرغوة عن وجه الحليب.. في حين أن الواقع الحسو من الحليب نفسه، أي شرب ما تيسر خفية وبسرعة.

(٥) الخمرة أو الخمر: الستر والضراء الستر الشديد، فقد يكمن الصياد في مكان شبه مكشوف في أرض سهلة خلف صخرة هذا هو الخمر أو الخمرة أو الخمراء، وقد يكمن في ملتف الشجر من قلب الغابة.. هذا هو الضراء..

(٦) المدية (بضم الميم): الشفرة والجمع مدى.

الدائم على نصب الكمائن لهم، وإلحاق الأذى بهم بما يصل إلى مثل حزِّ الشفرات، ووخز الرمح في الأحشاء.. وهو بعدُ حديث عن لونين من التآمر الخفي.. والأشد خفاءً.. وهما معنى الخمرة والضراء..

إن علينا في ضوء ذلك أن نعيد النظر في كل ما نتصوره عما جرى حتى في تلك الأيام العشرة التي تفصل بين فقد خير خلق الله تعالى وحديث الصديقة الكبرى في المسجد النبوي..

حقاً.. ماذا جرى في تلك الفترة المنعطف.. إذا أدركنا ما يصح السكوت عليه من ذلك أمكننا أن ندرك ما ترتب عليه من أحداث جسام.. وأمكننا أن ندرك السفح من الأسباب التي حملت المصطفى الحبيب ﷺ على الحديث الدائم والبكاء الملازم لما يجري على أهل البيت من بعده.. بكى لمصاب علي عليه السلام، وبكى الحسين عليه السلام.. وبكى لمصائب أهل البيت عموماً.. بل إنه أحياناً أجهش بالبكاء..

وهل نعي ما يعنيه بكاء من لا ينطق عن الهوى.. مصرحاً بالحديث عن استضعافهم من بعده.. هل نعني أن ذلك في صلب تبليغ الرسالة وأداء الأمانة..

وهل ندري أن معنى كون الأجر على الرسالة هو المودة في القربى.. حديث إلٰهي بصيغة خاصة عن مصائب أهل البيت عليهم السلام.. التي هي في أيامها الأولى مثل حز المدى.. ووخز السنان في الحشا.. والتي هي في العمق والحقيقة مصائب الإسلام لا غير.

وهل نعي أن السبب كل السبب في الحديث الدائم عن مصائبهم هو أن استمرار الإسلام في خط نقائه الإلٰهي المحمدي رهن الوقوف معهم.. لأنهم يدورون مع الحق حيث دار.. فهم الأمان لأهل الأرض بإذن الله تعالى من الاختلال مطلقاً وخصوصاً في منظومة القيم ـ والوجود ـ كما أن النجوم أمان لأهل السماء(١).

---

(١) من الطريف الملفت أن ابن حجر في الصواعق المحرقة ٢/ ٤٤٥ يتحدث عن صحة سند هذا الحديث بإحدى صيغه وينقل كلاماً لبعضهم في جو يوحي بتبنّيه لمضمونه، وخلاصته أن دوام الدنيا رهن دوام أهل البيت عليهم السلام، وأن ذلك يقتضي وجود شخص منهم في كل عصر يتحلى بهذه الأهلية. راجع: برنامج «مكتبة العقائد والملل»، الإصدار الأول، مركز التراث للحاسب الآلي، الأردن ـ عمان.

أما وقد تنكر لهم الانقلاب على الأعقاب.. فقد وقعت الواقعة.. التي لا يشكل الحديث عن فدك أزاءها أكثر من مؤشر على هول تنكب الصراط المستقيم.. وهذا ما نجده في الخطبة الفاطمية بكل وضوح..

«أيها المسلمون، أغلب على إرثي[١]**.**

إيهاً معاشر المسلمين، أُبتز إرث أبي، أبى الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك، ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فرياً.. دونكها مخطومة مرحولة[٢] **تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون، ولكل نبأٍ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم.**

ثم التفتت إلى قبر أبيها فتمثلت بقول هند بنت أثاثة:

قد كان بعدك أنباء وهينمة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخُطب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم ... لما قضيت وحالت دونك الكتب
تجهمتنا رجال واستُخف بنا ... إذ غبت عنا فنحن اليوم نغتصب

ولم يُر الناس أكثر باك ولا باكية منهم يومئذٍ[٣]**.**

---

(١) الاحتجاج، ودلائل الإمامة.

(٢) مخطومة: الخطام: الزمام وناقة مخطومة أي مزمومة وضع لها الزمام لتقاد به والمرحولة التي وضع عليها الرحل والمراد أن فِرْيَتَك جاهزة ناجزة لا تترك لك عذراً تمثيلاً بالناقة الجاهزة للسفر التي لا تدع مجالاً للتعلل والتأخير.
وهذا المعنى هو المتعين من الرجوع إلى كتب اللغة كصحاح الجوهري وغيره.. ومن فسر الخطم بالكي ربما التبس عليه الأمر لأن الكيَّ إنما هو في موضع الزمام والخطام، فلاحظ. وانظر: القاضي النعمان، شرح الأخبار ٣/ ٥٠.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح النهج ١٦/ ٢١١ نقلاً عن كتاب «السقيفة وفدك»، لأبي بكر الجوهري.. وقد التزم ابن أبي الحديد أن لا يحفل بالمصادر الشيعية. انظر: ١٦/ ٢١٠.
ويروي هذه الفقرة قريباً مما ورد أعلاه السيد ابن طاووس في «الطرائف» عن الحافظ «الثقة بينهم» أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه في كتابه «المناقب». انظر: الطرائف»، ص٢٦٤. وفي رواية الأبيات وتتمتها اختلاف كثير حتى في المصدر الواحد أحياناً فليلاحظ.

وقد اخترت من روايات هذه الفقرة ما رواه أبو بكر الجوهري الذي هو من أعلام العلماء المسلمين السنّة حسب ما نص على ذلك ابن أبي الحديد في «شرح النهج» والهدف توكيد حقيقة أن الموقف أكبر من فدك كعقار، إنه بحجم مساحة الدولة الإسلامية.. بل بحجم حدود الله تعالى التي هي أكبر من الدنيا.. كما سيتضح يومَ الحشر.. والحَكَم الله، والمدعي الكفيل محمد ﷺ.

وهكذا يمكننا أن نفهم المراد بالأنباء والهيمنة.. أو الهنبثة.. والمراد بالخطب أو النُّوب.

وهكذا يمكننا أن نفهم الاستخفاف بأهل البيت.. استخفافاً بالإسلام.. لا اغتصاباً لقطعة أرض كانت المؤشر على أصل الظلامة، والمنطلق المتاح للحريص على مسرب الاستمرار الوحيد الممكن للإسلام، لمواجهة الانقلاب على الأعقاب.. الأمر الذي يحتم تسجيل الموقف بأعلى درجات الوضوح دون أن يؤدي ذلك إلى أي إخلال بالهدف: استمرار الإسلام.. وحفظ الذكر.. وهي مهمة بالغة الدقة والحرج، لا ينهض بأعبائها ـ في تلك الظروف ـ إلا الصّديقة الكبرى عليها صلوات الرحمٰن.. وقد أثبت الموقف الفاطمي ذلك بما تخشع في محرابه الأجيال.. لتستلهمه الدروس المحمدية التي تزداد ألَقاً وشموخاً.. كلما تقادم العهد.. وأخلق الزمان..

وفي الفقرة التالية.. سنجد ما لم يكن للقوم بالحسبان.. لنكتشف ـ في غمرات الموج المحمدي المتلاطم ـ كم نظلم أنفسنا والحقيقة.. ومنها موقع المعصوم.. عندما لا نحاول الغوص في مرامي هذه الملحمة الفاطمية التي حفظ الله تعالى بها أولاً وقبل كل شيء آخر.. جميع الجهود المضنية التي بذلها المصطفى الحبيب الذي لم يُؤذَ نبيٌّ كما أوذي وجميع مفردات انقضاض ذي الفقار المتنمرة في ذات الله.. وجميع قطرات الدماء التي سالت من المصطفى الحبيب ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام، وجميع الشهداء والمجاهدين، في مسيرة الدفاع عن وحي الله تعالى ودينه.. بل حفظ الله تعالى بها جميع جهود الأنبياء. ليواصل الأئمة عليهم السلام هذه المهمة المقدسة التي ما تزال تتوالى فصولاً..

قال الطبرسي في الاحتجاج:

ثم رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت[١]..

يا معشر النقيبة[٢]، وأعضاد الملة، وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقي، والسِّنة عن ظلامتي، أما كان رسول الله ﷺ أبي يقول: المرء يحفظ في ولده؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة[٣]، ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول، أتقولون مات محمد ﷺ، فخطب جليل (...) أزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى (...) أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه (...) ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾.

إيهاً بني قيلة[٤].. أهضم تراث أبي، وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى ومجمع تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعُدة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتُخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب، وتحملتم الكدَّ والتَّعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، لانبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودرَّ حلب الأيام، وخضعت نعرة الشرك وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين، فأنى

---

(١) الطبرسي، الاحتجاج، ١٠٧؛ ولم أجد حتى الآن أن غيره نص على تواصل هذا القسم من كلامها عليها السلام مع ما تقدم.. فقد نص الجوهري كما في شرح النهج، وكشف الغمة، وكذلك الطبري في دلائل الإمامة، وابن طيفور في بلاغات النساء على أنها عليها السلام خرجت من المسجد النبوي وتوجهت إلى مسجد الأنصار وخاطبتهم بالنص المذكور هنا.

(٢) يبدو أنه بمعنى: يا معشر الفضائل، وقيل غير ذلك، ولعله إشارة إلى بيعة العقبة والنقباء من الأنصار.

(٣) بمعنى الفقرة المتقدمة «سرعان ما أحدثتم».

(٤) قيلة: اسم جدة الحيين من الأنصار الأوس والخزرج. ولا يخفى لطف هذا الاختيار في ذلك الظرف.

جرتم بعد البيان، وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد الإيمان.. بؤساً[1] لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وهموا بإخراج الرسول، وهم بدأوكم أول مرة، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين..

ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الأرض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة ونجوتم بالضيق من السَّعة فمججتم ما وعَيتم، وَدَسَعْتُم الذي تَسَوَّغتم[2]، فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد.

ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم.. ولكنها فيضة النفس ونفثة الغيظ (...)، وبثة الصدر، وتقدمة الحجة فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر نقبة الخف[3] باقية العار موسومة بغضب الجبار وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد فاعملوا إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون.

وسواءً أكانت هذه الفقرات قد صدرت منها عليها صلوات الرحمٰن في المسجد النبوي ـ كما يروي الطبرسي في الاحتجاج ـ أم أنها صدرت منها في مسجد الأنصار بعد خروجها من المسجد النبوي.. فإن دلالاتها تفوق كل ما تقدم ـ على عظمة دلالاته ـ إلا أن لصدورها في المسجد النبوي دوياً من نوع آخر..

وأغلب الظن هو ذلك.. وهو ما يقوى بالتأمل في مبادرة الأول إلى تهديد الأنصار كما تقدم.. ويأتي مزيد إيضاح.

تبدأ هذه الفقرات أولاً بالتذكير بسابقة الأنصار في احتضان الإسلام.. وتنتقل إلى بث الشكوى مستنفرة هممهم لحفظ المصطفى فيها (صلى الله عليهما وآلهما) عاتبة بل مؤنبة لسرعة التنكر له ﷺ رغم القدرة على حسم الموقف

---

(١) قال تعالى: ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم﴾ إلى آخر ما ورد أعلاه، التوبة: ١٣. وفي أكثر المصادر الأساسية. أنها عليها السلام استشهدت بهذه الآية المباركة، وهو الأنسب.

(٢) الفقرتان بمعنى تقيؤ ما دخل الجوف، كناية عن التنكر لما عقدوا القلب على صحته.

(٣) احتقبوها: أي تحملوها.. دبرة الظهر مثقلة الظهر متعبته. ونقبة الخف: رقة خف الناقة الذي يعيق حركتها... والمعنى هو ما يأتي في الفقرات التالية باقية العار إلخ.. أي تحملوا وزر فعلتكم القبيحة الشوهاء.

لصالحها.. منتقلة من ذلك مباشرة إلى استنفار الهمم بالمصطفى الحبيب.. عبر التفجع عليه.. من منطلق أن فقده ينبغي أن يشكل حافزاً لحفظه.. لا التنكر له.. هذا التنكر الذي تضعه في موقعه القرآني.. فقد حذر منه كتاب الله تعالى.. أفلا تحذرون..

ثم ترفع وتيرة استنهاض الهمم.. إيهاً.. معتمدة اسماً يجمعهم ولا يفرقهم.. فهم جميعاً لأم واحِدة هي «قَيْلَة» ما بالكم إذاً تحول حزازاتكم.. ويمنع تنافسكم من الوفاء للمصطفى الحبيب ﷺ وتنأون بجانبكم عن ظلامتي وأنتم بها عارفون.. رغم اقتداركم عُدة وعدداً..

ما بالكم تنادَوْن فلا تجيبون.. ويستغاث بكم.. وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون.. وأنتم أنتم بأساً وشدة.. وخيراً وصلاحاً.. حتى غدوتم خيرتنا أهل البيت.. اخترناكم دون غيركم.. قاتلتم العرب وتحملتم الكد والتعب.. نأمركم فتأتمرون!!

ما بالكم الآن ناكصون.. إنها المرة الأولى التي نأمركم فلا تأتمرون.. فأنى تذهبون..

﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة.. أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾.. أليس هذا إعلان حرب.. وعلى من يا ترى؟..

ويتضح لك بما لا مزيد عليه أن الموقف يزخر بكل العناصر التي تجعله موقفاً قيادياً فريداً يستحضر الإيجابيات بكل وفاء وجلاء، ويركز على السلبيات دون أدنى محاباة.. ويطرح البديل بلهجة(قيادية) نأمركم فتأتمرون.

ولُغة: حتى دارت بنا رحى الإسلام.. ودَرَّ حَلْب الأيام.. فأنى جرتم بعد البيان.. وأسررتم بعد الإعلان..

وهما لهجة ولغة لا تملك أمام الاستغراق فيهما إلا أن تجد نفسك لأول وهلة متسائلاً هل رسول الله ﷺ هو المتحدث؟

ويستبد بك الذهول لشدة الإخلاد إلى الأرض.. وضراوة الانقلاب على الأعقاب.. فإن هذا الموقف الإلهي الفاطمي، من شأنه أن يقلب المعادلة.. رأساً

على عقب.. لولا أن القوم كانوا قد ذهبوا في الردة عريضاً إلى حد «فمجحتم ما وعيتم، ودسعتم الذي تسوغتم» وهو يعني الخروج من دين الله تعالى..

ولذلك قالت عليها صلوات الرحمٰن: **﴿فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾**.

لم تقف الصِّديقة الكبرى في المسجد النبوي لأنها تحتمل للحظة استجابة القوم لها.. فهي مظهر علم الله تعالى الذي تحدث عن الانقلاب على الأعقاب وهو يعلم الشاكرين.. وقليل من عباده الشكور..

كانت عليها صلوات الرحمٰن تعلم أنهم أخلدوا إلى الأرض.. وأبعدوا علياً عليه السلام وهو ـ لديهم أيضاً ـ أحق بالبسط والقبض في إدارة شؤون المسلمين.. وكانت تعلم أنهم في حضيض التخاذل.. وذروة الغدر الذي تحينوا فرصته[1].. وبعين الله تعالى ما فعلوا.. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون..

وفي الختام: هذه وقفات سريعة على أعتاب الخطبة الفاطمية تكشف عمق الحاجة إليها.. نحفيها السؤال ونستخبرها الحال: كم غليل معتلج بصدر الصِّديقة الكبرى لم تجد إلى بثه سبيلا[2]..

إلى الله المشتكى.. وستقول ويحكم الله.. والله خير الحاكمين[3].

والحمد لله رب العالمين

---

(١) تبقى الإشارة إلى أن فقرة «إيهاً بني قيلة» نص في خطاب الأنصار.. أما الفقرة التي قبلها «يا معشر النقيبة» إلخ.. فليست كذلك.. ثم إن في الفقرات الأخيرة عبارات تقوي العزم على تبني أنها خطاب لعموم المسلمين من قبيل «والغدرة التي استشعرتها قلوبكم» «أبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض» «فدونكموها فاحتقبوها.. إلخ». وهو مؤشر آخر على أن النص كان من ضمن الخطبة الفاطمية في المسجد النبوي المبارك. ولعل الاشتباه ناشئ من الحديث عن توجهها إلى الأنصار.. ففسر ذلك بأنه عدول إلى مسجدهم إلا أن أكثر المصادر تتحدث عن ذلك.. ووقوع الأكثر في الخطأ مستبعد.. وإن كان ممكناً.. والله تعالى العالم.

(٢) و (٣) من وحي كلمات المولى أبي الحسن بعد دفن الصِّديقة الكبرى عليهما صلوات الرحمٰن. انظر: شرح أصول الكافي، للمولى محمد صالح المازندراني ٧/ ٢١٤.

(٦)
فاطمة أم أبيها

* تمهيد.
* أخطاء منهجيّة في التعرف على المعصوم...
* بين الغُلوّ.. ووهمه..
* عندما يفرغ النص من محتواه..
* من معاني «أم أبيها».

الأول، الثاني، الثالث، الرابع، الخامس.

* مع اللغويين في معنى «الأم»..
* المعنى السادس.
* «أم المؤمنين» شعار لحرب علي عليه السلام.. و«أم أبيها» يفقد دلالته!!
* ختام.. على أبواب الشهادة.

(٦)

الجمعة ١٥ ج٢ ١٤١٨هـ

ما نزال في الأيام الفاطمية ولا شك أن من أسباب سعادة المسلم المؤمن في يوم القيامة أن يطول في الدنيا وقوفه على عتبة قرّة عين الرسول ﷺ خصوصاً وأنَّ لمعرفتها عليها السلام موقعاً محورياً في معرفة أهل البيت عليهم صلوات الرحمٰن.

سمعنا وقرأنا في الزيارة الجامعة «**من أراد الله بدأ بكم**» وينبغي أن يوقن القلب بأن من أراد معرفة رسول الله وأهل البيت جميعاً وأراد الله تعالى ينبغي أن يبدأ بالزهراء عليها السلام.

التدين أيها الحبيب رهن معرفة الزهراء عليها السلام، دين كل شخصٍ منا بمقدار معرفته للصِّديقة الكبرى ـ ولا أدَّعي ـ فمن جهلها فلا دين له، ومن ضعفت معرفته بالصِّديقة الكبرى فدينه ضعيف، ومن قويت معرفته بالصِّديقة الكبرى التي على معرفتها دارت القرون الأولى وتدور القرون الأخرى فإن دينه قوي.

المشكلة الأساس التي ينبغي أن ندرك ولو بعض مستوياتها أنه بالرغم من وجود روايات كثيرة في فضل الصدِّيقة الكبرى فإن الذي يقال عادةً إنَّ الروايات حول الزهراء عليها السلام قليلة!

ما أكثر الروايات حول الصِّديقة الكبرى ولكن ما أقل المعرفة بها عليها السلام ويرجع السبب في الاعتقاد بقلة الروايات حول الصِّديقة الكبرى رغم كثرتها جداً إلى أخطاء ثلاثة في المنهج الفكري للقائلين بذلك.

الخطأ الأول: شطب الروايات بمجرد أن تكون لها أبعاد غيبية. فعندما تُقرأ رواية وتقيم على أساس أنها «غيبيات في غيبيات» فإنها تحيَّد.. مباشرة أو تسحب من التداول، أو تشطب.

الخطأ الثاني: في المنهج: المواقف المسبقة أو فقل الإسقاطات، أننا نسقط على هذه الرواية أو تلك فهمنا المسبق.

الفهم المسبق أن المعصوم مثله مثل الآخرين تقريباً! الزهراء عليها السلام امرأة كسائر النساء مع بعض الفوارق، عندما نأتي إلى الروايات لنفهمها فإنا نقرأها على أساس المواقف المسبقة ونسقط عليها أفهامنا الخاصة، لذلك نجد أن النتيجة من هذه الرواية ـ إن وجدناها ـ نتيجة محدودة، وسيتضح لك معنى ذلك من خلال الرواية التي هي محور الحديث في هذه الليلة إذا وفق الله تعالى.

الخطأ المنهجي الثالث: أننا نشطب كثيراً من الروايات أيضاً بدعوى أنها غلوّ، نتوهم الغلو فنشطب هذه الروايات..

ثلاثة أخطاء منهجية إذاً.. أعيد ذكرها بالتتالي وباختصار:

الأول: أننا نشطب الروايات ذات الأبعاد الغيبية، أو نخرجها من دائرة «التبليغ» و«التثقيف».

ثانياً: أننا نسقط على الروايات أفهامنا المسبقة.

ثالثاً: أننا نتوهم الغلو فنشطب قسماً آخر من الروايات.. فماذا يبقىٰ من الروايات حول الصِّديقة الكبرى عليها السلام، بل حول المفاهيم الإسلامية المختلفة؟.

وتكون النتيجة أن النظرة إلى المعصوم تصبح هذه النظرة السائدة في كثير من الأوساط التي هي في أحسن حالاتها أن المعصوم عالم جليل بامتياز، أما الأبعاد الغيبية في شخصية المعصوم، أما أن المعصوم يمكنه أن يصل إلى تلك الذرى التي لا نستطيع أن ندرك أدنى درجاتها، أما أن المعصومين: المصطفى الحبيب وآله الأطهار هم أفضل الخلق على الإطلاق فإن هذا مجال النقاش الكبير عند الكثيرين.

الأمر الأخير: مسألة توهم الغلو: ينبغي الوقوف عندها بعض الشيء.. متى يمكن أن يقال لإنسان أنك مغالٍ في تقييمك لهذا الإنسان سواءً كان معصوماً أم لم يكن؟

مثلاً: شخصٌ لا يعرف الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه ويسمع شخصاً آخر يقول: قائدٌ فذٌ لم نعرف في تاريخ علمائنا مثله على الإطلاق، فيقول له أنت تغالي!

تمهل! لا يمكنك الحكم بأن هذا الكلام غلو أو ليس غلواً إلاّ إذا عرفت الشخص الذي نتحدث عنه. بل إن مجرد المعرفة لا يكفي.. لا بدَّ من معرفة حقيقية.. أو فقل معرفته حق المعرفة.. بعدها يمكن القول إن هذا الكلام هو غلو أو ليس غلواً ما دمنا نريد أن نتعرف على الزهراء عليها السلام لم نعرفها بعد، فكيف نقول مسبقاً إنَّ هذا غلو وذاك ليس غلواً، لا بد من «تنقيح المناط» و«تحرير محل النزاع» أولاً كما يقال.

لا بد من تحديد الثوابت أولاً ليمكننا أن نقول إن هذه الرواية لا تنسجم مع الثوابت ولذلك فهي غلوّ، ولا بد كذلك من تحديد معنى الغلو في ضوء الثوابت أما أن نقول إنَّ هذا الأمر غلو دون إنجاز هاتين المهمتين فهذا ما سميته توهم الغلو وليس غلواً. إذا لاحظنا هذه الأخطاء المنهجية انتقل بعدها إلى الوقوف حول حديث طالما سمعناه ورددناه حيث أنه ثبت أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أطلق على الصِّديقة الكبرى كنية «أم أبيها» «فاطمة أم أبيها» هذه الحقيقة المحمدية، تسمية الصديقة الكبرى «أم أبيها» هي من حيث اللفظ واضحة.. «فاطمة أم أبيها» لكن أسأل نفسي وأسألك هل عرفنا معنىٰ هذا الكلام؟ هذه التكنية هل عرفنا معناها؟.. هل وعيناها؟.. هل عرفنا أبعادها؟.. هل تأملنا في خصوصياتها؟.. آمل أن يتضح لنا أن الأمور التي نتصور أنها واضحة هي بالتأكيد بحاجة إلى المزيد من التعمق.

ما هو المعنى الذي سمعته أنت أو سمعته أنا من أكثر المتحدثين ولا أقول منهم جميعاً، ما هو المعنى الذي وعيناه حول كنية فاطمة عليها السلام بأم أبيها؟.. المعنى الذي اختزنه وعينا ويتحدث به الأكثرون أن مولاتنا خديجة رضوان الله تعالىٰ عليها توفيت فبقي رسول الله صلى الله عليه وآله وليس معه من يخفف عنه أعباءه ويشاطره أحزانه وآلامه فكان بحاجة إلى عطف وحنان،

لاحظوا.. بحاجة إلى عطف وحنان.. إنه كلام لا ينطبق على شخصية المعصوم وعظمته واستغراقه في الله تعالى.. هو يمنح الدنيا عطفاً وحناناً ويصبح بحاجة إلى عطف وحنان!.. ماالفرق بينه وبين أي إنسان عادي مهيض الجناح مكسور الخاطر يأوي إلى بيته متعباً بحاجة إلى من يخفف آلامه... الزهراء عليها السلام كانت تخفف عنه آلامه.

قلت في حديثٍ سابق ما هي الميزة في هذه التكنية للزهراء عليها السلام ؟ إن

أي إنسان في الدنيا (غلام عباس أو مَشْتي أحمد أو الحاج مصطفى أو الزائر أبو رمضان) أو أي شخصٍ عنده بنتٌ وتتوفى زوجته تكون هذه البنت عادةً بمثابة أم أبيها بهذا اللحاظ، إذاً هذه الكنية التي سنكتشف أنها كنية عظيمة جداً، أفرغناها من محتواها وجعلناها مسألة عادية جداً لا قيمة لها.

حسناً. . إذا أردنا أن نستوضح بعض خصوصياتها فلنتدرج من الأقل إلى الأكثر، من الأدنى إلى الأعلى.

دعونا نتأمل هذه الكلمات «فاطمة أم أبيها» بحسب المعطيات الظاهرية، دون أن نغوص في الأعماق، في البداية لفظ «أُم» هنا مطلق. . لم يُقيَّد بقيد. . لم يقل رسول الله ﷺ فاطمة أم أبيها في الحنان والعطف أو غير ذلك من القيود التي تجعل المعنى خاصاً. .

وأبوها الذي هي أمه. . من هو؟ إنه سيد الرسل خير خلق الله تعالى. . وهي بناءً لهذه التكنية أمه!.

ثم من هو المتحدث الذي صدرت منه هذه الكنية. . وهذا لحاظ آخر. . وإن بدا لأول وهلة أنه نفس ما سبقه (من هو أبوها) فقد يطلق هذه الكنية على الصِّديقة الكبرى غير المصطفى الحبيب ﷺ فلا تكون دلالاتها بنفس المستوى لأن أي كلام يستمد أهميته من مضمونه وممن صدر هذا الكلام عنه.

المتحدث هو من قال الله تعالى فيه: **﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى﴾**. فكلامه ﷺ كالقرآن. .

ومن كان كذلك فحديث العطف والحنان لمجرد العطف والحنان بعيدٌ عن ساحته لأنه حديثٌ هوى وحب شخصي. . أما العطف والحنان في مورديهما فهو أحق الخلقَ وأولاهم به **﴿رحمة للعالمين﴾**، وما يؤدي إلى تعظيم شخص ما في نظر المسلمين جميعاً. . لا يمكن أن يكون منطلقاً عن ميلِ نفس وهوى وحب شخصيين لمجرد أن هذا الشخص عطوف أو حنون.

وعندما نميل بجموح إلى تفسير «أم أبيها» بمجرد العطف والحنان. . فنحن نتحدث عن حب شخصي. . هوى. . إنه حديث عاطفة أبوية في مقابل عاطفة منحته ابنته إياها حين كان بأمسّ الحاجة إليها. .

وهكذا نبعد الحديث عن آفاق قدسية الصِّديقة الكبرى عليها صلوات الرحمٰن في حين أنَّ حديث المصطفى ﷺ عن «أم أبيها». . لا يمكن إلاَّ أن يكون من منطلق آخر هو منطلق ﴿**وحي يوحى**﴾ وليس منطلق الهوى. . والعياذ بالله تعالى. .

إذا لاحظنا هذه الخصوصيات:

١ ـ أن لفظة «أم» ليست مقيدة بأي قيد.

٢ ـ من هو الأب الذي هي أمه.

٣ ـ المتحدث هو من كلامه الشريف كالقرآن المجيد.

إذا لاحظنا ذلك فالمعنى الأول أن فاطمة عليها السلام أم خير خلق الله تعالى في جميع المجالات مطلقاً دون أي قيد إلا ما خرج بالدليل العقلي «اللبي» أو النقلي.

حسناً. . المعنى الثاني الذي يتولد من هذا المعنى ويتضح في ضوئه هو التالي: كما أن فعل الولد وتركه يجب أن يدورا مدار رضا أمه وغضبها. . . وذلك حقها الأبرز عليه. . فإن فعل المصطفى الحبيب وتركه ﷺ يدوران مدار رضا الصديقة الكبرى وغضبها. . .

ومهلاً. . لا تعجل بالرد وإن استغربت. . وبادر إلى رفع الاستغراب فوراً بتذكر حديث آخر لمن لا ينطق عن الهوى حيث يقول: «**إن الله ليرضى لرضا فاطمة ويغضب لغضبها**». .

فأيهما أشد استغراباً. . إن كان بقي من الاستغراب عين أو أثر. .

معنى ذلك: أن حديثي «**فاطمة أم أبيها**». . و«**إن الله ليرضى لرضا فاطمة**» من مشكاة واحدة. . ومؤداهما بلحاظ هذا المعنى ـ الثاني ـ واحد. .

ولا ينافي ذلك على الإطلاق أنه ﷺ أفضل منها ومن جميع النبيين والأئمة عليهم صلوات الرحمن.

كما لا ينافي وجوب طاعتها له. . لأن الله تعالى ليرضى لرضاه ﷺ ويغضب لغضبه. . ﴿**ومن يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾.

ولدى التأمل في أبعاد هذا المعنى ـ الثاني ـ لمصطلح أم أبيها. سنكتشف أننا على ساحل بحر نبوي متلاطم.. والعبرة التي يجب أن نخرج بها من ذلك وأمثاله.. أن لا نتعاطى مع كلام المصطفى الحبيب ﷺ ـ والمعصومين عموماً ـ كما نتعاطى مع كلام الآخرين باعتباره مبنياً على المحسِّنات البديعية كما نفهمها مبالغة وجموحاً إلى الخطابة والإنشاء.. وصولاً ـ والعياذ بالله تعالى ـ إلى القاعدة المنطلق في الشعر.. أعذبه أكذبه.

إن كلام المعصوم.. معصوم.. وما وراء عبادان قرية..

وإلى من يتصور أن في مثل هذا التفسير غلواً أقول.. إن ثمة روايات واضحة الدلالة قد يتصور أنها أكثر (غلواً) آمل أن يوفق الله تعالى لتناول بعضها في الأحاديث الآتية.

تذكّر أيها الحبيب ما قلته لك سابقاً: قبل أن نحكم بالغلو أو بعدمه.. فإن من واجبنا معرفة المعصومين أولاً.. وبعدها نكون قد امتلكنا مقياساً يمكننا على أساسه الحكم على هذا القول أو ذاك بأنه غلو أو ليس كذلك.. أما قبل امتلاك المقياس ـ حق المعرفة ـ فإن الدليل لا يسمح لنا إلا أن نقول: إن في هذا الكلام احتمال الغلو.. والجزم حيث لا يسمح الدليل إلا بالاحتمال.. ينافي المنهجية والأمانة العلمية..

المعنى الثالث: الذي ينبغي أن ننتبه إليه ـ وقلت إني أتدرج في ذكر المعاني ـ كما يلي:

دعنا نقف لنقارن بين كنيتين: كنية أم المؤمنين، وكنية أم أبيها، أيهما أعظم؟مصطلح أم المؤمنين الثرى، وأم أبيها الثريا.. وأين«أم المؤمنين» من «أم أبيها»... وأين الثريا من الثرى وأين معاوية من علي.

أم المؤمنين كنية عظيمة... و﴿**أزواجه أمهاتهم**﴾، إلا أن هذه الكنية بنص القرآن الكريم لا تنطبق على أحد إلاً بشرط المحافظة على مقتضيات هذه الكنية... اللواتي حافظن منهن فكنيتهن عظيمة، أما اللواتي لم يحافظن عليها فلا يصح إطلاقها عليهن..، وأما الشرط فهو ﴿**إن اتقيتن**﴾ و﴿**إن تظاهرا عليه فإن الله**

هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ [التحريم: ٤]، ثم إن هذه الكنية العظيمة لا قيمة لها أمام كنية أم أبيها.

أين أم رسول الله.. أين أم خير خلق الله من أم المؤمنين؟ وللأسف الشديد أننا عملنا على إفراغ هذه الكنية من قيمتها وأصبحنا نعرضها على أساس أن المراد بها أن الزهراء كانت تهب أباها عطفاً وحناناً وانتهت القصة يعني أصبحت أصغر من كنية أم المؤمنين!!

عندما نفكر بهذه المقارنة تتضح لنا حقائق كثيرة يشار إلى بعضها، وقد تنبَّهَ إلى هذه المقارنة متتبع باحث هو الشيخ الرحماني الهمداني في كتابه القيم والموسوعي «فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى ﷺ» يتحدث في هذا المجال فيشير إلى ما يلي:

يقول: «إنَّ الله عزَّ وجل لما شرف وكرم أزواج النبي ﷺ صِرْن في معرض أن يخطر ببالهنَّ أنهنَّ أفضل النساء ومن أجل أن لا يتصورن ذلك بما يستتبعه من أنهنَّ والعياذ بالله تعالى أفضل من بضعة المصطفى الحبيب فإنه ﷺ قال: «فاطمة أم أبيها» إذا كنتن أمهات المسلمين ففاطمة أم رسول الله». وهذه لفتة مهمة جداً.

ولا بد من التأكيد مجدداً أني لست بصدد التقليل من عظمة مصطلح أم المؤمنين عندما يطلق على من تستحقه.. إلاَّ أني بصدد أن مصطلح «أم أبيها» أعظم منه بكثير بل بما يفوق كل تصور.

فإذا استحضرنا أن تحول الحكم الإسلامي إلى مُلك عَضُوض ـ وهو ما حذَّر منه رسول الله ﷺ كما في الحديث المشهور عن بني العاص ـ قد بدأ ـ هذا التحول المشؤوم ـ وقطع شوطه الأول متستراً بشعار «أم المؤمنين» في حرب الجمل أدركنا بعداً من أبعاد السر الإلَهي في إطلاق هذه التكنية على الصديقة الكبرى عليها السلام.. وأدركنا في الوقت ذاته أية جريمة نرتكب عندما نحصر تفسيرها بالعطف والحنان!

المعنى الرابع: حول «فاطمة أم أبيها» وهو أعمق من المعاني المتقدمة وأشمل.

خلاصة هذا المعنى أن خصائص الولد تكون عادةً في الأم، بل إن جميع خصائص الولد موجودة في الأم وعندما أصل إلى المعنى اللغوي في هذا المجال سوف نجد ما يسلط الضوء على ذلك. فالأم هي الأصل، حسناً. . قد تقول: نحن نعلم أن خصائص الولد في الخال، فإن الخال أحد الضجيعين، وعليه فالخؤولة هي المحور. . لا الأمومة. .

والجواب: لم يذكر الخال في الرواية ـ والله تعالى العالم ـ لأن خصائص الولد موجودة في الخال أكثر مما هي موجودة في الأم وإنما ذكر لأن التواصل مع الخال والتعرف عليه أيسر من التواصل مع أخته المنوي الزواج منهاوأسهل، فمن أراد أن يتزوج فتاةً سوف لن يستطيع أن يتواصل معها كثيراً ليطلع على خصوصياتها. . نعم يمكنه أن يتواصل مع أخيها، وخصوصياتُه موجودة فيها. تريد أن تعرف خصائصها. . لتختار خصائص ولدك فاعرفها من خلال أخيها الذي سيصبح خال ولدك. . فهو أحد الضجيعين أي أن خصوصياته موجودة في الزوجة. . وعلى أي حال فلا شك في أن خصائص الولد موجودة في الأم.

وبناءً على هذا يكون المعنى إن جميع خصائص المصطفى الحبيب ﷺ موجودة في الصِّديقة الكبرى عليها صلوات الرحمٰن، بحيث لو أنك تأملت جميع الناس لما وجدت شخصاً يمكنه أن يكون بموقع الأم التي هي الأصل لجميع خصائص رسول الله غير الزهراء عليها السلام.

بعبارة ثانية إذا أردت أن تعرف أشبه الناس برسول الله ﷺ فإنها فاطمة عليها السلام، بل أدق من ذلك: إذا أردت أن تعرف أن الرسول ﷺ هو أشبه بمن من بين جميع الخلق فهو أشبه بفاطمة «فاطمة أم أبيها».

المعنى الخامس: وهذا المعنى ذكره أيضاً الشيخ الرحماني الذي ذكرت أنه تنبه للمعنى الثالث وقد يبدو أنه نفس المعنى الرابع إلاّ أنه يختلف عنه ويضرب بعيداً في عالم الغيب وإن لم يتكلم حول هذه الخصوصية بل ذكر بعض الأمور التي يمكن النقاش فيها، إلاّ أنه أشار إشارةً في ختام كلامه تنسجم مع بداية الكلام. والخلاصة أن سِرَّ رسول الله ﷺ هو الزهراء، أنّ مصدر رسول الله ﷺ نبع رسول الله ﷺ هو الزهراء عليها السلام. كيف؟. . يقول ويمكن أن يراد بهذه

التسمية.. التكنية.. معنى أدق وأعمق وهو أنّ أمّ كل شيء أصله ومجتمعه (أي مكان تجمعه) كما صرَّح به أهل اللّغة كأم القوم، وأم الكتاب، وأم النجوم، وأم الطرق، وأم القرى وهي مكة، وأم الرأس، وأم الدماغ، فعليه يمكن أن يقال إنه ﷺ أراد (من هذه التكنية) أنَّ فاطمة عليها السلام هي أصل شجرة الرسالة، وعنصر النبوة كما قال الباقر عليه السلام الشجرة الطيبة رسول الله ﷺ وفرعها عليٌّ عليه السلام وعنصر الشجرة فاطمة عليها السلام وثمرتها أولادها، وأغصانها وأوراقها، شيعتها.

وتعبير العنصر الأساس فاطمة عليها السلام يدخلنا في عوالم لها أهلها، إلاّ أن الروايات واضحة في هذا المجال وربما يوفق الله تعالى لتناول الحديث القدسي:

«**لولاك ما خلقت الأفلاك**...» ليتضح أنه يوضح هذه الخصوصية وأن هذه الرواية ورواية فاطمة أم أبيها بمعنىً واحد أنها النبع (العنصر) كما في الرواية المتقدمة عن الإمام الباقر عليه السلام، بل يمكن القول أن هذه الرواية «**فاطمة أم أبيها**» أعظم دلالة على عظيم دلالة تلك الرواية.

ثم يضيف الشيخ الرحماني: وكما أنه لولا العنصر ليبست الشجرة وذهبت نضرتها، فكذلك لولا فاطمة عليها السلام لما اخضرّت شجرة الإسلام، فإن الشجرة تسمو وتنمو بتغذيها من أصلها[1].

وهذا المعنى الذي ذكره يحوم حول ما يصرح به بعض العلماء بقوله:

الصِّديقة عليها السلام هي غيب المصطفى ﷺ بمعنى أن لرسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً، علناً وسراً والصِّديقة الكبرى هي باطن المصطفى الحبيب وسرُّه، وبما أنَّ باطن كل شخص وسرَّه هو أصله الذي تصدر أفعاله بالتناسب معه، ومقصده الذي يكشف عن مصب تصرفاته، ومرجعه الذي ترجع أعماله في الحقيقة إليه، وجماعته التي ينشدُّ إليها ويألفها، ويقينه الذي يوقن به حقيقة فإن باطنه.. أمه.. وهي عليها السلام تجسيد للخصائص التي تشكل باطن المصطفى الحبيب وغيبه وسره، فهي أمه ﷺ كما سيأتي في تفسير الأم والله تعالى العالم.

---

(١) الرحماني، فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى، ص٢٠٤ ـ ٢٠٥.

وبما أن هذا المعنى يدخلنا في العمق. . فإني أكتفي بإشارة إلى الروايات التي تتحدث عن أنَّ الصِّديقة الكبرى عليها السلام هي ليلة القدر[1]. . الأمر الذي يبدو للوهلة الأولى مستغرباً بل مرفوضاً بشدة. . إلا أن تتبع كلمات العلماء الأعلام والفلاسفة الكبار، ومنهم الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه يكشف شيئاً آخر مناقضاً تماماً لانطباعنا الأولي. . أكتفي بهذه الإشارة ليمكن لمن أراد، متابعةُ البحث في هذا المجال.

هذه خمسة أوجه في تفسير هذه الكنية «أم أبيها» ومن المناسب الوقوف قليلاً مع آراء اللغويين في جولة سريعة على مصادر اللغة فهناك عبارات تنفعنا في هذا المجال، وسيتضح في ضوئها «المعنى السادس» لهذا الحديث الشريف.

في بعض المصادر[2] أم الشيء: أصله. والأم: الوالدة أي معنى الوالدة،ومعنى الأم هو الأصل، إنها في موقع الأصل بالنسبة إلى الفرع، وإنما تسمى الوالدة أيضاً لأنها أصل. . إذاً «فاطمة أم أبيها» يعني هي في موقع الأصل بالنسبة إلى الفرع.

أيضاً في مصدرٍ آخر يقول: أم: أصل واحد يتفرع منه أربعة أبواب. الأصل، المرجع، الجماعة، الدين، أم: تدل على هذه المعاني الأربعة وقال الخليل اللغوي المعروف: كل شيءٍ يضم إليه ما سواه مما يليه فإن العرب تسمي ذلك الشيء أماً.

أي أن المحور الذي يلتف حوله غيره يسمى «أم».

يقول: ومن ذلك أم الرأس وهو الدماغ عندما يقال ضربه على أم رأسه نحن ماذا نتصور؟ يعني على أعلى منطقة في رأسه، كلا! أم الرأس يعني الدماغ باعتبار أن المحور في الرأس بل في الإنسان هو الدماغ والباقي لحفظ هذا الدماغ والالتزام بأوامره إبلاغاً وتنفيذاً. . إنه المحور الذي يدور الإنسان مداره. .

---

(١) البحار ٤٣/ ٦٥. وممن تحدث عن ذلك من كبار العلماء، المرجع الديني الجليل، الشيخ الوحيد الخراساني في مقتطفات ولائية/ ٩٤.

(٢) أورد هذه الآراء نقلاً عن المصادر اللغوية الأم، المحقق السيد المصطفوي في «التحقيق في كلمات القرآن الكريم».

وفي مصدر آخر: ويقال لكل ما كان أصلاً لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه، يقال له «أم» يضيف: وإنه في أم الكتاب ما المراد بأم الكتاب؟ إنه: اللوح المحفوظ لأن كل العلوم تتولد منه إذاً هو الأصل.

وقد تسأل: ما معنى **﴿فأمُّه هاوية﴾**؟ أنتم تقولون الأم يعني الأصل، ولكن أمه هاوية يعني مأواه جهنم يعني هذه «الأم» لم يرد استعمال لفظها ليدل على الأصل، وإنما ليدل على النهاية.. والجواب: الآخرة جزاء الدنيا، من كانت أمه في الدنيا هي جهنم فالتي تحتضنه في الآخرة جهنم.

يقول الشهيد مطهري رضوان الله تعالى عليه:

سمعت بالمقدس الشاه آبادي (الذي هو أستاذ الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه) وأنه في منطقة شاه عبد العظيم في طهران فأحببت أن أذهب لأتعرف عليه، وأحضر درسه، يقول: ذهبت فوجدته يفسر هذه الآية «فأمه هاوية» وسمعته يقول: إن الذي يدخل جهنم في يوم القيامة يكتشف ويكتشف الآخرون أنه عندما كان في الدنيا كان ابناً لهذه الأم فهي سره وباطنه أي أصله.. بمعنى أن الأعمال الجهنمية هي حقيقته.. لذلك كانت جهنم أمه.. وكما كانت تحضنه في الدنيا فقد احتضنته في الآخرة.. نستجير بالله تعالى..

إذاً الأم بمعنى الأصل.. وهذه المعاني اللغوية كلها يمكن تطبيقها على هذا الحديث الشريف «فاطمة أم أبيها» كما اتضح.

المعنى السادس: يستنتج بوضوح من كلام للمحقق الجليل السيد المصطفوي في كتابه الفريد «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» حيث يقول:

«والذي يقوى في النفس أن الأصل الواحد في هذه المادة «أم» هو القصد المخصوص أي القصد مع التوجه ثم يقول في معنى كلمة الأم: «الأم ما يكون مورداً للقصد والتوجه، فإن الأم يتوجه إليها توجهاً خاصاً...».

وبناء على هذا يصبح معنى فاطمة أم أبيها.. فاطمة قِبلة أبيها، فاطمة كعبة أبيها، فاطمة مقصد أبيها الذي يتوجه إليه ويهتم به ويعنى به عنايةً خاصة واهتماماً خاصاً كما ينبغي أن يكون الاهتمام بالقِبلة والكعبة.

أيها الحبيب. . إنها ثلاث كلمات «فاطمة أم أبيها» وقد رأينا تعدد المعاني التي يمكن أن تحملها. . وغزارتها وعمقها عندما تعاملنا معها بشيء من التعمق الذي يجب أن لا نخرج عنه في محاولة فهم النص المعصوم، نص القرآن الكريم، والثابت من الأحاديث القدسية وسائر نصوص المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين. . كما رأينا بأم عين القلب. . كيف أن التعاطي الأفقي السطحي مع هذه الكلمات أفرغها من معانيها. . وحصر معناها بيننا بما لا فضل فيه ولا منقبة. . بل يمكنه أن يمس من قدسيتها وقدسية المصطفى حيث يصورهما كسائر البشر. . ويجرد شخصيتهما من الركون إلى الله تعالى والانقطاع إليه والاستغناء به. . مما يجعلهما أكبر من الدنيا والآخرة.

بل إننا نسيء إلى المصطفى الحبيب ﷺ وإلى الصِّديقة الكبرى عليها السلام عندما نفسر هذا الحديث الشريف بأنها كانت كأية ابنة تتوفى أمها فتهتم بأبيها وتمنحه العطف والحنان اللذين هو بأمسّ الحاجة إليهما!.

وفي الختام. .

السؤال المركزي هو:

كيف تعاملت الأمة مع الزهراء عليها السلام؟!!

هذه الزهراء العظيمة الصِّديقة الكبرى التي على معرفتها دارت القرون الأولى وأم أبيها كيف تعاملت معها الأمة؟!!

أذكر لكم حديثاً منا سمعنا مضمونه كثيراً لكن الملفت أنَّ هذا المضمون ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام وأن هذه الرواية وردت في كتاب «كامل الزيارات» للعالم الجليل ابن قولويه وهو من الكتب المعتبرة عند علمائنا.

ما هي الرواية؟:

عن الإمام الصادق عليه السلام لما أسري بالنبي ﷺ إلى السماء قيل له: إن الله تبارك وتعالى يختبرك. . إلى أن يقول: **وأما ابنتك فتظلم وتحرم ويؤخذ حقها ـ الذي تجعله لها ـ غصباً، وتضرب وهي حامل** (لا تنسَ أن المتحدث هو الإمام

الصادق عليه السلام والرواية وردت في كتاب «كامل الزيارات» الباب/١٠٨) **وتضرب وهي حامل ويدخل عليها وعلى حريمها بغير إذنٍ ويمسها هوانٌ، ثم لا تجد مانعاً وتطرح ما في بطنها من الضرب وتموت من ذلك الضرب، قال (المصطفى)** صلى الله عليه وآله **قلت: ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾** قبلت يا ربِّ وسلمت ومنك التوفيق والصبر.

أيها الحبيب.. بلىٰ فاطمة أم أبيها وكنية أم أبيهاأعظم بكثير من كنية أم المؤمنين.. كنية أم المؤمنين مشروطة بـ«**إن اتقيتن**» لكن أم أبيها ليست مشروطة بشيء.

يا لله ويا للعجب! كنية أم المؤمنين ينفخ فيها هذا النفخ وتصبح رقماً صعباً على مستوى العالم الإسلامي وكنية «أم أبيها» تصبح دلالالتها.. هذه الدلالة العادية.

يا لله وللعجب، شعار أم المؤمنين تجيَّش به الجيوش لحرب علي عليه السلام في عصره وفي كل عصر وأم أبيها يهجم على دارها بهدف إحراق الباب والدار!!

هذا الباب الذي طالما وقف عليه رسول الله صلى الله عليه وآله طيلة ستة أشهر وفي بعض الروايات تسعة أشهر يقف ويقرأ قوله تعالى: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾**.

هذا الباب الذي هو باب المصطفى الحبيب وحجاب الله تعالى: «**باب فاطمة بابي وحجابها حجابي**».

هذا الباب الذي عندما كان يقف به أمير المؤمنين عليه السلام بعد شهادة الزهراء وقبلها، لا بدَّ وأنه كان يطيل البكاء والنشيج.. هذا الباب الذي ما وقف به معصومٌ من أولاد الزهراء عليها السلام أو تذكره إلاّ وكان له معه حديثٌ ذو شجون، هذا الباب الذي نتمنى أن نعرف كيف وقفت به مولاتنا زينب عليها السلام بعد رجوعها من هنا من الشام وماذا تحدثت مع أمها هل قارنت بين ما جرى بذلك البابٰ وما جرى في كربلاء بلى:

لولا احتراق الباب ما احترقت لهم   في الغاضرية أسترٌ وخدورُ

هذا الباب الذي هو باب الله عزَّ وجل:

أتضرم النار بباب دارها ... وآية النور على منارها
وبابها باب نبي الرحمة ... وباب أبواب نجاة الأمة
بل بابها باب العلي الأعلى ... فثم وجه الله قد تجلى
ما اكتسبوا بالنار غير العار ... ومن ورائه عذاب النار
وللسياط رنةٌ صداها ... في مسمع الدهر فما أشجاها[1]

عظم الله أجوركم.. والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) من قصيدة آية الله الشيخ محمد حسين الأصفهاني، أستاذ السيد الطباطبائي عليهما الرحمة والرضوان في ديوانه الفريد «الأنوار القدسية».

(٧)

في منهج البحث عن عظمتها عليها السلام ـ ا

* تمهيد.
* عمق الفجيعة.. وبحار الأسى...
* الأئمة عليهم السلام... وذكرى الشهادة...
* محظوران.. المس بقدسية الصديقة الكبرى عليها السلام.. والمس بالوحدة الإسلامية..
* وجوب اعتماد المنهج العلمي.. واجتناب الابتذال.
* أساس المنهج العلمي.. بلورة المنطلقات.

أ ـ أصالة الغيب أم الشهادة.

ب ـ حقيقة العقل الحجة.. ومهمته؟

ج ـ أصالة الله تعالى أم أصالة الإنسان.

د ـ مقام المعصوم ومكانته..

هـ ـ موقع الصِّديقة عليها السلام.. في منظومة المعصومين عليهم السلام.

* ناقة صالح ناقة الله.. وباب فاطمة ليس باب الله؟..
* البعد الغيبي في شخصية المعصوم.. والولي عموماً..
* ختام...

(٧)

الجمعة ١٢ ج[١] ١٤١٩هـ

يتركز حديثُ هذه الليلة بحوله تعالى حول الصِّديقة الشهيدة سيدة نساء العالمين عليها صلوات الرحمٰن باعتبار أن يوم الغد هو الثالث عشر من جمادى الأولى، ذكرى شهادتها عليها السلام بناءً على بعض الروايات.

لا يمكن لقلب الموالي في مثل هذه الأجواء إلاّ أن يحاول النظر بعين القلب إلى المدينة المنورة.. كيف كانت المدينة وهي تودع الصِّديقة الكبرى عليها السلام.

إذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء.. فكيف عند فقد المعصوم، وكيف إذا كان المعصوم الصِّديقة الكبرى عليها السلام، عمق الفجيعة أبعد بكثير من أن يتمكن القلب الوصول إلى سفحه فضلاً عن الذرى، وإلى ساحله فضلاً عن بعيد الأغوار منه، تتلاطم في عمق الفجيعة بالصِّديقة الكبرى عليها السلام بحارٌ من الأسى.

الأول: مجرد الرحيل، بمعنى أن مجرد رحيل الصِّديقة الكبرى عليها السلام عن الدنيا مثارٌ لحزنٍ لا ينتهي حتى إذا كان هذا الرحيل في وضعٍ اعتيادي دون الظلامة ودون سائر الأمور التي رافقت شهادتها عليها السلام كما سيأتي. مجرد رحيل الصِّديقة الكبرى عليها السلام بحرٌ من الأسى لا يمكن أن ندركه.

الثاني: بحر ظلامة الصِّديقة الكبرى عليها السلام... فاطمة قرَّة عين الرسول صلى الله عليه وآله تدفن ليلاً وترتكب بحقها تلك الجرائم الخطيرة: سقط الجنين، إحراق الباب، منعها حقها الطبيعي والشرعي فدك، الضرب، إلى سائر الظلامات، بحر من الأسى هو الظلامة للصِّديقة الكبرى عليها السلام.

الثالث: البحر الآخر الذي تتلاطم أمواجه لتشترك في تصوير الفجيعة، هو غربة علي عليه السلام عند فقد الصِّديقة الكبرى عليها السلام... نجد في الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام أنها عليها صلوات الرحمٰن لما حضرتها الوفاة بكت، فقال

لها علي عليه السلام: ما يبكيك يا سيدتي فقالت: أبكي لما تلقى من بعدي، فقال علي عليه السلام: لا تبكي فإنَّ ذلك لصغير عندي في ذات الله[1].

غربة علي عليه السلام في مثل هذه الأجواء هي أيضاً بحرٌ من الأسى، تظلُّ أمواجه تتلاطم حتى بعد يوم البعث.

والبحر الرابع الذي تتلاطم أمواجه أيضاً لتسهم في تصوير عمق الفجيعة بالصِّديقة الكبرى عليها السلام غلبة الانقلاب على الأعقاب، وتسلط الانقلابيين على الأعقاب، **﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾**، أعلنت الصِّديقة الكبرى عليها السلام الحرب واستنفرت الأمة لتحارب المنقلبين على الأعقاب، وخطبتها عليها السلام كما ذكرت في السنة الماضية في بعض الأحاديث خطبة إعلان الحرب، تريد من الأنصار أن يحملوا السيوف ليحاربوا، تريد من الأمة أن تنزل إلى ساحة المعركة[2].

كانت الصِّديقة الكبرى عليها السلام القائد الذي كان يجب أن يتحرك في ذلك الظرف، كان عليٌّ عليه السلام مأموراً بما يجب عليه من الله والمصطفى الحبيب وكذلك كانت الصِّديقة الكبرى عليها السلام، ولذلك أعلنت الحرب على الانقلاب على الأعقاب.

وبفقدَ االصِّديقة الكبرى عليها السلام يبقى علي عليه السلام غريباً في مواجهة هذا الانقلاب الأخطر.

حذار يا قلب أن تثق بأنك ممن يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم، حذار أن يكون التظاهر بالحزن أكبر من الواقع، وحذار يا قلب أن تغترَّ ببعض مظاهر الأسى والحزن فتتصور أنك أديت ما عليك، مجرد استحضار عنصرٍ من هذه العناصر التي ذكرت كفيلٌ بأن لا يقرَّ للموالي الصادقِ قرار، اللهمَّ اجعلنا من القليل، الذين وفوا بواجب المودّة في القربى.

---

(١) القمي، بيت الأحزان، ص١٤٩.

(٢) انظر: الخطبة وخصوصاً فقرة «إيهاً بني قيلة» إلى استشهادها عليها السلام بالآية المباركة **﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم..﴾**.

لعمق الفجيعة فإن المصطفى ﷺ طالما بكى لفقد الزهراء وما يجري عليها ولما يجري على أمير المؤمنين عليهما السلام كانت ظلامة الزهراء عليها السلام تلك الغصة في قلب المصطفى الحبيب، بالإضافة إلى ظلامات أهل البيت عليهم السلام يبكي رسول الله ﷺ فيسأله المرتضى عن سبب بكائه، فيجيبه ﷺ: «**أبكي من ضربتك على القرن، ولطم فاطم خدها، وطعن الحسن في فخذه والسم الذي يسقاه وقتل الحسين**»[1]. ما ظنك بأمير المؤمنين عليه السلام وهو يرى هذه الظلامات أمامه؟

نحن بعد حوالي أربعة عشر قرناً نسمع ببعض ما جرى فلا يمكننا أن نطيق وما نحن وما حجم تفاعلنا مع الحقائق بالنسبة إلى المعصوم. كل ذنبٍ نرتكبه يجعلنا أقل تفاعلاً مع أحزان أهل البيت ومع الحقائق عموماً، تلك الغصة التي كان يشعر بها أمير المؤمنين عليه السلام... ذات يوم وهو في المسجد جاء من يقول أن الثاني غرّم جميع عماله، فرض عليهم الضرائب إلا قنفذاً، أبلغ ذلك لقوم يجلسون بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام، فسأله أحدالحضورعن السبب، فاغرورقت عينا أبي الحسن عليه السلام بالدموع ونظر يميناً وشمالاً ثم قال: «**شكر له ضربه لفاطمة**»[2]، كان عليه أن يكتم الفجيعة التي يعيش... كان مأموراً بالصبر والصبر يقتضي درجات من الكتمان، هذه الفجيعة التي لا نجد معصوماً من المعصومين الأربعة عشر حتى الصِّديقة إلا وأطال الوقوف عندها. نجد مثلاً أن الإمام الباقر عليه السلام ينادي بأعلى صوته بحيث يسمعه من في «الباب»: يا فاطمة أو فاطمة كأنه يتذكر هذه الفجيعة فلا يستطيع أن يعبر عما يجول في خاطره فيكتفي بلوعة النداء، يتحدث المقدس الشيخ عباس القمي عن ذلك بما حاصله: أن الإمام الباقر عليه السلام كان إن أصابته حمى أو ما شابه ينادي يا فاطمة، ويرى البعض في تفسير ذلك كأنه يستغيث كأنه عليه السلام يستشفي بذكر فاطمة إلا أن الذي يعرف الأم الثكلى يعرف لماذا يذكر الإمام الباقر عليه السلام اسم الصِّديقة عليها السلام لأن في داخله بحارَ أسىً تتلاطم ويريد التنفيس عن لوعته فينادي باسمها[3]،

---

(١) ابن شهراشوب، المناقب ٢/ ٥١؛ وذوب النضار، لابن الحلي، ص١١؛ والبحار ٢٧/ ٢٠٩.

(٢) كتاب سُليم بن قيس، تحقيق الأنصاري، ص٢٢٤؛ وعنه البحار ٣٠/ ٣٠٣.

(٣) نفس المصدر، ص١٠٠.

والإمام الصادق عليه السلام يدخل عليه أحد أصحابه ويخبره بأن امرأةً في الكوفة تعرضت للأذى والضرب، لماذا! لأنها قالت: لعن الله ظالميك يا فاطمة، فبكى الإمام الصادق عليه السلام بكاءً مريراً وجرت دموعه على لحيته الطاهرة ثم قال للراوي «الناقل» قم إلى المسجد لندعو لهذه المرأة[١].

وذات مرة يدخل عليه أحد أصحابه وقد رزق بمولودة... فيقول له الإمام عليه السلام: ما سميتها؟ قال: فاطمة.. قال... آه... آه.. ثم وضع يده على جبهته إلى أن قال: أما إذا سميتها فاطمة فلا تسبها ولا تلعنها ولا تضربها[٢].

الإمام الرضا عليه السلام ينظر إلى الإمام الجواد وهو في الرابعة من عمره (ذكرت في الحديث السابق وقبله كيف أن بالإمكان أن يكون (الطفل) في مرتبة عالية بقدرة الله عزّ وجل، يكفي أن النبي عيسى عليه السلام وهو في المهد قال: ﴿**إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً**﴾ يرى الإمام الرضا عليه السلام الإمام الجواد عليه السلام في الرابعة من عمره متكئاً يطيل النظر: ما بك يا بني؟ قال:

أفكر بما صنع بأمي فاطمة[٣] أو هل يستطيع موالٍ أن ينسى ما جرى على الصِّديقة الكبرى فكيف بأهل البيت عليهم السلام.

والإمام المنتظر «عجل الله تعالى فرجه الشريف» الذي يتحدث عن جدارة البكاء، بدل الدموع دماً لسبي مولاتنا زينب عليها السلام كما بلغنا، كيف يتعامل مع فجيعة القرآن والإسلام بظلامة الزهراء التي شكلت البداية لكل ظلامات أهل البيت من بعدها.

ليس شعاراً ولا مجرد شعر أن نقول:

لولا انكسار الضلع ما انكسرت لهم   في الغاضرية أربعٌ وصدور
لولا احتراق الباب ما احترقت لهم   في الغاضرية أستر وخدور

كانت تلك الظلامة الأصل لكل الظلامات والمنطلق.

---

(١) نفس المصدر، ص١٠١ ـ ١٠٢.
(٢) وسائل الشيعة ٢١/ ٤٨٢.
(٣) البحار ٥٠/ ٥٨.

إذاً نحن في أجواء فجيعة والقلب هو الذي يجب أن يعيشها.. لا بد وأن يظهر هذا في سلوكنا وفي تصرفاتنا والمتسع أمامنا كبير فحتى العشرين من جمادى الثاني نحن في أيامٍ ترتبط ارتباطاً خاصاً بالصِّديقة الكبرى عليها السلام وما جرى عليها.

هناك محظوران متصوران عادةً في هذا المجال، أي حديث عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام ينبغي أن يُدخلهما في حسابه، أوافق عليهما، ولكني أختلف مع البعض في طريقة تفادي المحظور الثاني، المحظور الأول الذي يجب أن يبنى عليه الحديث عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام هو الحذر من أي مسٍّ بقدسيتها عليها السلام.

لا يجوز على الإطلاق لأي حديث عنها عليها السلام أن يقلل من شأنها، أن يقلل من قدسيتها.. لا يجوز أن تُمس سلباً شخصيتها عليها السلام سواءً بالتقليل من القدسية أوالمكانة أو بالتقليل من ظلامتها.

أية محاولة للتقليل من ظلامة الصِّديقة الكبرى عليها السلام هي أمرٌ خطير يجسد المس بقدسية الصِّديقة الكبرى عليها السلام. حذار من الوعي المدعى الذي يقول لماذا نرجع إلى التاريخ فنبحث في أمورٍ حصلت من قبيل إحراق باب الدار، أو سقط الجنين أو ما شابه، مجرد أن نطرح هذه المقولة «لماذا نرجع إلى التاريخ» فإن هذا يشكل مساً بقدسية الصِّديقة عندما تكون هي عليها السلام محورالحديث. هذا (الوعي) يريد أن يقول لنا: ينبغي أن نفكر بحاضرنا، بواقعنا، فلماذا نرجع إلى التاريخ؟ ليكن واضحاً أن البحث في ظلامة الصِّديقة عليها السلام، لا يمكن له إلا أن يكون بحثاً في غاية الأهمية والقداسة، فهو إما أن يكون بحثا عقائديا، وإما أن يلامس البحث العقائدي.

هذا هو المحظور الأول وستأتي بعض الإيضاحات إن شاء الله تعالى.

المحظور الثاني الذي يطرح وأختلف مع البعض في طريقة تفاديه هو أن لا يمس الحديث عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام وحدة المسلمين أوافق عليه من حيث المبدأ، ذلك أن وحدة المسلمين دين وليست شعاراً سياسياً شكلياً، نحن ندين الله عزّ وجل، نعتقد بيننا وبينه سبحانه وتعالى بوجوب حفظ وحدة المسلمين إلا أنّ

الذي يمسُّ بوحدة المسلمين بالدرجة الأولى هو تزييف الحقائق وخصوصاً المرتبط منها بالصِّديقة الكبرى أو بأمير المؤمنين عليه السلام ، كل ما يقلل من شأن الصِّديقة الكبرى عليها السلام يهدد وحدة المسلمين ويَضِر بها. مرفوض كليا ومدان أن يقال: إن الحديث عن ظلم الصِّديقة هو ضرب لوحدة المسلمين. إن المس بقدسية الصِّديقة الكبرى هو الذي يضرب وحدة المسلمين.. المبنية على أسس الاعتصام بحبل الله ورضاه عزَّ وجل والصِّديقة عليها السلام في صلب هذه الحقيقة.. في لبِّ حبل الله والاعتقاد بالله عزَّ وجل وحبه ورضاه سبحانه.. رضاها رضا الله تعالى ولذلك فإن التقليل من شأنها ضرب للعقيدة وما يمس العقيدة بسوء يضعف وحدة المسلمين لأنه يهز الأساس الذي يجب أن تبنى عليه هذه الوحدة.

من جهةٍ أخرى.. ومن منطلق الحرص على وحدة المسلمين ينبغي أن نفرّق بين أمرين:

الأمر الأول: البحث العلمي بهدف الكشف عن الحقيقة.

الأمر الثاني: أن نحمِّل تبعة هذه الأمور للذين يختلفون معنا في الرأي، وهذا أمر آخر لا معنى له ولا مبرر، ولسنا بصدده.. كل مانريده أن نستوضح الحقيقة، دون أن ننطلق من مسبقات وإنما لله وفي سبيل الله، قربة إليه عزّ وجل، اتباعاً للمصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله، حبنا لرسول الله صلى الله عليه وآله يدفعنا أن نعرف حقيقة ما جرى بعده على الصِّديقة الكبرى عليها السلام، نريد أن نكون مسلمين حقاً كما أراد الله تعالى، وكما أراد المصطفى الحبيب، هذا الأمر لا علاقة له بأنَّ البحث هنا يؤدي إلى التعصب الأعمى ضد سائر المسلمين. أبداً فهذا شيءٌ وذاك شيءٌ آخر، نحن لا نحمل التعصب الأعمى ضد إخواننا المسلمين السنة على الإطلاق و نفرق جيدا بين النواصب الذين يبغضون أهل البيت وبين غيرهم ونحكم على النواصب تبعاً لفقهاء المسلمين جميعاً، بأنهم رجس و كفار ولا مجال للتواصل معهم، أما المسلم السني الذي يحب الزهراء عليها السلام، ويحب أمير المؤمنين، والحسنين، يحب أهل البيت عليهم السلام فهو الذي نصرُّ على الوحدة معه، إلا أن الوحدة مع أخيك لا تمنعك من التحقيق في أمرٍ تختلف معه حوله، الوحدة مع شريك لا تمنعك أن تبحث و تحقق في شأن تمتين أواصر هذه الشراكة وتقوية

ركائزها، وأنت مصر على الوحدة والشراكة، نحن نصر على الوحدة الإسلامية ونبذل الدم من أجل تحقيقها. . إخواننا المجاهدون في فلسطين، يقدمون الدم للحفاظ على وحدة المسلمين، كما دفعنا نحن سابقاً في إيران وكما ندفعه الآن في لبنان من خلال المقاومة الإسلامية. . نريد لهذه الأمة أن تكون أُمةً واحدة في مقابل الغطرسة الأمريكية وفي مقابل الغدة السرطانية الصهيونية، نريد أن تبقى كلمة لا إله إلا الله هي العليا وراية الإسلام خفّاقة مرفرفة، ولكن هل نسلك من أجل هذه الوحدة متاهات التعتيم لكي لا تتضح الحقيقة. .

إن نائب الإمام الحجة «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» مفجر الصحوة الإسلامية الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه، هو رائد الوحدة الإسلامية وهو الذي أطلق نداءها ومع ذلك فإنه يتعاطى مع هذه الحقائق الثابتة حول الصِّديقة الكبرى عليها السلام ويصر عليها، نحن لا نريد أن تبنى الوحدة على المجاملات والعواطف والشكليات لأنها من الدين في الصميم، ولذلك ينبغي أن تبنى على الحقائق .

ولماذا نلصق بالإسلام تهمة عدم الانفتاح على الرأي الآخر، وهو يعني أن أتحمل ما تفرضه على الآخر قناعته ويتحمل ما تفرضه عليَّ قناعتي، ثم نسير معاً في طريق البحث عن الحقيقة لعلنا نتفق في النتيجة،أو يتعامل كل منا مع غيره كما هو. . هذان المحظوران ينبغي أن ندخلهما في الحساب على أن لا تخرج النتيجة عن الإطار التالي:

أولاً: وجوب الرد على كل ما يثار من الأمور التي تمس قداسة الصِّديقة الكبرى عليها السلام.

ثانياً: وجوب الردِّ على كل ما يقلل من شأن ظلامة الصِّديقة الكبرى عليها السلام ، وهو وجوبٌ شرعي لا مجال للتساهل فيه على الإطلاق، صونا للحقيقة وحفظا للعقيدة التي لايجوز التفريط فيها. . وهي أساس وحدة المسلمين.

ثالثاً: أن نعتمد في الردود المنهج العلمي: الدليل والبرهان، أما الأساليب الأخرى فإنها تضعف موقع المدافعين وتقوّي مواقع المشككين الذين يطلقون الشبهات، يجب أن نحترم قدسية الصِّديقة الكبرى عليها السلام فلا نتناول أي موضوع

يرتبط بها إلا بالأسلوب العلمي الذي يتناسب مع قدسية محور الحقيقة، وفي هذا الإطار يجب أن يكون واضحاً أن من واجبنا أن نحترم كل الذين يعتمدون الأساليب العلمية في الردود على الشبهات التي أثيرت وتثار ويجب أن ننحني إجلالاً لهم سواءً تحدثوا وبإخلاص عن الولاية التكوينية أو عن الحقائق التاريخية أو عن المنهج الغيبي وعدم تناقضه مع المنهج العقلي، يجب أن نعتبر هذا جهاداً في سبيل الله عزَّ وجل ودفاعاً عن حرمة الإسلام والقرآن، عن حرمة الثقلين القرآن وأهل البيت عليهم السلام، حتى الشخص الواحد الذي نجد له حديثاً علمياً وحديثاً غير علمي ينبغي أن نحترم حديثه العلمي أما حديثه غير العلمي فلا.

المهم أن مِن واجبنا جميعاً أن نرد على الشبهات التي تثار سواءً فيما يمس بالقدسية أو ما يمس بالظلامة فيقلل منها ويجب أن نشد على أيدي الذين يتصدون للردِّ بأسلوب علمي.

وحيث قد ذكرت المنهج العلمي فأسأل ما المراد به؟

طبعاً لا يتسع الحديث هنا لتفصيل واسع في هذه النقاط إلا أني أشير إلى بعض العناوين.

إن أي بحث لا يحدد المنطلقات أولاً لا يكون علمياً. لا بد وأن نتفق على المنطلقات. أذكر لك مثالاً: مؤمن وملحد يريدان أن يتناقشا حول المال، ما هي النظرة إلى المال كيف نقيِّم المال.. لا يمكن أن يتفقا، فالمؤمن يفكر بالآخرة أولاً والدنيا ثانياً، ولا تعمر الدنيا إلا بذلك.. تكليف المؤمن في ضوء قناعاته هو هذا. المؤمن الذي يصدق مع نفسه هكذا يجب أن يكون. العاقل هكذا يجب أن يكون، أما الملحد فهو يفكر بالدنيا أولاً وآخراً ولا يرى غيرها، المؤمن يعتقد أن الذي يتصدق ويدفع من ماله يحوِّل هذا المال عبر (البنك الإلهي) إلى حسابه الخاص في الآخرة، ويعتقدكذلك أن الذي يقاسم الله ماله فيتصدق بنصف المال هو الرابح، أما إذا بقي معه فقد يموت ويحاسب على تقصيره فيه ومنع الآخرين منه، أما إذا قدمه أمامه ـ دون إضرار بأولاده ـ فقد ربح، المؤمن ينطلق من منطلقات تختلف عن منطلقات الملحد فيصل إلى نتائج يعتبرها الملحد جنوناً... ولذلك لا يمكن أن يتفقا على التقويم.

مثال آخر: شخص يقدس الإمام الخميني «رضوان الله تعالى عليه»، وشخص آخر يحترم لينين، لو بقيا مدة سنة يتناقشان أيهما أعظم الإمام الخميني أم لينين، فلا مجال للتفاهم لأن المنطلقات مختلفة.

إذا اتضح ذلك أنتقل إلى أهم المنطلقات التي ترتبط جذرياً بالحديث عن المعصوم وهي كما يلي:

أولاً: الغيب.. فلا بد وأن نتفق على أصل وجوده وعلى خصوصياته الكلية وحدوده.

ثانياً: العقل.. لا بد وأن نتفق على العقل ماالمراد به؟ متى يكون حجة ومتى يختلط بوهم العقل، النكراء.

ثالثاً: الإنسان.. لا بد وأن نتفق على قيمة الإنسان وكرامة الإنسان وحدود هذه الكرامة، أصالة الله أم أصالة الإنسان، لا بد وأن نتفق قبل كل شيء على رؤية موحدة لهذه المنطلقات حتى يمكن الاتفاق على موقع المعصوم ومكانة المعصوم.

أشير هنا إلى بعض الخصوصيات في بعض هذه المجالات، مثلاً بالنسبة للغيب هناك رؤيتان الأولى: أن الغيب هو الأهم وهو الأوسع وهو الأعظم، أن الغيب هو الأصل وعالم الشهادة ظل، كيف؟! إذا كان لديك بيت مثلاً وظل البيت أيّهما أغلى؟ هل هناك عاقل يقول لك: أنا آخذ الظل وأنت خذ البيت، الغيب هو الأصل عالم الشهادة ظل، هذا محور ينبغي أن يبحث أولاً، عالم الغيب روح وعالم الشهادة شكل وجسد... المحرك هو الغيب، هذه رؤية للغيب. الرؤية الثانية للغيب: (وهي الأمثل!) جئنا إلى هذه الدنيا بقدرةٍ غيبية من الله عزّ وجل، يعني كان هناك غيب ثم جئنا إلى هذه الدنيا وسوف نرد إلى الغيب في الآخرة لكن نحن في الدنيا في عالم شهادة وهو وحده الذي ينبغي أن يدخل في الحساب لنكون واقعيين، أي أن الغيب موجود وغير موجود! أيُّ الرؤيتين يجب اعتماده؟

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الإنسان هناك رؤيتان، رؤية تقول:

أولاً: كرّم الله عز وجل الأنسان وسخّر له كل ما في الكون، فالإنسان مطلقاً يعني الإنسان الكافر، و غير الكافر، كل إنسان هو مكرّمِ والتكريم دائم.

ثانياً: يتضح من مطاوي حديثهم عن حدود كرامة الإنسان أنه الأصل في هذا الوجود «أصالة الإنسان»وإن كان أكثرهم يتبرؤون من هذه النتيجة.

ثالثاً: طهارة الإنسان مطلقاً ـ وهي تتفرع على ما تقدم ـ هذه أمور ثلاثة تجسد النظرة إلى الإنسان.

في المقابل ثمة رؤية تقول: إن الله عزّ وجل كرّم بني آدم **﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾** ولكن هذا التكريم ليس مطلقاً، فالله عزّ وجل كرَّم بني إسرائيل ثم لعنهم. فالتكريم إذاً ليس مطلقاً إنه تكريم مشروط إذا أطاع الإنسان الله عزّ وجل تدرّج في مراتب استحقاقالكرامة و الكمال وإذا عصى سقط وإلى أي حد يصل سقوطه! يصل إلى حيث يصبح الحيوان أفضل منه، **﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا﴾**.

عندما يتحدث السيد الطباطبائي «عليه الرحمة» عن الرق يبين أنه لأجل هذا يُسترقُّ الإنسان لأنه يعلن الحرب على الله تعالى فيفقد قيمته. إذاً أين هي أصالة الإنسان التي ترى أن الإنسان عظيم مطلقا. . مهما كان، الكافر الطاغية. . إلخ.

صحيح أن هناك درجة منالكرامة لأي إنسان،إلاأن ذلك في العمق يرجع إلة التزام الحقيقة ويتمحور حولهافلا يصح لنا أن نتصرف مع الفاسق أو الكافر على أساس أننا أفضل منه، لماذا؟ لأن أحدنا قد ينحرف وهذا الكافر قد يهتدي، إذاً المحور التدين، المحور طاعة الله، المحور الالتزام بجوهرة الإنسانية بسرِّ التكريم الإلهي الذي هوالتزام الحقيقة ويجسد هذا الألتزام،الارتباط بالله وطاعة الله سبحانه وتعالى والعبودية له عزّ وجل.

* العقل: حول دوره، ومدى مرجعيته ـ ثمة أيضاً وجهتا نظر ـ يمكن تلخيصها كما يلي:

الأولى: أن كل شخص يرجع إلى عقله في أية واقعة يواجهها. . . فما وافق عليه «العقل» التزمه. . . وما رفض خالفه.

والحقيقة أن هذا «المنهج» يعتبر أن «عقل» الفرد هو الحجة والمراد به القناعة الناشئة من خليط من المعلومات والبيئة والمسموعات وعلى الأقل فهو عملياً كذلك. . حتى إذا كان لا يلتزم نظرياً بهذه النتيجة.

الثانية: أن العقل حجة. . . إلا أن المراد به ما تسالم عليه العقلاء لا «عقل» الفرد. . ذلك لأن العقل يتعرض لعمليات هدم وتخريب. . بحيث يصعب التمييز على مستوى الفرد الواحد بين قناعته العقلية والمزاجية، الأمر الذي يحتم الرجوع إلى الضوابط لتحديد حجية العقل وتمييزها من حجية ما يتوهم كونه عقلاً. ثم إن العقل الحجة. . هو نفسه يعلن بكل صراحة ووضوح أنه يقود الخطى إلى عتبة الغيب. . . معترفاً بعجزه عند ذلك وإخلائه الساحة لما هو فوقه. . وأكبر من إدراكه وأعظم. .

هذه الأمور هي المقدمة للحديث عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام أو أي معصوم، وهنا تصبح الأولوية للتوافق على النظرة إلى المعصوم لتحديد المنطلق في هذا المجال وهناأيضاً رؤيتان:

رؤية تقول إن المعصوم مظهر إرادة الله، مظهر قدرة الله، مظهر رحمة الله عزّ وجل. .المعصوم هو الذي يوصل الإنسان إلى مراتب الكمال التي أرادها الله عزّ وجل، أي أن همزة الوصل بين الله وعباده هي «المعصومون» لا يمكن أن يهتدي الإنسان إلى المطلوب منه،ويحل العقل في الذرى التي تنبغي له،إلا من خلال المعصوم، ولذلك فهو فوق كل غير المعصومين، ولا يجوز أن يقاس به أحد منهم رغم أنه بشر وليس من جنس آخر.

الرؤية الثانية للمعصوم أنه بشر كغيره، إلا أن هناك بعض الأمور الإيجابية والمميزة في هذا المعصوم يعني تدينه، وورعه،بعد نظره. . . إلخ. الأمر الذي يسمح أن ينصِّب أحدنا نفسه مرجعاً للمعصوم يزن أفعاله ويقومها ويحدد له تكاليفه. . هنا كان يجب أن يفعل كذا. . وهنا لماذا فعل كذا. . تماماً كما يظهر من بعض عبارات علم الكلام حول الله تعالى أن الإنسان يبحث عن تكليف الله تعالى، يريد أن يُحدِّد التكليف لله تعالى «يجب على الله أن يفعل ذلك»(١) وكأن القائل يحدد التكليف لله عزّ وجل، بعض الناس يتحدثون عن المعصوم كأنهم يريدون أن يعطوه علامة!

---

(١) المقصود الإلفات إلى الدلالة السلبية لهذا التعبير، وأن مقتضى استنباط حكم العقل من جهة والأدب مع الله تعالى من جهة أخرى استبداله بتعبير أفضل، وقد نبه إلى ما يلتقي مع ما ذكر، السيد الطباطبائي رحمه الله في تفسير الميزان ٨/ ٥٤.

كم هي العلامة التي يستحقها؟ هل كان يتصف بالنضج والوعي.. أم أنه كان يتصف بالسذاجة وعدم التجربة؟!

ولئن أمكن الدفاع عن الأول فلا يمكن الدفاع عن الثاني

يظهر ذلك جلياً عند الإمعان في الحديث عن بشرية الرسول، فيصل الأمر عند بعضهم إلى تجويز الخطأ على المعصوم وأنه في أمور الدنيا يترك الناس وشأنهم وأنه قال لهم لا تؤبروا النخل.. الرسول ﷺ نهاهم عن تأبير النخل، ففسد نخلهم، ثم قال لهم: أنتم أعلم بأمور دنياكم! إن إنساناً متوازناً عادياً لا يمكن أن تصدر منه هذه الهفوة.. يتدخل في شأن زراعي ويعطي رأيه فيفسد موسم الناس ثم بعد ذلك يقول لهم: أنتم أعلم بأمور دنياكم، يستحيل أن يصدر هذا عن رسول الله ﷺ، بل لا يمكننا قبول أن يصدر عن إنسان متدين يحترم نفسه.

من البداية يقول لهم: أنتم أعلم بأمور دنياكم وليس بعد أن يُلحق بهم الضرر.

يصل الحديث في بشرية الرسول ﷺ إلى حد أنك تشك: هذا الرسول الذي يتحدثون عنه هل هو أعلم من الإمام الخميني أم أن الإمام أعلم، هل هو أعلم من الشهيد الصدر أم أن الشهيد أعلم منه، كلا أيها الحبيب.. ليس هذا هو النبي الذي نعتقد به، ليس هذا هو النبي الذي نقول عنه أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ.

ذكرت في بعض الأحاديث سابقاً أن المتحدث عن بشرية المصطفى الحبيب ﷺ يستند إلى بعض الآيات **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾** هذا صحيح الآية موجودة ولكن أكمل الآية **﴿بشرٌ مثلكم يُوحى إليّ﴾** من حيث ظاهر البشرية إنسان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لكن يوحى إليَّ قيد فينبغي أن نأخذ خصوصية الموحى إليه في الحساب يعني الوحي إلى النخلة غير الوحي إلى أم مريم، الوحي إلى أم مريم غير الوحي إلى نبي من غيرأولي العزم، الوحي إلى النبي من أولي العزم غير الوحي إلى رسول الله ﷺ الذي هو أفضلهم وأفضل الخلق على الإطلاق.

إذا بحثنا في المنطلقات واتفقنا على نتائج محددة نأتي إلى الحديث عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام لنبحث في الروايات حول عصمتها فنكتشف بما لا مزيد عليه أن عصمتها في مقام رفيع جداً، بعدئذٍ ينتقل البحث إلى أن الصِّديقة الكبرى عليها السلام من أي المعصومين؟.. إنها من المعصومين الأربعة عشر. هنا يأتي دور الحديث عن مقام المعصومين الأربعة عشر. وعلى سبيل المثال فإن العلاّمة المجلسي «رضوان الله تعالى عليه» جمع عدداً كبيراً جداً من الرويات التي تتحدث عن عظمة المعصومين، الصِّديقة الكبرى عليها السلام والأئمة الاثني عشر، وأفضليتهم على سائر الأنبياء باستثناء رسول الله صلى الله عليه وآله. إذااتفقنا على ذلك نصبح أمام حقيقة أن الصِّديقة الكبرى عليها السلام من المعصومين الأربعة عشر (الذين هم أفضل من الأنبياء باستثناء رسول الله صلى الله عليه وآله)[1].

وهنا يصل البحث إلى موقع الصِّديقة الكبرى عليها السلام بين أهل الكساء ولأهل الكساء خصوصية لا تخفى...

الصِّديقة الكبرى عليها السلام بضعة من رسول الله قطعة من رسول الله صلى الله عليه وآله، يعني هي رسول الله، هذه المنزلة تجعل الإمام الخميني «رضوان الله تعالى عليه» يطرح كما في «صحيفة النور» في عدة خطب حول الصِّديقة الكبرى عليها السلام يقول: إنها بمنزلة النبي محمد صلى الله عليه وآله، ولو لم يكن المصطفى الحبيب موجوداً. وكان بالإمكان أن تكون المرأة نبياً لكانت الصِّديقة الكبرى هذا النبي. إن الإمام الخميني و بعد الرجوع إلى الروايات يؤكد أن مقام الصِّديقة الكبرى كمقام رسول الله صلى الله عليه وآله، نور الصِّديقة الكبرى من نفس نور رسول الله ونور أمير المؤمنين، «**يا علي نورنا ونور فاطمة واحد، نور فاطمة من نورنا**».

إذا وصلنا إلى هنا نستطيع أن نعرف ما ذكرته في بداية الكلام أن أي حديث عن أمرٍ ولو جزئي وصغير يرتبط بالصِّديقة الكبرى هو عظيم جداً.. لماذا؟ لأنّ أي موضوع عن شخصٍ، يكتسب أهميته من الشخص نفسه، من صاحب الموضوع... باب فاطمة... باب الدّار، ما جرى على باب الدّار، موضوع

---

(١) ذكرت في حديث مستقل آلية البحث في تفضيل أهل البيت عليهم السلام على الأنبياء، باستثناء المصطفى صلى الله عليه وآله.

مفصلي شديد الأهمية وليس بحثاً تاريخياً محدوداً، ليس أمراً هامشياً، هذا الباب باب فاطمة باب الله عزّ وجل، ناقة ثمود ناقة الله وباب فاطمة ليس باب الله، **﴿ناقة الله وسقياها﴾**» نعم باب فاطمة باب الله تعالى، لا بد من تناوله بالبحث والتحقيق، ولا بد أن نتوسع في ذلك ليمكنناتحديدالموقف منه لأن تحديد الموقف منه سلباً أو إيجاباً يحدد موقع الإنسان من الهدى والضلالة، من الإيمان والانحراف.

عندما يقول رسول الله ﷺ: «**باب فاطمة بابي وحجابها حجابي**» فهو يريدنا أن نقف عند مسألة الباب، وعندماظل رسول الله ﷺ ستة أشهر ـ أو تسعة ـ عند نزول آية التطهير يقف في هذا الباب ويقرأ آية التطهير، كان يريدلناأن تقف قلوبنا عنده وتعرف ماذا جرى على هذا الباب، عندما نزل قوله تعالى: **﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾**، سأله أبو بكر: ما هذه البيوت؟ فأشار المصطفى الحبيب إلى بيت علي وفاطمة[1].

إذاً التأكيد على الباب والتأكيد على البيت هو فرع التأكيد على أهل البيت والباب إنه من صميم الدين، ولا يمكننا أن نتصور إسلاماً من دون ذلك.

هنا أصل إلى ذكر رواية أختم بها الحديث، وهذه الرواية ينقلها الشيخ الطوسي «رضوان الله تعالى عليه» وهي تشير إلى بعض الأبعاد الغيبية في شخصية المصطفى الحبيب وأمير المؤمنين والزهراء والحسنين صلى الله عليه وعليهم. وأوضح هنا أن مضمون الرواية رغم أهميته لا يدل على غاية مرتبة المعصومين وإنما يشير إلى ملمحٍ من ملامح عظمتهم عليهم جميعاً صلوات الرحمٰن، وأمهد للرواية بأنّ المصطفى الحبيب ﷺ بنى المسجد وبنى البيوت الخاصة وكان بيت علي وفاطمة في موقع الوسط، وقد سأل شخص عبد الله بن عمر قائلاً: ما موقع علي عند رسول الله قال له ابن عمر: إذا أردت أن تعرف موقعه فانظر إلى موقع بيته من بيوت رسول الله، موقع بيته في الوسط وموقعه في الوسط، «قال: فإني أبغضه. قال: أبغضك الله»[2].

---

(١) البحار ٢٣/ ٣٢٥، ٣٦/ ١١٨.

(٢) شرح الأخبار للقاضي النعمان ١/ ٤٤٣؛ والمناقب لابن شهراشوب ٢/ ٦٠.

وأما الرواية المشار إليها فهي: روى الشيخ الطوسي عليه الرحمة عن الباقر عليه السلام: «**بيت علي وفاطمة من حجرة رسول الله وسقف بيوتهم عرش الرحمن والملائكة تنزل عليهم صباحاً ومساءً في كل ساعة**»، إلى قوله: «**والملائكة لا ينقطع فوجهم، فوجٌ ينزل وفوجٌ يصعد وإن الله عزّ وجل كَشَطَ** (يعني، أزاحَ) **لإبراهيم عن السموات حتى أبصر العرش وزاد الله في قوة ناظره وإن الله زاد في قوة ناظرة محمدٍ وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم وكانوا يبصرون العرش ولا يجدون لبيُوتهم سقفاً غير العرش فبيوتهم مسقّفةٌ بعرش الرحمٰن وفيها معارج، معراج الملائكة والروح فوجاً بعد فوج لا انقطاع لهم، وما من بيت من بيوت الأئمة منا إلا وفيه معراج الملائكة. يقول الله تعالى: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾**[1].

بيوتهم مسقفة بعرش الرحمٰن.. لانتحدث إذا عن أفرادتوجد في شخصياتهم أبعاد غيبية أوعمن نستطيع أن ننكر أن في شخصياتهم أبعاداً غيبية، وإنما نتحدث عن أشخاص إلهيين والله عز وجل غيب، نتحدث عن غيبيين عاشوا في هذه الحياة الدنيا... يذكر بعضهم أنه جرى البحث حول أن رسول الله صلى الله عليه وآله، هل عرج إلى السماء بالجسم أم بالروح والجسم؟ ثم يذكر رأيه بقوله: ليت شعري متى جاء رسول الله صلى الله عليه وآله إلى هذه الدنيا حتى يبحث هل كان المعراج بالروح والجسم أم بالجسم فقط؟

متى جاء من ذلك العالم حتى يبحث هل صعد إلى ذلك العالم بجسمه أيضاً، إنه أصلاً من ذلك العالم.. يريد أن الأصل أنه هناك، والمجيء إلى هذا العالم هو الفرع، بل إنه عندما جاء إلى هذا العالم كان أيضاً هناك[2]..

وإذا ما استغرب البعض أن ينظر الإنسان إلى ما وراء المادة ويخترق بصره المادة، فضلاً عن الوصول إلى عرش الرحمٰن، فإن الاستغراب يرفع بأن بعض الأولياء العاديين يعطون هذه الكرامة، فلا تعود المادة والجدران وشبهها تشكل لهم سداً

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٢٥/ ٩٧؛ والحسيني، تأويل الآيات ٢/ ٨١٩؛ والبحراني، مدينة المعاجز ٤/ ٣٥.

(٢) الميبدي، تفسير «كشف الأسرار».

ومانعاً من الرؤية وغيرها، وقد سمعت من أحدهم التصريح بذلك، وقبل أيام نشرت الصحف عن كاميرا اخترعت في اليابان كان الهدف من اختراعها التصوير في الليل فاكتشفوا أثناء التصوير بها أنها إذا سلطت على مكان وكان هناك ستائر وخلف الستائر جدار تصور ذلك الجدار تصوّر ما خلف الستائر، (كاميرا) يمكن أن تنفذ بحدود معينة، إذاً المؤمن الذي ينظر بنور الله عزّ وجل إلى أين يستطيع أن ينفذ؟... إلى حيث يمكن أن ينفذ نور الله عز وجل والله سبحانه وتعالى بكل شيءٍ عليم ويرى كل شيء **﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾** إذاً أن يكون الولي ينظر إلى العرش.. أمر طبيعي جداً.

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا ويكشف عن بصائرنا ويعرفنا أولياءه وأحباءه ويعرفنا نفسه باعتبار أنّ أولياءه بداية الطريق «من أراد الله بدأ بكم» لأنّ هذه المعرفة أيها الأحبة هي التي تنفع في الدنياوالآخرة وهي العلم الذي يرفع الله به الذين آمنوا وأوتواالعلم درجات.

.. نسأل الله عزّ وجل ببركة مولاتنا الصِّديقة الكبرى عليها السلام أن يمنّ على قلوبنا وعقولنا ونفوسنا بالصلاح فتصبح محمدية.

سيدتنا يا زينب يا بنت أمير المؤمنين «عليك سلام الله تعالى» بالباب نقف ونرفع العزاء..

اعلم سيدتي أني لست أهلاً لذكركم. .إلاأنه شرفٌ للذاكرين ولذلك أصرُّ على الوقوف بالباب علَّ وعسى.. سيدتنا دعوةً منك إلى الله تعالى وما ذاك عليكم بعزيز.. عادتكم الإحسان إلى المسيئين.

والحمد لله رب العالمين

(٨)

في منهج البحث عن عظمتها عليها السلام ــــ ٢

* تمهيد.

* خطورة «منهج» الرأي، والاستحسان..

* «حق المعرفة» يجنبنا هذا المنزلق..

* أسلوبان لمعرفة الزهراء.. والأئمة عليهم السلام.

* الأول: الإجابة على سؤال: من هم أفضل الخلق؟

* نصوص للشيخ الصدوق، المجلسي والشيخ المفيد، الإمام الخميني.

* ما معنى أنهم أفضل؟

* الثاني: البحث عن عظمتهم في عظمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

* محوران: أحاديث النور الواحد، وأحاديث أنهم منه وهو صلى الله عليه وآله وسلم منهم..

* ختام.. وهم الوعي يضرب المعتقد..

(٨)

الجمعة ١٩ ج١ ١٤١٩هـ

هذه الأيام تنتسب نسبةً إضافية إلى الصِّديقة الكبرى عليها السلام ولذلك يزداد الواجب إلحاحاً في الوقوف على عتبة قرّة عين الرسول صلى الله عليه وآله خصوصاً ونحن نشهد السجال الدائر بضراوة

من هنا كان من الطبيعي أن تتركز الأحاديث في شهري جمادى الأولى والآخر حولها عليها السلام.

في البداية هناك ضرورتان في الحديث عن الصِّديقة الكبرى ينبغي التنبه لهما وقد أشرت إليهما في الحديث السابق.

الضرورة الأولى: أن أي حديث عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام ينبغي أن يكون بروحٍ علمية على أساس المنهج العلمي لا السباب والشتائم، فالذي يعتمد السباب يسيء إلى الصِّديقة الكبرى عليها السلام ويمس قدسيتها.

الضرورة الثانية: حفظ وحدة المسلمين ومن بين المسلمين حفظ وحدة الشيعة ونحن معنيون بها أكثر إلاّ أنَّ وحدة المسلمين عموماً أو وحدة الشيعة خصوصاً لا يمكن أن تنسجم مع الانحراف في المعتقد فإذا قال قائلٌ: إن الحديث عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام يؤدي قطعاً وتلقائياً إلى إثارة الآخرين ممن لهم قناعة خاصة في مسألة الخلافة وهم إخواننا الأعزاء المسلمون السنّة. فالجواب أننا نفرق بين من ظلم الصِّديقة وبين التعامل مع من يعتقد بشخصٍ ظلم الصِّديقة الكبرى، نحن نريد بروحٍ علمية وبالمنهج الاستدلالي الاستنباطي أن نحدد الواقع ونبلور الحقيقة. أما مسألة التعامل مع الآخرين فإنها تظل محكومة للأسس التي أرساها المصطفى الحبيب وأهل البيت عليهم السلام وما ينطبق في دائرة وحدة المسلمين في الإطار الأوسع ينطبق أيضاً على الدائرة الخاصة وحدة الشيعة. لنفترض أنَّ بعض الناس يستاؤون من هذه الأحاديث، فإن ذلك لا يقتضي تركها لأنه عندما يدور الأمر بين حفظ المعتقد أو مراعاة هذه الخصوصية فلا مبرر لغير حفظ المعتقد،

علماً بأنَّ ما أصرُّ عليه دائماً أن يكون الأسلوب العلمي هو الحكَم وأن تكون الحقيقة هي الرائدة. .

يجب أن يكون الحديث عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام بالروح العلمية وعلى قاعدة الحرص على وحدة المسلمين سواءً الشيعة في ما بيننا أو السنّة والشيعة. من هذا المنطلق وبهذا الحرص وبهذه الروح العلمية إن شاء الله تعالى، وبكل هدوء أدخل إلى رحاب الحديث عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام في إطار جديد غير الإطار الذي تقدم في الحديث السابق.

لا أشك على الإطلاق في أن كثيراً من الأمور التي يدور اللغط حولها تتنافى مع قدسية الصِّديقة الكبرى، لأن عظمة مولاتنا الزهراء عليها السلام، لا يمكن أن تنسجم مع هذهِ المقولات التي أقلُّ ما يمكن أن يقال فيها أنها تتكلم عن شخصٍ آخر دون مستوى تلامذة أهل البيت عليهم السلام، هذه المسألة تضعنا أمام التساؤل عن السبب الذي يؤدي إلى طرح ما يتنافى مع قدسية الصِّديقة الكبرى عليها السلام.

يرجع السبب بحسب قناعتي إلى عدم بذل الجهد في التعامل مع الروايات وفق المنهج العلمي الاستنباطي، فقد أرسى علماؤنا الأبرار منهجاً في استنباط الحكم الشرعي تتضاءل أمامه كل المناهج، هذا المنهج نفسه ينبغي أن يعتمد عندما نبحث حول حقيقةٍ من الحقائق، حول العصمة، حول الصِّديقة الكبرى، حول نور فاطمة الذي كان قبل أن يخلق الله الخلق، أو أيٍّ من المسائل الاعتقادية.

أي أن من الطبيعي جداً أن توضع الروايات على طاولة البحث وفق قواعد دراسة الحديث ووفق قواعد محاكمة النص والمقارنة بين النصوص ليُطرح على هذا الأساس رأي معين خصوصاً وأنَّ هذه المجالات ليست «مجال العقل» كما سيأتي من خلال كلمات بعض أعاظم علمائنا رضوان الله تعالى عليه.

إذاً يرجع السبب في طرح أمورٍ تمس قدسية الصِّديقة أو غيرها من المعصومين كما طرح أحدهم مؤخراً في كتاب ذكرت لكم بعض خصوصياته وأنه ضالٌّ يّدعي أنه شيخ، أو من خلال ما طرحه آخرون. . ممن تم التنبه لطروحاتهم وخطرها. . وإن لم تكن عن سوء نية. . يرجع السبب في ذلك كله إلى خللٍ في المنهج الذي يُعتمد للتعاطي مع هذه الحقائق. ولا بدَّ هنا من التأكيد على ضرورة

معرفة الصِّديقة الكبرى وأهل البيت عليهم السلام جميعاً، لا بد وأن يُعنى الموحد الصادق في حمله لهمّ التدين وبناء النفس بمعرفة رسول الله صلى الله عليه وآله ومعرفة المعصومين الثلاثة عشر معرفةً غير سطحية، فالمعرفة السطحية لا تكفي، أشير هنا إلى أنَّ المنهج السائد عند كثيرٍ من الكتّاب «الباحثين» وعند فريقٍ آخر أيضاً هو اعتماد الرأي «يعني مدرسة الرأي» على قاعدة الاستحسان والقياس وهذه المدرسة صدر عليها الحكم من الله عزَّ وجل وأعلنَ الحكمَ رسولُ الله وأمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام.. خصوصاً الإمام الصادق عليه السلام الذي شهد عصره تكثيفاً لبدعة العمل بالرأي، حيث قال:

«**إن دين الله لا يُصاب بالعقول**» يعني لا يجوز مثلاً أن يجلس شخص في مكان وأمامه بعض المعطيات المحدودة فيقدر أن شأن الصِّديقة الكبرى هو هذا.. شأن المعصوم وحجمه هو هذا أو يقرأ مثلاً عن النبي موسى خبراً لا يعجبه فيجزم بأنه مدسوس وموضوع أو يتساءل:

كيف إذاً كان هذا نبياً والعياذ بالله.

هذا المنهج أبسط ما يمكن أن يقال فيه إنه منهج الاستحسان والقياس، منهج إصابة الدين بالعقل ودين الله لا يصاب بالعقول. المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله والصِّديقة عليها السلام دين، وكذلك الأئمة عليهم السلام دين بل هم العمود الفقري منه وعصبه ولا يُدرك كنهُ العمود الفقري للدين، لا يدرك عصب الدين بالعقول، لا يُدرك كُنههم بالعقول كما سيأتي خصوصاً في كلام الشيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه.

المعرفة التي يجب أن نحرص عليها أيها الحبيب هي معرفة أهل البيت حق المعرفة «عارفاً بحقهم» وليس مجرد المعرفة بهم.

أذكر لك مثالاً:

عالمٌ تحترمه وتحترم فرادة علمه ولكن بعد وفاته تكتشف أنه كان ولياً من الأولياء، كان في مرتبة سامية من الورع والتقوى والقرب من الله عزَّ وجل فتندم. ولا يكاد ينقضي ندمك لأنك لو كنت تعرف هذه المرتبة العظيمة التي بلغها لانقطعت إليه ولتركت كل عمل غير ضروري واغتنمت الفرصة لأنَّ الذين انقطعوا إليه تقدموافي بناء النفس أشواطاً كبيرة وأصبحوا من أولياء الله عزَّ وجل.

هذا يعني أنك كنت تعرفه ولكن لم تكن عارفاً بحقه، لم تكن تعرفه حق المعرفة.

حق المعرفة لشخص مميَّز.. لولي من الأولياء يجعلك تهتم بكل كلمة من كلماته وكل إشارة.. يشير لك فتندفع.. ويشير لك فتتوقف.. لماذا؟

لأن حق المعرفة لهذا الشخص يجعلك تتعاطى مع إشارته على أن فيها رضا الله سبحانه وتعالى... بلحاظ قناعتك بمدى قرب هذا الشخص منه عزَّ وجل.. رُبّ شخص منا يكتشف في ما بعد أنَّ معرفته للذين يعرفهم معرفة ناقصة وليست معرفة حقيقية، ليست «حق المعرفة»[1].

أذكر مثالاً أوضح:

الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه لم نعرفه حتى الآن. نعم ما عرفنا أبا مصطفى هذا العالم الجليل.. الفريد.. كتب أحد كبار المتخصِّصين في الفلسفة عن الإمام الخميني سنة ٦٦ ميلادية قبل انتصار الثورة الإسلامية باثني عشر سنة (أي أن هذا الكلام ليس منطلقاً من أجواء سياسية معينة) فقال: «إنَّ الإمام الخميني، جعلني الله من كل مكروه فداه هو في الحكمة المتعالية على منهج صدر الحكماء والعرفاء «ملا صدرا» أستاذ مسَلَّم (له). وفي الحقيقة وبدون مجاملة يجب القول إن جنابه خاتم الحكماء والعرفاء في عصرنا»[2].

إنه يريد أن يقول لنا:

عندما نتحدث عن ابن سينا، أو السهروردي أو صدر المتألهين أو من شابه ينبغي أن نعرف أنّ الإمام الخميني قدس سره في هذا الرعيل، إنه فقيه، أصولي، فيلسوف، حكيم، عارفٌ، عابدٌ، وقد نُقل عن أحد العلماء في حياة الإمام الخميني قدس سره قوله: إذا توفي الإمام الخميني فإن نوع العرفان الذي وصل إليه لا يمكن أن ينتقل منه إلى أحد.

حتى في الجانب الذي تعاطينا معه من خط الإمام وهو الجانب السياسي ما

---

(١) البحار ٢٥/٩٧؛ ومدينة المعاجز للبحراني ٢/٤٩٩.

(٢) السيد جلال الدين الأشتياني، مقدمة شرح القيصري على فصوص الحِكم، ص٣٣، ط٤.

عرفنا الإمام حق معرفته. . . في جانب بناء النفس والجهاد الأكبر ما عرفنا الإمام حق معرفته، لو كنا نعرف الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه في زمانه حق المعرفة لتعاملنا معه بشكلٍ آخر، ولو كنا نعرفه الآن حق المعرفة لتعاملنا معه الآن بشكلٍ آخر، إن مسألة الارتباط بالإمام الخميني قدس سره مسألة من نوعٍ خاص. الإمام الذي نكتشف عظمته يوماً بعد يوم هو تلميذ مدرسة الصِّديقة الكبرى وأهل البيت وهو عندما يريد أن يتكلم عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام يقول: أرى نفسي قاصراً حتى عن ذكر اسمها. . . مُجرد ذكر الاسم!

إذاً المعرفة بحقهم شيء آخر، هي معرفة خاصة، ثم إنَّ المعرفة بأهل البيت «حق المعرفة» يترتب عليها نوع التدين، عندما تجد الآن شخصاً يقرأ حديثاً ـ مثلاً ـ:

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: من صلى صلاة جمادى الثانية يغفر الله تعالى له ويُصان في نفسه وماله وأهله وولده إلى السنة القادمة وإذا مات في هذه السنة مات شهيداً، إذا رأيت هذا الشخص يُعرض بوجهه، يطوي كشحاً، فهو لا يعرف رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يعرف أهل البيت حق المعرفة لأنه لا يخشع في محراب «روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله».

مجرد أن أمراً ما روي عنهم يستدعي أن نقف عنده طويلاً ولا نتجرأ أن نقول كلمة سلبية. أنا لا أقول أن نقبل هذه الرواية أو تلك دون أن ندرس السند، ومن لا يستطيع معرفة السند فليطلع على آراء العلماء الأعلام حول الرواية التي هو بصددها ـ أو ما يشبهها ـ ماذا يقولون حول هذه الرواية، أريد أن أقول لك إن روح التعبد في المؤمن لا يمكن أن تتبلور إلاَّ إذا كان يعرف المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام حق المعرفة، يتعبد بآرائهم، إن مجرد احتمال أن هذا الحديث حديثهم يجعل العناية به خاصة والتعامل معه دقيقاً.

مثلاً: شخص يحب شخصاً ويتقيد بآرائه يحتمل أنه طلب هذا الطلب، مجرد احتمال أن حبيبك يرغب بهذا الأمر يجعلك تهتم به. . وعلى الأقل تهتم فتتأكد هل طلبه فعلاً أم لا؟ إنَّ اتباع أهل البيت هو الطريق الوحيد إلى طاعة الله عزَّ وجل كما تقدم في عدة أحاديث حول اتباع المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله، فإذا بدأنا

نتقي من رواياتهم وأحاديثهم، ونعرض هذا على عقولنا الفردية التي هي كأمزجتنا فإننا نخرج من خط اتباعهم معاذ الله، أما إذا بدأنا ننظر إلى مكانتهم عند الله عزَّ وجل على أساس وَهْم عقولنا وآرائنا فالنتيجة أشد خطورة بطبيعة الحال.

هنا أصل إلى بيان أسلوبين في معرفة الصِّديقة الكبرى عليها السلام ويمكن أن نعتمد هذين الأسلوبين لمعرفة عظمة المعصومين وقدسيتهم جميعاً عليهم صلوات الرحمٰن.

الأسلوب الأول:

أن نجيب على هذا السؤال من هم أفضل خلق الله تعالى؟

هل أفضل الخلق الرسول صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء من أولي العزم، وبعدهم الصِّديقة الكبرى عليها السلام ،وسائرأهل البيت أم أن أفضل الخلق المصطفى الحبيب وأهل البيت عليهم السلام ، وبعدهم سائر الأنبياء عليهم السلام بمن فيهم أولو العزم، وبعدهم باقي الناس من الأولياء بحسب مراتبهم الصديقون. . الشهداء. . الصالحون. . إلخ. .

من هم أفضل الخلق؟ الروايات في هذا المجال كثيرة جداً لماذا لا نرجع إليها فندرس أسانيدها لماذا لا نقف عند آراء العلماء الأعاظم، مثلاً:

الشيخ الصدوق رضوان الله تعالى عليه الذي يقول عنه الإمام الخميني قدس الله سره في كتاب الأربعين حديثاً في آخر الحديث الأول «جهاد النفس»: «الشيخ الصدوق الذي يتصاغر أمامه أعاظم العلماء»، يقول الشيخ الصدوق عليه الرحمة:

يجب الاعتقاد بأن الله عزَّ وجل لم يخلق خلقاً أفضل من محمد صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ، إشارة هنا إلى أنَّ الحديث عن رسول الله والأئمة لا ينفصل أبداً عن الحديث عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام لأن لها عليها السلام موقعاً مميزاً بين المعصومين الأربعة عشر، علماً بأن كل المعصومين الأربعة عشر عظماء ومميزون. . يضيف الشيخ الصدوق عليه الرحمة:

يجب الاعتقاد أنهم أحبّ الخلق إلى الله عز وجل وأكرمهم وأولهم إقراراً لله

عزَّ وجل لما أخذ الله ميثاق النبيين في عالم الذّر و (يجب الاعتقاد أيضاً) أنَّ الله تعالى أعطى كل نبيٍّ على قدر معرفته بنبينا ﷺ وسَبْقِهِ إلى الإقرار به.

أرأيت.. يجب الاعتقاد أن المصطفى الحبيب وأهل البيت أفضل الخلق ويجب الاعتقاد أنهم أحب الخلق إلى الله، ويجب الاعتقاد أن كل نبيٍّ من الأنبياء لم يعطَ مرتبةً إلاَّ على قدر معرفته وإقراره برسول الله.

إنَّ هذا يختلف جذرياً عما هو متداول في أوساطنا.

ثمَّ يقول: **والاعتقاد أيضاً** (يعني يجب الاعتقاد) **أن الله تعالى خلق جميع ما خلق له** (لرسول الله) **ولأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين وأنه لولاهم ما خلق السماوات والأرض ولا الجنة ولا النار ولا آدم ولا حواء ولا الملائكة ولا شيئاً مما خلق صلوات الله عليهم أجمعين**(١).

ما عسانا نقول عندما نرى عالماً جليلاً يتصاغر أمامه أعاظم العلماء ـ كما عبر عنه الإمام الخميني ـ يتحدث بهذا الوضوح: يجب الاعتقاد بأنَّ الأنبياء الآخرين لم يعطوا إلاَّ بحسب معرفتهم وإقرارهم برسول الله وأهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين، هل نلجأ إلى المسبقات والإسقاطات والاستحسان والقياس فنقول:

هذا رأي! ولنا رأي آخر! نعم يمكن أن يكون لشخصٍ رأي آخر، شرط أن يعتمد المنهج العلمي الأرقى الذي يعتمده العلماء، أما أن نرفض مثل هذا الرأي دون أدنى دليل ولمجرد الاستغراب فهو مرفوض كلياً.

وينقل العلاّمة المجلسي هذا الكلام في البحار وقد عقد باباً تحت عنوان «باب تفضيلهم على الأنبياء الجزء ٢٦ من البحار الصفحة ٣٠٧» (حوالي الأربعين صفحة) حول تفضيل المصطفى الحبيب وأهل البيت على الأنبياء وبعد أن يورد كلام الشيخ الصدوق، يقول: (ومن هو القائل إنه المجلسي الثاني) **اعلم أن ما ذكره الشيخ الصدوق من فضل نبينا وأئمتنا صلوات الله عليهم على جميع**

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٢٦/٢٩٧ نقلاً عن اعتقادات الشيخ.

المخلوقات وكون أئمتنا عليهم السلام أفضل من سائر الأنبياء هو الذي لا يرتاب فيه من تتبع أخبارهم عليهم السلام على وجه الإذعان واليقين[1].

ماذا يريد العلامة المجلسي أن يقول؟

الذي يقرأ الروايات تارة يقرأها من منطلق مدرسة الرأي والقياس والاستحسان كما تقدم. . أي أنه ينتقي الروايات هذه تعجبه، وهذه لا تعجبه وكثير منّا يتصرف على هذا الأساس قد يقرأ أحدنا هذه الروايات فيصل إلى رواية أن الله سبحانه وتعالى زوّج علياً عليه السلام من فاطمة عليها السلام في السماوات، وقف الملك وخطب وكان الاحتفال كذا. . فيقول: ما هذا الكلام. . إنه لا ينسجم مع روح العصر!

أيها الحبيب. . لماذا نحرم أنفسنا من أنوار أهل البيت عليهم السلام باعتماد القياس والاستحسان. . لماذا؟. .

يريد العلامة المجلسي أن يقول:

إمّا أن يقرأ الإنسان الروايات على أساس الانتقاء والمزاجية أو على أساس الإذعان واليقين، إذا قرأها على أساس الإذعان واليقين (بما يوصل إليه الدليل العلمي مهما كان المضمون غريباً) فإنه سيصل إلى هذه القناعة.

ثم يقول: **والأخبار في ذلك أكثر من أن تحصى وإنما أوردنا في هذا الباب قليلاً منها** (أربعون صفحة قليلٌ منها) **وهي متفرقة في الأبواب لا سيما في باب صفات الأنبياء وأصنافهم عليهم السلام وأنهم الأئمة عليهم السلام كلمة الله العليا وباب بُدوّ أنوارهم وباب أنهم أعلم من الأنبياء وأبواب فضائل أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة عليها السلام** ثم يختم العلامة المجلسي بقوله: **على هذا الرأي** (الذي ذكرته أنهم أفضل) **عمدة الإمامية ولا يأبى ذلك إلاّ جاهل بالأخبار**[2].

ويستعرض الشيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه الآراء في هذا المجال، إلاّ

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٢٩٧/٢٦ نقلاً عن اعتقادات الشيخ.
(٢) نفس المصدر.

أن له وجهة نظر أخرى فهو يرجح ما ذكره العلامة المجلسي والشيخ الصدوق إلاً أنه لا يجزم به، يرجحه ولكن يتوقف على خوف من أن يكون توقفه خطأ.

يقول الشيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه: **قد قطع قوم من أهل الإمامة بفضل الأئمة عليهم السلام على سائر ما تقدم من الرسل والأنبياء سوى نبينا محمد ﷺ** أي إن أهل البيت أفضل من جميع الأنبياء باستثناء رسول الله ﷺ لأنه أفضل الخلق، **وأوجب فريق منهم أنهم لهم الفضل على جميع الأنبياء سوى أولي العزم منهم عليهم السلام وأبى** أي رفض **القولين فريق آخر منهم وقطعوا بفضل الأنبياء كلهم على سائر الأئمة عليهم السلام** أضاف: **وهذا باب ليس للعقول في إيجابه أو المنع منه مجال ولا على أحد الأقوال إجماع»**[(١)].

يريد رضوان الله تعالى عليه أن يقول:

لا يصح اعتماد العقل في هذا الباب «أنهم أفضل أم لا» بل لا بدَّ من الرجوع إلى الروايات، الشيخ الصدوق رضوان الله تعالى عليه الخبير الضليع في الروايات أعطى رأيه. والعلامة المجلسي رضوان الله تعالى عليه الخبير المتبحِّر في الروايات أعطى رأيه. الشيخ المفيد أيضاً ذلك العالم الجليل الخبير المتبحِّر في الروايات المشهود له في المنقول والمعقول يرجِّح أنهم أفضل لكنه لا يجزم كما سيأتي.

محل الشاهد هنا: لتكن هذه العبارة ببالك.. أن هذا المجال ليس مجال العقل، وهذا الباب ليس للعقول في إيجابه أو المنع منه مجال.. وحول قوله: ولا على أحد الأقوال إجماع أي لا إجماع على أنهم أفضل ولا إجماع على أنهم ليسوا أفضل... مرَّ معنا كلام العلامة المجلسي أن عمدة الإمامية يعني أكثر الإمامية، أكثر الشيعة على هذا الرأي.. مما يدل على أن المقام ليس مقام تكافؤ الفرقاء.. بل الرجحان في هذا الجانب. ثم يقول الشيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه **لقد جاءت آثارٌ عن النبي ﷺ في أمير المؤمنين عليه السلام وذريته وجاءت الأخبار عن الأئمة الصادقين عليهم السلام أيضاً، وفي القرآن الكريم مواضع تقوي العزم**

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٢٦/٢٩٧ نقلاً عن اعتقادات الشيخ.

على ما قاله الفريق الأول في هذا المعنى (أي أنهم أفضل)، إذاً الشيخ المفيد يقول: في القرآن وفي الروايات مواضع تقوي العزم على أنَّ أهل البيت أفضل من جميع الأنبياء باستثناء رسول الله ﷺ وعن رأيه هو بالخصوص يقول: **وأنا ناظر فيه** يعني عندي نظر (أي أنه متوقف) **وبالله أعتصم من الضلال**.

وخلاصة رأيه أنه رضوان الله تعالى عليه يقوى العزم عنده على أن أهل البيت عليهم السلام أفضل.. إلاّ أنه لا يستطيع أن يعزم ويجزم.. بل يكاد..

وينبغي التأمل جيداً في اختياره لتعبير «وأنا ناظر فيه».. بدلاً من قوله مثلاً: وعندي فيه نظر أو وفيه نظر...

ألا ترى معي أن ملامح التقية تتبدى منه. ثم ألا يشي بذلك قوله: وبالله أعتصم من الضلال.. ولا أسوق هذا على سبيل الجزم.. وإنما لمجرد الإلفات.. مكتفياً في تقرير رأيه رضوان الله تعالى عليه بما تقدم.

أعود إلى ما قلت لك، ليكن ببالك.. أن المجال هنا ليس مجال العقل..

يريد لنا الشيخ المفيد أن نميّز بين ساحة العقل وبين الساحات التي هي فوق العقل، فالعقل لا يمكنه أن يدركَ كنه رسول الله وأهل البيت عليهم السلام «دين الله لا يصاب بالعقول» ومعرفتهم من الدين بل معرفتهم الدين «**من أراد الله بدأ بكم**» فإذاً لا يمكن أن تكون معرفتهم نتاجاً عقلياً لأن العقل يوصلنا إلى الإيمان بالله عزَّ وجل ويوصلنا إلى أنَّ التعبُّد هو أن نلتزم بما يأتينا من الله عزَّ وجل سواء كان في حكم شرعي أو في مجال بيان حقيقة المصطفى الحبيب أو أيٍّ من المعصومين... نلتزم بذلك تعبّداً.

بتعبير أدق إن العقل يقول: العاقل هو من يتعبّد.. العقل يوصل إلى التعبد وفي ساحة التعبد لا مجال لأن يقحم العقل نفسه، يتأدب العقل فيقف على عتبة التعبد، ولا يمكن أن يدخل إلى ساحته... «يتعقلن» العقل ويعرف حجمه، أمّا الذين يتصورون أنَّ إدراك هذه الأمور إنما يتم بالعقل فهم يعتمدون ما يتوهمون أنه عقل وليس عقلاً على الإطلاق.

وللدقة أقول إن ما ذكرته لك هو نموذجان من آراء العلماء، فإنَّ نصيَّ الشيخ

الصدوق والعلامة المجلسي. . نموذج واحد، ونص الشيخ المفيد نموذج آخر فإن له طريقته الخاصة التي تجعل النتائج التي يصل إليها مختلفة عن النتائج التي يصل إليها كل من الصدوق والمجلسي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين إلا أن الملفت أنهم جميعاً يعتمدون نفس المنهج، دراسة السند، التمييز بين ساحة العقل والساحة التي يعترف العقل بأنها فوق ذراه، والإحاطة بالنقل وعدم تحييد شيء منه على قاعدة الشطب والإسقاط. . ولذلك تأتي النتائج ضمن منهج واحد. . وإن بدا غير ذلك. . وهذا مجال للبحث المستفيض ليس هنا محله. .

ألا ترى الشيخ المفيد يقترب جداً من الرأي الأول رغم عدم جزمه به بحسب الظاهر على الأقل.

والنتيجة التي أردت الوصول إليها أن من أفضل الطرق للوصول إلى معرفة قدسية الصِّديقة الكبرى وأهل البيت عليهم السلام هو هذا الأسلوب. . .

محاولة الإجابة على سؤال من هم الأفضل. . أهل البيت عليهم السلام أم الأنبياء باستثناء الرسول صلى الله عليه وآله الذي هو أفضل الخلق على الإطلاق.

ومن الأهمية بمكان أن أوردهنا رأي الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه في هذا المجال.

في كتابه «مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية» يتحدث الإمام بلغة متخصصة عن أفضلية أهل البيت على الأنبياء باستثناء رسول الله صلى الله عليه وعليهم أجمعين. . ثم يقول:

ومما يرشدك إلى ما ذكرنا حق الإرشاد، ويهديك كمال الهداية إلى الطريق السداد ما حدثه صدوق الطائفة رضوان الله عليه في «عيون أخبار الرضا عليه السلام» بإسناده عن مولانا وسيدنا علي بن موسى الرضا عليه آلاف التحية والثناء عن آبائه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما خلق الله خلقاً أفضل مني ولا أكرم عليه مني (. . .) إن الله تبارك وتعالى فضَّل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقربين، وفضَّلني على جميع النبيين والمرسلين، والفضل بعدُ لك يا علي وللأئمة من**

بعدك.. وإن الملائكة لخُدامنا وخدام محبينا...» والحديث طويل جداً... يعقب عليه الإمام بقوله: تم الخديث الشريف ولقد نقلته بطوله مع بناء هذه الرسالة على الاختصار للتبرك والتيمن وزيادة الفائدة والبصيرة[1].. ثم يبدأ بشرح بعض فقراته.

وتسأل: ما معنى أنهم أفضل؟

قد يتصور البعض أن الله عزَّ وجل فضّلهم والعياذ بالله دون أسباب فيهم تدعو إلى هذا التفضيل.. وتطرح هذه الشبهة خصوصاً عندما يجري الحديث عن أنهم الأفضل قبل أن يخلق الله تعالى الخلق.. وهذا ما لا بد من الوقوف عنده.. قليلاً..

تطرح الشبهة في الإطار التالي:

قبل أن يخلق الله الخلق فضل رسول الله وأهل البيت عليهم السلام... ألم يكن من المفروض أن تأخذ التجربة مداها ونرى من هو الأفضل؟

والجواب: لا داعي لذلك لأنَّ الله عزَّ وجل قبل أن يخلق الخلق كلهم يعلم بما سيؤول إليه أمر كل منهم.. من هو المطيع ومن العاصي.. ومن هو الأشد طاعة والأقرب إليه؟ فالذين علم أنهم أفضل، فضّلهم، إن الله عزَّ وجل بكل شيءٍ عليم، يعرف كل شيءٍ سيقع في المستقبل، وقد رأى سبحانه وتعالى أنهم أفضل الخلق لذلك فضلهم، إذاً تفضيلهم مستند إلى خصوصيات فيهم برحمة الله وتعالى وبفضله عزَّ وجل.

هذا المنحى وهذا التفسير نجد إشارة قوية إليه إن لم يكن تصريحاً في حديث ينقله الإمام العسكري عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إنَّ الله اختارنا معاشر آل محمد واختار الملائكة المقربين وما اختارهم إلاَّ لعلمه أنهم ليهتدون[2]».

يعني أنَّ الله عزّ وجل اختارهم لعلمه بما سيكونون عليه.

---

(١) مصباح الهداية، ص١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار ٢٦/٢٠٩.

وفي حديث آخر طويل تأكيد لهذا المعنى وقد أورده العلامة المجلسي رضوان الله تعالى عليه في البحار وهو أن رسول الله ﷺ عندما راسل نصارى نجران ودعاهم إلى الإسلام قامت الدنيا في نجران ولم تقعد. .

كانت نجران مركزاً لبعض العلماء الكبار من النصارى وكانوا يعرفون عظمة رسول الله كما يعرفون أبناءهم وأخيراً تقرر إرسال وفد من نجران. .

الأحبار الذين جاؤوا من نجران لم يتجرأوا أن يباهلوا رسول الله ﷺ عندما رأووه قادماً ومعه أمير المؤمنين والصِّديقة والحسنان عليهم السلام فقال كبيرهم: «إنها وجوه لو أقسمت على الله أن تزول الجبال لزالت»، هو يعرفهم من خلال التوراة والإنجيل وسائر علمائهم آنذاك مثله. . ولذلك كان وصول كتاب رسول الله ﷺ إليهم بمثابة زلزال، هرعوا إلى اجتماع ضخم جداً. . . ما الأمر؟

وهذا النص وإن كان مرفوعاً إلى عدد من أصحاب رسول الله ﷺ إلاّ أنَّ كل فقرة من فقرات هذه الرواية الطويلة يمكن أن يستدل عليها بأحاديث كثيرة مسندة وغير مرفوعة والحديث طويل. . الخلاصة. . . أنهم هُرعوا إلى صحيفة شيث عليه السلام كان عندهم من جملة الكتب القديمة صحيفة شيث نظروا فيها إلى مواصفات رسول الله ﷺ وأنّه العاقب ما معنى العاقب: «الذي يأتي في آخر الأنبياء»، يعني عقيب الأنبياء. . . ولا مجال للتفصيل الآن، وإلاّ فالرواية طريفة جداً ويمكن أن تراجع في البحار لكن أذكر منها بعض المقاطع، عن صحيفة شيث عليه السلام.

سأل آدم عليه السلام بمَ بلغ هؤلاء العالون هذه المنزلة؟

والمراد بالعالين المصطفى الحبيب وأهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين.

قال الله تعالى: «إني أنا عالم الغيوب ومضمرات القلوب أعلم ما لم يكن مما يكون، كيف يكون وأعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون» الشيء الذي لم يحدث إلى الآن إذا حدث كيف سيكون **وإني اطّلعت على قلوب عبادي فلم أر فيهم أطوع لي ولا أنصح لخلقي من أنبيائي ورسلي يعني رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء فجعلت لذلك فيهم روحي وكلمتي واصطفيتهم على البرايا ثم اطلعت على**

قلوب المصطفين من رسلي فلم أجد أطوع لي ولا أنصح لخلقي من محمد خيرتي وخالصتي فاخترته على علمي ورفعت ذكره إلى ذكرى ثم وجدت كذلك قلوب حامّته «يعني عترته» **من بعده على صفة قلبه فألحقتهم بهم وجعلتهم ورثة كتابي ووحيي وأركان حكمتي ونوري وآليت بي** «يعني وأقسم الله بنفسه» **أن لا أعذب بناري من لقيني معتصماً بتوحيدي وحبل مودتهم أبداً**[١].

هذا هو الأسلوب الأول.. وهذه مجرد إضاءات عليه..

الأسلوب الثاني في معرفة الصِّديقة الكبرى وأهل البيت عليهم السلام عموماً: البحث عن عظمة الصِّديقة الكبرى عليها السلام فوق الأنبياء باستثناء رسول الله صلى الله عليه وآله وأقصد بالتحديد البحث عن عظمة الصِّديقة في عظمة رسول الله صلى الله عليه وآله الذي هو فوق الأنبياء جميعاً.

يعني ابحث عن عظمة رسول الله فكل الآيات والروايات التي تدل على عظمته صلى الله عليه وآله، يمكنك أن تبحث فيها عن عظمة الصِّديقة الكبرى عليها السلام، هذا الأسلوب يتم البحث فيه في محورين:

المحور الأول: أحاديث النور، أن نورهم واحد.. وأن نورهم من نوره صلى الله عليه وآله.. وهذه الأحاديث من الكثرة بحيث أنها تستدعي وقفة طويلة.. ويأتي ذلك في الحديث القادم إن شاء الله تعالى.

المحور الثاني: البحث في الأحاديث التي تدل على أنهم رسول الله صلى الله عليه وآله في كل شيء عدا ما خرج بالدليل.. سواء تلك الأحاديث التي تدل على أنها من رسول الله وأنه صلى الله عليه وآله منها والتي تؤدي نفس المضمون الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وآله عندما قال عن الإمام الحسين عليه السلام: «حسين مني وأنا من حسين»..

أليس هذا نفسه مفاد «أم أبيها» أي أنه صلى الله عليه وآله منها عليها صلوات الرحمٰن.. أو تلك الأحاديث الصريحة في أنها هو.. «بضعةٌ مني» «شجنة»، «روحي التي بين جنبي»، «يؤذيني ما يؤذيها..» ماذا يريد أن يقول رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٢٦/ ٣١٣.

باختصار إنَّ الله عزَّو جل عندما يحدثنا عن مكانة رسول الله ﷺ ماذا يقول؟

يقول لنا: يده يدي، رميته رميتي، طاعته طاعتي، اتباعه اتباعي، يعني ابحث عن عظمة رسول الله ﷺ في عظمة الله عزَّ وجل، ورسول الله ﷺ يريد أن يقول لنا فاطمة بضعة مني «شجنة» يؤذيني ما يؤذيها «يعني فاطمة أنا» عظمتها عظمتي.. مقامها مقامي.. هي أنا.. هي محمد رسول الله ﷺ.

هل سألنا أنفسنا ولو مرَّة إن كنا وصلنا إلى عمق المسألة؟.. عمق المسألة هو هذا..! كيف كانت المدينة عند شهادة الصِّديقة.. وكيف ينبغي أن نكون نحن الآن؟ الصِّديقة الزهراء تدفن ليلاً!! كم سمعنا هذا الكلام، ولكن هل عرفنا خطورته.. ما ظنك لو قيل لك إنَّ رسول الله ﷺ دفن ليلاً لأنه كان غاضباً على أمته! أقسم بالله أنَّ معنى دفن الصِّديقة الكبرى ليلاً لأنَّها كانت غاضبة، معناه هذا.. معناه أنَّ رسول الله ﷺ كان غاضباً.. وهذا يعني أن الله عزَّ وجل غاضب وأن الخطورة في هذا الأمر بمستوى أن يرتد المسلمون كلهم عن رسول الله ﷺ في حياته ثم يبقى وحيداً فيدفنه أمير المؤمنين ليلاً. هذا أمر آخر ينبغي أن نتعاطى معه بعمق، عندما قلت في الحديث السابق: إنَّ أي مسٍّ بقدسية الصِّديقة الكبرى أو أي تقليل من ظلامتها، يؤدي إلى اهتزاز المعتقد كنت أقصد هذا الأمر.. لا يمكن على الإطلاق أن نتعاطى مع باب الصِّديقة وما جرى بالباب على أساس أنه مجردعنوان لحدث تاريخي... كلا إنه عنوان حقيقة هي من صميم المعتقد.

هذا الباب باب علي وفاطمة دخل إلى صلب الدين عندما أصبح بابَ علي وفاطمة وعندما ظلَّ رسول الله ﷺ يقف عليه ستة أشهر وفي رواية تسعة أشهر فيقرأ آية التطهير، وهو الذي قال عنه «**باب فاطمة بابي وحجابها حجابي**».

سيدي يا أمير المؤمنين عظَّم الله لك الأجر.. ترى كيف كان المولى في مثل هذه الأيام..

ومن سواد متنها اسودَّ الفضا   يا ساعد الله الإمام المرتضى

عظَّم الله أجوركم جميعاً، والحمد لله ربِّ العالمين

(٩)

ملاحظات منهجية..
وتطبيق كليات ما تقدم على أحاديث النور

* تمهيد.
* أحاديث النُّور.. والطينة.. عموماً..
* قد يكون المستغرب «سراً» له أهله.
* بين التعبد.. والتحييد.. ولو ترجم بالتوقف..
* الحقيقة أولى من المجاز.. والمحسنات البديعية..
* البحث عن عظمة الصِّديقة في ثنايا عظمة المصطفى الحبيب ﷺ..
* نور نبيك يا جابر..
* الكشف بنور العقل والقلب معاً..
* فرز روايات النور وتقسيمها..
* في معنى «الزهراء»..
* ختام...

(٩)

الجمعة ٢٦ ج[١] ١٤١٩هـ

في أيام الصِّديقة الكبرى الشهيدة عليها صلوات الرحمٰن وكما تقدم يستمر الحديث على عتبتها باعتبار أن من أراد الله عزَّ وجل بدأ بهم، وللحديث عن الصِّديقة الكبرى أهمية خاصة في كل مكان وزمان خصوصاً عندما تتضافر الدواعي لإيضاح الحقيقة كما هو الأمر في هذه الأيام.

وقفت في الحديث السابق عند أسلوبين للتعرف على عظمتها عليها صلوات الرحمٰن، وكان الثاني منهما عبارةً عن:

البحث عن عظمتها في عظمة رسول الله ﷺ، وقلت إنَّ هذا البحث يمكن أن يتمّ في محورين:

الأول: البحث في أحاديث النور..

الثانيَ: البحث في الأحاديث التي تدل على أنها ـ وكذلك الأئمة عليهم السلام ـ نفس رسول الله هم منه وهو ﷺ منهم.. وحديث هذه الليلة تفصيل في المحور الأول:

أحاديث النور:

في البداية لا بدَّ من إيضاح بعض الخصوصيات.

أولاً: أن هناك سيلاً كبيراً من الروايات حول نور رسول الله ﷺ وأنوار أهل البيت عليهم السلام وهي تتحدث إما بشكل عام عن نور المصطفى الحبيب وعن أنوار أهل البيت، أو عن نور علي عليه السلام أو نور الزهراء عليها السلام أو نور الحسنين أو نور التسعة من ذرية أبي عبد الله الحسين عليهم السلام جميعاً كما سيأتي توضيح ذلك إن شاء الله تعالى.

ما أريد التأكيد عليه:

هناك سيل كبير جداً من الروايات عن أنوار المصطفى الحبيب وأهل البيت ومع ذلك فإن هذا الكم الكبير وهذا المضمون الحساس والخطير قد تم تحييده في أوساط كثيرة بحيث أنه لا يتداول على الإطلاق، وإن كان متداولاً في بعض الأوساط الأخرى إلا أن المجموع العام لحركة الكتابة الإسلامية أو لما يقال عنه «كتابات الحركيين» في مختلف البلاد لا يتناول هذه الخصوصيات والسبب في إهمال هذه الأحاديث يرجع إلى خللٍ في المنهج تحدثت عنه فلا أعيد.

وما جرى على أحاديث النور جرى أيضاً على أحاديث الطينة، أن الله عزَّ وجل خلق أهل البيت والمصطفى الحبيب ﷺ من طينةٍ من أعلى عليّين مثلاً وخلق شيعتهم مما دون ذلك وأحاديث الطينة يمكن أن تؤلف فيها الكتب كأحاديث النور إلاَّ أن هذاالكم الكبير من الأحاديث هو الآخر أيضاً مهمل لدى أصحاب هذا المنهج، مهجور على الإطلاق ويعتبر الحديث عنه حديثاً خرافياً، بل إذا دخل الإنسان في بعض مفردات أحاديث الطينة كمفهوم «اللَّطخ» وما شابه أي أن الذي يرتكب المعاصي من الموالين لحقت طينته بعض الذرات من الطينة الأخرى وهذا هو المراد باللطخ، يعني تلطخت طينته الصافية بغيرها فلذلك تصدر منه المعاصي. إذا تحدث إنسان عن مفهوم اللطخ وهو من المتفرعات على أحاديث الطينة فقد يعتبر أنه يهذي أو أنه إنسانٌ رجعي لا يعرف كيف ينسجم في طرحه مع مقتضيات الزمان أو مع روح العصر وما شابه.

أحاديث النور وأحاديث الطينة ومثلها أحاديث كثيرة تتحدث عن مفاصل من أسرار الخلق والتكوين وتحتل حيِّزاً كبيراً من كنوز السنّة المطهرة، هذه الأحاديث كلها مهملة والسبب هو الخلل في «المنهج».

دعونا إذاً ونحن نقف على عتبة أحاديث النور نتذكر هذه الخصوصية، كيف أنَّ هذه الأحاديث تتضمن معلومات وحقائق شديدة الأهمية وهي مهملة، أشير هنا إلى أن المتأمل في كلمات علمائنا الأعلام سواءً المجلسي الأول، أو المجلسي الثاني، أو الشيخ المفيد، أو الشيخ الصدوق أو الإمام الخميني، أو شرَّاح الزيارة الجامعة على اختلاف الشروح يجد أنهم يطرحون حقائق لأوَّل وهلة عندما يقرأها

الإنسان تساوره الشكوك مع أنه في أحسن الحالات لا يستطيع إلاّ أن يحترم الطرح لأنه لعالم من هذا النوع، ولكن، عندما يجد أن هؤلاء العلماء جميعاً يستشهدون بروايات، بحيث أنك في باب الولاية لا تجد فكرة مطروحة من قبل عالم من علمائنا الأبرار إلاّ وهو يستشهد عليها بروايات... عندها.. يزداد الاحترام للموضوع المطروح ويتخذ بعداً آخر.. فلم يتبنَّ علماؤنا حقيقة مّا في أبواب الولاية جزافاً.. معاذ الله.. بل تعاملوا مع ذلك بأدق مما يتعاملون به مع روايات أبواب الفقه.. أو بنفس المستوى.. فهم وإن تسامحوا في السنن إلاأنهم أبدا لم يتساهلوا في العقائد. ومما يجب التنبه له أن ثمة حقائق في باب الولاية شديدة الحساسية لا يصح طرحها في أي مجال ولذلك كان أهل البيت عليهم السلام يخصون «حوارييهم» بها..

والمراد بحواريي الأئمة عليهم السلام ما ورد في الروايات أنه عندما ينادى يوم القيامة باسم كل إمامٍ من أئمتنا ينادى أين حواريوه؟ أين حواريو علي بن الحسين؟ أين حواريو محمد بن علي الإمام الباقر عليه السلام؟.. وهكذا..

هؤلاء الحواريون نقلوا إلى الأمة أسرار الولاية مثلاً: حديث المعرفة بالنورانية، معرفة أهل البيت عليهم السلام بالنورانية الذي ينقله سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه من الأسرار، أو أحاديث كميل بن زياد التي ينقلها عن أمير المؤمنين عليه السلام من الأسرار، أو أحاديث أبي حمزة الثمالي، أو قسم منها، أو أحاديث أبي بصير وغرائبه، أو أبي هاشم الجعفري وهكذا، وعندما يطرح علماؤنا الأعلام حقائق الولاية فإنهم ينطلقون في ذلك من الروايات ويلتزمون بخطوطها العامة، فلو فرضنا أن شخصاً منا سمع حقيقةً يطرحها عالمٌ من العلماء وهو لم يُحط برأيه والأدلة عليه فلا يصح أن يرفض هذه الحقيقة ويتصور أنه اجتهد وهذا رأيه الشخصي.

والملفت أن الروايات تتضمن أحياناً تفاصيل التفاصيل مما يؤكد ضرورة بذل الجهد في قراءة روايات رسول الله صلى الله عليه وآله وروايات أهل البيت عليهم السلام فرُب شخص منا يحمل تساؤلات يَحارُ بِها والإجابة على هذه التساؤلات موجودة في عشرة كتب رصفت في مكتبته ولكنه لا يقرأ.. أو أنه ـ وهذا أمرٌ شديد الأهمية ـ أحياناً

يقرأ فإذا مرَّ برواية لا تعجبه فإنه يذهب ضحية «المنهج» الخاطىء فلا يكمل الرواية يقرأمثلاً: أنَّ النبي ﷺ دخل ومعه أمير المؤمنين إلى بيت أبي الحسن والزهراء صلى الله عليهم أجمعين وإذا به يرى جفنة تفور أي قدراً فيه طعام حار، هو رزقٌ من الله تعالى للصِّديقة الكبرى عليها السلام.

.. قد يقرأ أحدنا ذلك فلا يكمل الرواية باعتبار أنه «واعٍ» «مثقف» ولا يعلم المسكين أنه وقع في ما أراد الفرار منه.. فليس الوعي عبارةً عن التنكر للواقع الذي هو غيب أكثر منه شهادة.. وليست الثقافة تجميع النفايات والصدأ والإعراض عن صقل العقل ليصبح مرآة للواقع، غيبه أولاً وشهادته ثانياً وكل منهما بحجمه.. هذه مريم عليها السلام كان الله عزَّ وجل يمدها بالزرق **﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾** فلماذا لا يرسل الله تعالى بمثل هذا الرزق للصِّديقة الكبرى صلوات الله عليها التي لا مجال للمقارنة بينها وبين سيدتنا مريم عليها السلام، ورسول الله ﷺ يربط في الرواية بين هذين الرزقين وأنهما من مصدرٍ واحد كأنه ﷺ يريد أن يقول: أتعجبون من أن يرزق الله الصِّديقة الكبرى مع أنه رَزَق من هو دونها بكثير فما وجه العجب؟!

وهكذا يمكن لهذا الواعي والمثقف بزعمه أن يقرأ مثلاً: أن الله عزَّ وجل كما أشرت في الحديث السابق زوَّج الزهراء لأمير المؤمنين عليه السلام في السماء وأنَّ أحد الملائكة ألقى خطبة في هذا الحفل الإلَهي.. فيعرض عنها مستنكفاً.. وربما جزم بأنها من «الإسرائيليات» دون أن يخطر بباله أنه متخلف عن ركب العقول الكبيرة والقلوب المنفتحة على آفاق الغيب الرحيبة.. وذراه العجيبة!

نحن لا نعرف خصوصيات أهل البيت عليهم السلام ولا يصح أن نحكم بحسب ما ركمنا من قناعات فيقول القائل منا: هذه الروايات لا أريد أن أقرأها.. لا تعجبني.. وتلك لا أعرضها على الناس. هذا «المنهج» ـ إذا صح أنه منهج وإنما أقول ذلك تجوزاً ـ غير سليم.. ليس منهج العقل وثمرتِه الأنضج التعبد، والفارق بين المؤمن وغيره إنما هو في التعبد، الكاشف عن مدى الإلتزام العملي بالدليل العقلي. وإنما سقط اليهود وأصبحوا لعنة الأجيال، لضعف خط التعبدِ فيهم ولا يمكن للعاقل وهو يبحث عن التحلي بالإيمان إلاَّ أن يقف عند مسألة التعبد

طويلاً، لأنَّ الفرق بين المؤمن وبين اليهودي هو هنا في التعبد، وإلاَّ فإن المرء قد يسلك طريق اليهود حذو النعل بالنعل دون أي فرق على الإطلاق.

مشكلة اليهود كما يصورها القرآن الكريم، بعد أن كانوا الأعظم، الأتقى، الأورع، ثم بدأوا ينحرفون تكمن في اصرارهم على عدم التعبد **﴿إنَّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾** كم لوّعوا النبي موسى وجرعوه الغصص ليذبحوا هذه البقرة، أو **﴿أنَّ الله مبتليكم بنهر﴾** لا تشربوا من هذا النهر من يشرب منه فليس مني قال لهم نبيهم: **﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾** فلم يتعبدوا أيضاً بل خالفوا وشربوا من ذلك النهر..

والسبب.. أن شيطان «الوعي» انطلق فيهم.. ما المشكلة في أن يشرب أحد من النهر ولماذا يخرج من الإيمان.. أيها الحبيب إن العقل لا يستطيع إدراك كل شيء، العقل يقول أطع الله عزَّ وجل والله سبحانه وتعالى يأمر فما علينا إلا أن ننفذ.. ومثال ذلك أن العقل يأمرك بمراجعة الطبيب، أو القانوني، وما عليك بعد المراجعة إلاَّ التعبُّد.. وقد بيَّنت في حديث سابق أن العقل يقف على عتبة التعبد متأدباً يقول حتى إذا خلعت نعلَي فلا يمكنني أن أدخل إلى هذا الوادي المقدس على الإطلاق. يمكن للعقل أن يدرك التعبد. أن هناك حقيقة اسمها التعبد لكن كيف يكون التعبد.. هذا شيء آخر ولا يوجد شخص على وجه الدنيا إلاَّ وهو متعبد، حتى الكافر فإنه متعبد أي أنه يلتزم بمفهوم التعبد، يذهب الكافر إلى طبيب فيقول له: فوراً إلى غرفة العمليات، فيتعبد برأيه.. أي إنسان على وجه الأرض متعبد يلتزم برأي أهل الخبرة والاختصاص.. إلاَّ أن يكون مجنوناً أو شبهه.. التعبد هو ـ كما تقدم ـ الثمرة الأنضج للعقل، طبيعي جداً للإنسان المنطقي والعقلاني أن يذعن للتعبد أن يعترف بوجود آفاق لا يعرفها ولا يفهمها إلا أن العقل يقول له التزم برأي أهل الخبرة، التزم برأي العالم المتخصص. وعلى هذا الأساس يتعبد ويلتزم.

ويبقى من الأمور التي ينبغي الوقوف عندها في البدايات حول أحاديث النور التأكيد على أمرين:

الأول: عندما نتحدث عن نور رسول الله ﷺ فرُب إنسان يبتسم ساخراً..

أوَلا يعرفون ما المراد بنور رسول الله، إنه تعبير مجازي، والمراد نور الهداية، الهدى العام، أو الخاص إذاً نور فاطمة من نور رسول الله المعنى هنا أيضاً مجازي. . أي باعتبار أن فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وطبيعي أن الولد سرُّ أبيه فإذاً هي من نوره من معدنه فإذا قلنا: لا نتحدث عن إشارة عابرة في رواية أو عدة روايات. . بل نتحدث عما يشكل جزءاً هاماً من السنة المطهرة فالأحاديث في ذلك كثيرة تقدم تفاصيل وافية عن نور فاطمة عليها السلام يقال: بلى. . مهما كانت الأحاديث كثيرة حول أنَّ نور فاطمة من نور رسول الله فالمراد أنها ابنته مطيعة له، بارة به، سائرة في خطه وهداه.

بناءً على هذا. . إن أول ما يجب تركيز الحديث حوله. . هل أن هذه الأحاديث مبنية على الحقيقة أم المجاز؟

يقول العلماء إن الحقيقة أولى من المجاز. . عندما نجد حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فيه: أول ما خلق الله نوري. . فهل يُحمل لفظ النور هنا على الحقيقة. . أي ثمة حقيقة اسمها نور رسول الله صلى الله عليه وآله أم يحمل هذا اللفظ على المجاز أي أن لفظ النور هنا أطلق وأُريد به ما يشبه النور من الهدى والتوجيه والإرشاد، وإذا فتح باب الحمل على المجاز بمعنى تقديمه على الحمل على الحقيقة فقد فُتح الباب على مصراعيه أمام نسف دلالة اللغة على معانيها. . الأمر الذي يؤدي تلقائياً إلى عدم فهم أكثر النصوص ـ ومنهاهذه الأحاديث ـ فهماً سليماً.

إن حمل هذه الأحاديث كلها على المجاز أمرٌ يتنافى مع أبسط قواعد البحث العلمي. . ورأي العلماء بالإجماع حاسم: ما دام باستطاعتنا أن نحمل لفظاً على الحقيقة فلا مبرر على الإطلاق لحمله على المجاز. وللتفصيل مجال آخر.

الأمر الثاني: حول أحاديث النور وشبهها، هو الاستغراب الذي ذكرته قبل قليل، أنَّ منا من يستغرب الرواية فيهملها. . فهل يصح اعتمادالاستغراب دليلاً علمياً؟

لا شك أنه ليس من دأب العلماء ذلك بمعنى أنهم لا يأبهون بالاستغراب. . فلا يكون عالماً من ينصرف عن مواصلة البحث لمجرد أنه استغرب أمراً ما. . أو

بنى موقفه على قاعدة الاستغراب والاستهجان. . فكم من مستغرب يثبته الدليل وكم من مستغرب ينفيه.

وبعد هذه المقدمات أنتقل إلى المحور الأول من محوري الأسلوب الثاني. . الذي هو: البحث عن عظمة الصِّديقة الكبرى بل أيٍّ من المعصومين الثلاثة عشر في عظمة المصطفى ﷺ والمحور الأول منه كما تقدم هو البحث في أحاديث النور. . وأذكر أولاً حديثاً أورده المقدس السيد الطباطبائي عليه الرحمة في تفسير الميزان الجزء الأول صفحة ١٢١، كما أورده العلامة المجلسي رضوان الله تعالى عليه في بحار الأنوار الجزء ٢٥ صفحة ٢١، أذكر بعض فقراته بل القليل منها لطوله إلاَّ أني سأمهد لذلك بما علق به السيد الطباطبائي على هذا الحديث، وإنما أذكر كلامه قبل الحديث لأنَّ المرض السائد في أوساطنا وللأسف الشديد هو استغراب هذه الأحاديث.

وأستمحيك عذراً لأشير هنا إلى أن السيد الطباطبائي رضوان الله تعالى عليه لدى البحث والتدقيق قد ألّف تفسير الميزان ليكون هناك دليل علمي منهجي على تفسير القمي والعياشي وأمثالهما، فإن الروايات التي تُستغرب في تفسير العياشي أو القمي وهما من كتبنا القديمة والمهمة جداً، نجد السيد الطباطبائي عليه الرحمة والرضوان قد استدل عليها بطريقة منهجية علمية بحيث لا يجد الباحث المنصف أمامه مجالاً إلاَّ أن يذعن بما يقرأ. . في حين أنه لو قرأ ذلك في تفسير القمي وغيره لأنكره أو توقف فيه. . فقد وردت الحقائق في التفسيرين المذكورين وفي كثير من الكتب دون أية إيضاحات. . وتجد الأدلة عليها في تفسير الميزان.

من جملة الأبحاث التي تؤكد هذا الكلام البحث حول قوله تعالى: ﴿**وعلَّم آدم الأسماء كلها**﴾. . انظر ماذا تجد في تفسير القمي تجد أنها أسماء أهل البيت. . إلا أن المقدس السيد الطباطبائي يبحث بحثاً علمياً معمقاً فيصل بك إلى هذه النتيجة لتجد نفسك خاشعاً في محراب منهجه العلمي الفريد.

كذلك الأمر في بحثه الآيات المباركة حول نبي الله إبراهيم خصوصاً آيات الحج وصولاإلى معنى تشيعه عليه السلام. . والشواهد كثيرة تستدعي بحثا مستقلا. .

وبالعودة إلى تعليقه عليه الرحمة والرضوان على حديث من أحاديث النور. .

يقول: إياك أن ترمي أمثال هذه الأحاديث الشريفة المأثورة عن معادن العلم ومنابع الحكمة بأنها من اختلاق المتصوفة وأوهامهم، فللخلقة أسرار. . وها هم العلماء من طبقات بني البشر لا يألون جهداً في البحث عن أسرار الطبيعة منذ أخذ البشر في التوسع والتقدم العلمي وكلما لاح لهم معلومٌ واحد بانت لهم مجاهيل كثيرة وعالم الطبيعة أضيق العوالم وأدونها فما ظنك بما وراءه وهي عوالم النور والسعة (تجد النص في الجزء الأول من كتاب تفسير الميزان صفحة ١٢١/ بتصرف يسير) إنه يريد أن يقول:

إياك أن تستغرب هذا القبيل من الروايات، فتقول هذا من اختلاق المتصوفة الذين يغالون بأهل البيت عليهم السلام ،فينسجون من عندياتهم. . فللخلقة أسرار نحن لا نعلمها أي أن لخلق الله تعالى الخلق أسرارا أين نحن عن إدراكها، ثم يشير إلى علماء العلم الحديث كم بذلوا من الجهد ليعرفوا أسرار هذه الطبيعة وهم عاجزون، «فالزكام» لا يجد الطب له علاجاً رغم تفوقه. . ولذلك يتلخص رأي الطب حول الزكام بأن أقله أسبوع وأكثره أسبوع **﴿وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً﴾** وإذا كان عالم المادة. . المشهود المحسوس ما يزال مجهولاً بالنسبة إلينا. . فكيف بتلك العوالم الرحبة.

يقول السيد الطباطبائي رحمة الله تعالى عليه هذا العالَم عالَم الطبيعة المحدود أكثره مجاهيل فما ظنك بما وراء هذا العالم من عوالم السعة والنور، ألا ترى معي أن الفرق كبير جداً بين تأكيد السيد الطباطبائي عليه الرحمة على وجود عوالم السعة والنور الذي نفهم منه يقينه بوجود عوالم النور وجوداً حقيقياً وبين كلام القائلين بحمل أحاديث النور على المعنى المجازي!

إن العالم العارف بالله تعالى عندما يرى عوالم النور ويخبر عنها أولى بالتصديق من الفلكي الذي يعتمد تلسكوب «هابل» أو غيره ويخبرنا عن اكتشاف مجرة جديدة أو غير ذلك كما أشار إلى هذه الحقيقة الشيخ البهائي رضوان الله تعالى عليه.

والآن. . وبعد التعريف ببُعد من أبعاد هذا العالم الجليل. . وبعد ذكر تعليقه على الحديث. . إليك النص:

«عن جابر بن عبد الله قال: قلت لرسول الله ﷺ: أول شيءٍ خلقه الله ما هو؟

فقال: نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم أقامه بين يديه في مقام القرب ما شاء الله، ثم جعله أقساماً. . فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحبِّ ما شاء الله، ثمَّ جعله أقساماً: فخلق القلم من قسم واللوح من قسم والجنة من قسم. . وأقام القسم الرابع في مقام الخوف ما شاء الله. . ثم جعله أجزاءً فخلق الملائكة من جزء، والشمس من جزء، والقمر من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الرجاء ما شاء الله، ثم جعلهُ أجزاءً فخلق العقل من جزء والعلم والحلم من جزء والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الحياء ما شاء الله، ثم نظر إليه بعين الهيبة فرشح ذلك النور وقطرت منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسها أرواح الأولياء والشهداء والصالحين».

وقد وردت هذه الرواية أيضاً في البحار ج٢٥ ص٢١ وفي مصادر كثيرة وهي من الروايات المشهورة.

لاحظوا هذا التعبير «نور نبيك يا جابر». . . إنَّ فيه مخزوناً شعورياً عاصفاً. . «نور نبيك يا جابر»!! وخلق منه كل خير لقد خُلقت الصِّديقة الكبرى عليها السلام والأئمة عليهم السلام من هذا النور بل هذا النور نورهم. . ابحث عن عظمتهم في عظمة المصطفى الحبيب ﷺ ابحث عن نورهم في نوره وأحاديث النور كثيرة جداً.

وتنبغي الإشارة في ظلال هذا الحديث إلى ما ورد فيه من أن العصمة خلقت من قسم من أقسام نور المصطفى الحبيب ﷺ، فالفرق كبير بين أن ينتهي البحث حول عصمته ﷺ إلى إثبات عصمته وبين أن يصل إلى أنَّ رسول الله ﷺ فوق العصمة، خلقت العصمة من نوره، وللأسف الشديد فإن البعض يصل إلى الحديث عن العصمة في التبليغ فقط! أليس هذا هو الرأي السائد بين الأخوة

المسلمين السنّة؟ نعم. . الفرق كبير جداً. . وشتان ما بينهما. . وكذلك الأمر في البحث عن مكانة الصِّديقة الكبرى وسائر المعصومين عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه، والحقيقة أن ثمة خللاً عقائدياً خطيراً ينتج عن إهمال البحث في هذه الحقائق بالطرق العلمية كما أن هناك خللاً تقل خطورته في الغالب عما سبق. . وقد تزيد عليها أحياناً، ينشأ من قبول أية رواية نجدها في هذا المجال. . دون إخضاعها للبحث العلمي المنهجي. . أو الرجوع فيها إلى أهل الخبرة. .

أكرر. . فللخلقة أسرار. . إلى أن يقول: «وعالم الطبيعة أضيق العوالم وأدونها فما ظنك بما وراءه وهي عوالم النور والسعة»، أي كما أن هذا العالم الذي نحن فيه يمكننا أن نراه، فهناك عوالم اسمها عوالم النور. . يمكن أن ترى ويعاش فيها فكم هو الفرق بين الحديث عن عوالم النور الواسعة جداً وبين أن النور مجازي! من المؤسف حقاً أن يغزى «الغيب» في عقر داره. . فإذا بالمنهج الذي يتحكم بطرح بعض المفاهيم الإسلامية منهج مادي متنكر ولو عن حسن نية.

أحد العلماء المحققين من الذين خبروا الروايات وأمضوا العمر في دراستها وعرضها على كتاب الله تعالى له رأي في هذا المجال وحول أحاديث النور وأنَّ رسول الله ﷺ وأهل البيت عليهم السلام كانوا أنواراً قبل الخلق. . ومن يناقش في من قال فإني ناظر إلى ما قال. .

ماذا يقول هذا العالم المحقق؟

أمّا أنَّ الله تعالى خلقهم أنواراً من نوره قبل أن يخلق شيئاً من خلقه فهو معلومٌ متواترٌ معنى في أحاديثهم. .

وأما أنه سبحانه وتعالى جعلهم بعرشه محدقين فهو أيضاً لا إشكال فيه، إنما الإشكال في (هل أنه) جعلهم بعرشه محدقين بعد أن خلق العرش فهم قبل خلق العرش يسبحونه، أم (أنه سبحانه) خلق العرش قبل أن يخلقهم فلما خلقهم جعلهم محدقين بالعرش أم ظهروا مع العرش أي خلقوا مع خلقه، فلم يظهر العرش في الوجود إلا بهم، أو لم يظهروا في الوجود إلا في العرش أم فيه تفصيل. . . وإنما أذكر هذا النص ليكون نموذجاً عن كلمات علمائنا الأعلام. . ويتضح لك الفارق النوعي بين ما تسمعه في الأعم الأغلب وبين هذا النموذج وشبهه. . والمتأمل في

كلمات كبار العلماء الربانيين من أعمدة الحكمة الإلٓهية يجد أنهم جميعاً يتحدثون عن المصطفى الحبيب وأهل البيت صلوات الله تعالى عليهم أجمعين بهذه اللغة العلمية المتخصصة.. مستندين في مرتكزات كلماتهم إلى الآيات الكريمة والروايات الشريفة.. مع رفد ذلك بمخزون عظيم من طهارة القلب واستقامة السلوك.. تجعلهم المؤهلين الحصريين لإدراك حقائق «المطهرين» الذي قصر الله تعالى فهم حقائق القرآن الكريم عليهم **﴿لا يمسه إلاّ المطهرون﴾** الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً..

إنّ هذه الحقائق عن أهل البيت عليهم السلام عصية إلا على الذين يسيرون في دروب الكشف عن الحقيقة بحركة العقل والقلب معاً.. وبمقدار طهارة القلب يتمكن العقل من طي المكان والزمان لتخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة (ولباب الحقيقة) فتصير الأرواح معلقة بعزٍّ قدسه عزَّ وجل.. وما دمنا لا نستطيع ذلك.. فلنحاول على الأقل أن نخشع في مجلس الواصلين.. ونتأدب بآداب محاولة الإصغاء إليهم.. أما أن ننكر آراءهم بخفة الجاهل وتسرعه.. فإننا نظلم (الحقيقة) بما لا يُسف إليه أي ظلم..

وقد تتوقف في قول هذا العالم «وأنه لولاهم لم يخلق العرش» ولشرح هذه العبارة بسط من القول يُخرج الحديث عن سياقه إلا أن الروايات كفيلة به.. ويكفي أن نتذكر هنا الحديث القدسي: «**لولاك ما خلقت الأفلاك**» الذي لا مجال للنقاش فيه بعد فهم معناه.. وقد يوفق الله تعالى لتفصيل الكلام حوله أو لإشارات توضيحية في مطاوي هذه الأحاديث فهو لا يتنافى إطلاقاً مع أفضلية المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله.. وإنما هو بمعنى **﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾**.

أصل هنا إلى تقسيم روايات النور وفرزها.. وهي موزعة كما يلي:

١ ـ منها ما يتحدث عن نور رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢ ـ ومنها ما يتحدث عن نور المصطفى والمرتضى صلى الله عليهما وآلهما.

٣ ـ ومنها ما يتحدث عن نور الزهراء عليها السلام.

٤ ـ ومنها ما يتحدث عن أنوار رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام دون الزهراء عليها صلوات الرحمٰن بشكل مباشر سواء بالاسم أو بشمول العدد.

٥ ـ ومنها ما يتحدث عن الأنوار الأربعة عشر، مع التصريح باسمها عليهم السلام، أو بدونه.

نستنتج: أنَّ ما يتحدث عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام من روايات النور إما خاص بها أو ضمن الروايات الأخرى.

وينبغي أن نلاحظ هنا أن كل رواية تتحدث عن النور تتحدث عن نور أهل البيت جميعاً، لأن النور واحد، فكل رواية تتحدث عن نور رسول الله تتحدث حكماً عن نور أمير المؤمنين ونور الصِّديقة الكبرى، ونور أهل البيت، ويأتي مزيد توضيح إن شاء الله تعالى.

وهذه نماذج تؤكد ما تقدم:

١ ـ حول نور رسول الله صلى الله عليه وآله أكتفي بالرواية التي تقدمت «رواية جابر بن عبد الله الأنصاري» أول ما خلق الله ماذا؟.. «نور نبيك يا جابر».

٢ ـ من الروايات التي تتحدث عن المصطفى والمرتضى صلى الله عليهما وآلهما عليهما ينقل العلاّمة المجلسي عن أحمد بن حنبل: أنه يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله **«كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الرحمن قبل أن يخلق عرشه بأربعة عشر ألف عام»** وقد أورد العلامة المجلسي هذه الرواية مسندة[1].

أشير هنا إلى أنني أذكر من كل قسم نموذجاً أو أكثر حيث لا يتسع المجال لإيرادها جميعاً لأن ذلك يحتاج إلى كتاب إن لم أقل إلى كتب.. ولها أهلها..

٣ ـ ما يتحدث عن نور الصِّديقة الكبرى عليها السلام: عن رسول الله صلى الله عليه وآله مخاطباً علياً عليه السلام: **«نور فاطمة من نورنا»**[2].

٤ ـ الروايات التي تتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة جميعاً عليهم السلام.

عن الإمام السجاد عليه السلام: «إنَّ الله عزَّ وجل خلق محمداً وعلياً والأئمة الأحد عشر من نور عظمته أرواحاً في ضياء نوره يعبدونه قبل خلق الخلق

---

(١) المجلسي، البحار ٢٥/٢١.

(٢) عيون المعجزات، ص٤٧؛ والبحار ٤٣/٨.

يسبحون الله عزَّ وجل ويقدسونه وهم الأئمة الهادية من آل محمدٍ صلوات الله عليهم أجمعين»[1].

٥ ـ حول المعصومين الأربعة عشر، العنوان الذي تقدم كان حول رسول الله ﷺ والأئمة الاثني عشر يعني ليس في هذا القسم المتقدم الذي ذكرت نموذجاً منه.. حديث عن نور الزهراء عليها السلام إلا بلحاظ أن النور واحد.. وما شابه.. أما في هذا القسم الذي أنا بصدده الآن.. فالحديث عن المعصومين الأربعة عشر وينقسم هذا القسم بدوره إلى نوعين:

أ ـ ما يصرح فيه بالعدد (أربعة عشر).

ب ـ وما يتحدث عنهم عليهم السلام بعنوان عام كما سيأتي.

من الأول ما يصرِّح فيه بالعدد عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إنَّ الله تعالى خلق أربعة عشر نوراً قبل خلق الخلق بأربعة عشر ألف عام فهي أرواحنا فقيل له يا ابن رسول الله: ومن الأربعة عشر؟

فقال: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين عليهم السلام آخرهم القائم الذي يقوم بعد غيبته فيقتل الدجَّال ويُطهر الأرض من كل جورٍ وظلم»[2].

ومن الثاني ـ ما لا يصرح بالعدد بل يذكر عنواناً عاماً مثل (أهل البيت) أو «خلقنا» وغير ذلك يقول الإمام الباقر عليه السلام:

«يا جابر كان الله ولا شيء غيره ولا معلوم ولا مجهول فأوّل ما ابتدأ من خَلْقِ خَلقهِ أنْ خلق محمداً ﷺ وخلقنا أهل البيت معه من نور عظمته، فأوقفنا أظلَّة خضراء بين يديه حيث لا سماء ولا أرض ولا مكان ولا ليل ولا نهار ولا شمس ولا قمر يفصلُ نورنا من نور ربنا كشعاع الشمس من الشمس نسبح الله ونقدّسه ونحمده ونعبد حق عبادته» والحديث طويل[3].

---

(١) البحار ٢٥/ ١٥، و١٨٧؛ والصدوق، كمال الدين/ ٣١٩.
(٢) الصراط المستقيم للبياضي ٢/ ١٣٤؛ والبحار ١٥/ ٢٣، ٢٥/ ٤ و ١٥، ٥١/ ١٤٤؛ والصدوق، كمال الدين/ ٣٣٦.
(٣) المجلسي، بحار الأنوار ٢٥/ ١٧.

أذكر هنا بالمناسبة حديثاً أورده في البحار عن الإمام الصادق عليه السلام يتكلم عن خلق الشيعة «**ألا إنا خلقنا من نور الله وخلق شيعتنا من ذلك النور، فإذا كان يوم القيامة التحقت السفلى بالعليا**» ثم قرن عليه السلام بين إصبعيه السبابة والوسطى وقال: «**كهاتين**»[1].

وفي بعض الروايات الأخرى ما يوضح المقصود من السفلى والعليا حيث يجري الحديث بالتصريح بأن أهل البيت عليهم السلام خلقوا من أعلى عليين وخلق الشيعة مما دون ذلك وهي المرتبة التي يعبر عنها بالسفلى، فيوم القيامة تلتحق السفلى بالعليا، يعني يحشر الشيعة مع أهل البيت عليهم السلام.. فهم قد خلقوا ـ بناء لهذه الروايات ـ من نور واحد.. وإن اختلفت الرتبة والمنزلة.. وكما في أحاديث النور.. كذلك في أحاديث الطينة.. فالنور واحد والطينة واحدة.. وبديهي أن الحديث عن الشيعة.. الشيعة.. لا مدعي التشيُّع.. والعبرة في ذلك بالخروج من الدنيا في خط طاعة الله تعالى واتباع المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله الأطهار عليهم صلوات الرحمٰن... اللهمَّ ارزقنا.

ولا بد في هذا السياق من وقفة عند الروايات التي تتحدث عن النور ولا تذكر الصِّديقة عليها السلام لبيان أنها لا تعني على الإطلاق أنها عليها السلام أقل مرتبة من الأئمة عليهم السلام.. إذ لا يستقيم استنتاج ذلك من مجرد عدم ذكرها عليها السلام في هذه الأحاديث.. فقد يكون لذلك سبب آخر كما سنرى.. فمقام المقال مختلف من حال إلى حال.. ولكل مقام مقال.. تارة يكون المورد للحديث عن الأئمة الذين عيّنهم الله تعالى لمقام الخلافة.. وبديهي أن لا تذكر الصِّديقة الكبرى عليها السلام في مثل هذا المورد، فهي من المعصومين الأربعة عشر إلا أنها ليست من الأئمة عليها وعليهم صلوات الرحمٰن.. إلا أن هذا لا ينافي أن تكون في مرتبتهم أو في مرتبة أعلى من أكثرهم..

وبين روايات النور رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام حول نور المولى أبي طالب.. يتحدث عن نور رسول الله صلى الله عليه وآله ونور الصِّديقة الكبرى عليها السلام ونور الحسنين ونور التسعة المعصومين عليهم السلام.. ولا يذكر فيها نوره هو عليه السلام..

---

(١) البحار ٢٥/٢١.

وإن كان قد ذكر في بعض صيغ الرواية، إلا أن بعض الأجلّة احتمل أنه لم يتحدث عن نوره هو احتراماً لوالده[١].

ولكن يمكن إرجاع السبب إلى وحدة نور المصطفى والمرتضى بشكل خاص صلى الله عليهما وآلهما[٢].

إن مراعاة خصوصية المورد والمقام أو غير ذلك لا تقتضي الحديث أحياناً عن هذه الخصوصية أو تلك، أو تقتضي عدم الحديث عنها كما هو واضح.

ثم إن من الضروري التنبُّه إلى حقيقة أن الصِّديقة الكبرى والأئمة عليهم السلام من نور المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله فالنور في الحقيقة واحد.. وإنما يتعدد بتعدد اللحاظ.. وقد ورد عنهم أنهم عليهم السلام (كلهم نور واحد) والمتأمل في أحاديث النور يلمس الحديث عن وحدة النور بكل جلاء..

أضف إلى ذلك أن من الروايات ما يدل على أن هذا النور الواحد هو نور الصِّديقة الكبرى عليها السلام مما يجعلنا أمام حقيقة التقاء هذا النوع من الروايات مع روايات وصف المصطفى الحبيب للصِّديقة الكبرى صلى الله عليها وآلها بأنها «روحه» أو «أمه» بناء لما تجد في هذه الأوراق حول تفسير الأم..

وما ذكرته مجرد إشارات تحاول تلمُّس الطريق إلى أسرارهم عليهم السلام.. ولا شك أن لهذه الميادين أهلها الذين تستلهم هذه الإشارات بعض ما عقدوا القلب عليه في باب الولاية..

وأختم هنا بهذه الرواية التي ذكرت آنفاً أنها تتحدث عن وحدة نورهم عليهم السلام وأنه نور رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أورد هذه الرواية العلامة المجلسي في البحار في الجزء الخامس والعشرين ص١٠ وهي طويلة جداً أكتفي ببعض

(١) السيد نجم الدين العسكري، أبو طالب حامي الرسول، ص٢٠٨. وانظر: الرواية في البحار ٣٥/ ١١٠.

(٢) في الفضائل لشاذان بن جبرئيل القمي، ص١٢٧. عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «خلقت أنا وعلي من نور واحد».. والروايات الدالة على ذلك كثيرة جداً.

فقراتها. تبيّن الرواية أنه بينما كان رسول الله ﷺ يتحدث عن عظمة أهل البيت عليهم السلام.. والعباس بن عبد المطلب حاضر في المجلس سأل العباس رسول الله ﷺ مستغرباً: يا رسول الله ألست أنا وأنت وعلي وفاطمة والحسن والحسين من ينبوعٍ واحد؟

قال ﷺ: «وما وراء ذلك يا عماه؟».

قال: لأنك لم تذكرني حين ذكرتهم ولم تشرّفني حين شرّفتهم..

فقال رسول الله ﷺ: «**يا عماه أما قولك أني أنا والحسن والحسين من ينبوع واحد** (من أسرة واحدة ومصدر واحد) **فصدقت ولكن** (بيننا فرق) **خلقنا نحن حيث لا سماء مبنية ولا أرض مدحية ولا عرش ولا جنة ولا نار كنا نسبحه حين لا تسبيح ونقدّسه حين لا تقديس، فلما أراد الله بَدْء الصنعة فتق نوري فخلق منه العرش فنور العرش من نوري ونوري من نور الله وأنا أفضل من العرش**».

(إذا استغربت العبارة الأخيرة لتنطلق منها وفقاً «لمنهج الشطب» إلى تحييد هذه الرواية وشطبها فتذكر: «**المؤمن أعظم حرمة من الكعبة**»[1].

إذاً ما الغرابة في أن يكون المصطفى الحبيب ﷺ أفضل من العرش.. بمقدار القرب من الله تعالى يكون الفضل.. ولا مجال للمقارنة بين قلب الإنسان وغيره.. إن القلب الذي لا يدانيه قلب في طاعة الله تعالى وحبه هو الكعبة الحقيقية.. بل العرش الحقيقي.. وهو أفضل من كل ما عداه).

ثم يضيف ﷺ: «**ثم فتق نور ابن أبي طالب فخلق منه الملائكة، فنور الملائكة من نور ابن أبي طالب ونور ابن أبي طالب من نور الله ونور ابن أبي طالب أفضل من الملائكة**» (كأنه ﷺ تعمّد الحديث عن الإمام هنا بهذه الصيغة (ابن أبي طالب) وكررها ثلاث مرات إلفاتاً إلى المولى أبي طالب رضوان الله تعالى عليه

(١) من الروايات المستفيضة وقد أوردها الشيخ هادي النجفي في «ألف حديث في المؤمن» وصرح بأنها رواية صحيحة السند وهي مروية عن رسول الله ﷺ.. وتجدها في البحار ٦٤/ ٧١ مروية عن الإمام الصادق عليه السلام.

الذي لا نذكر الإمام عادة إلاً بذكره: (علي بن أبي طالب) ثم تختم هذه الرواية بقوله ﷺ:

«وفتق نور ابنتي فاطمة منه فخلق منه السمٰوات والأرض، فنور السمٰوات والأرض من نور ابنتي فاطمة ونور فاطمة من نور الله ففاطمة أفضل من السموات والأرض».

ويأخذ ختام هذه الرواية بقلوبنا إلى الترابط بين اسم «الزهراء» وبين عبارة «فنور السمٰوات والأرض من نور فاطمة».. حقاً.. ما معنى الزهراء؟

في بعض الروايات أنها عليها السلام كانت إذا وقفت في محرابها يزهر نورها لأهل السمٰوات كما تزهر الكواكب لأهل الأرض.. وفي بعضها أن المدينة المنوّرة كانت تضيء من نورها عليها السلام. ولا شك أن المقصود بذلك معنى آخر غير المعنى الذي يتبادر لأفهامنا المشدودة إلى المادة أو إلى الطاقة المحكومة بمقتضيات المادة.. كما أنه لا يراد به «المعنى المجازي».. بل المراد الذي لا يوجد تفسير مقنع غيره ـ والله تعالى العالم ـ أن هناك نوراً حقيقياً لا تدركه الأبصار العادية.. بل تدركه بأبصارها البصائر المزوّدة بقدرة النظر بنور الله تعالى..

وفي الروايات ما يؤكد ذلك بوضوح منها ما ورد في هذه الرواية حيث بيّن رسول الله ﷺ أن الله تعالى بعد أن خلق الأنوار «**خلق الظلمة بالقدرة فأرسلها في سحائب البصر، فقالت الملائكة: سبوح قدوس ربنا مذ عرفنا هذه الأشباح ما رأينا سوءاً، فبحرمتهم إلا كشفت ما نزل بنا فهنالك خلق الله تعالى قناديل الرحمة وعلّقها على سرادق العرش فقالت الملائكة: إلٰهنا لمن هذه الفضيلة وهذه الأنوار..؟**

فقال: هذا نور أَمتي فاطمة الزهراء فلذلك سميت أمتي الزهراء لأن السماء والأرضين بنورها ظهرت وهي ابنة نبيي وزوجة وصيي وحجتي على خلقي»[(١)].. إلى آخر الرواية.

الذي أريد أن أقوله: إن ما أدعو إليه أن تدرس أحاديث النور لأهميتها فتفرز

---

(١) المجلسي، البحار ٢٥/ ١٧.

أولاً ثم تدرس الأسانيد ثم تحاكم النصوص، عندها يمكن أن يعطي أحدنا رأيه حول أنوار أهل البيت عليهم السلام، أو نور فاطمة الذي خلق قبل الخلق؟!

أيضاً أضيف هنا أنه ينبغي الوقوف عند فائدة عملية. .

أيها الحبيب. . عندما نعرف أنهم نور الله عزَّ وجل، عندما نقرأ أو نسمع عن هذه الأنوار الطاهرة، نور رسول الله ﷺ أو نور أمير المؤمنين أو الزهراء عليها السلام أو نور أهل البيت، هذه الأنوار المقدّسة كانت قبل أن يخلق الله العالم بآلاف السنين، فإنَّ استغرابنا أو عدم فهمنا لهذه الأمور لا يبرر لنا أن نرفض. . ونبادر إلى رمي هذه الروايات بأنها خرافية والعياذ بالله تعالى لأن هناك أموراً فوق إدراكنا «كل ما طرق سمعك فذره في بقعة الإمكان» وارجع إلى المختص الذي تجد عنده الخبر اليقين. .

ثم إن هذه الحقائق، حقائق الأنوار إذا تعاطينا معها سوف نكون أمام مخزونٍ شعوري متلاطم. . رسول الله وأهل البيت الذين ننتسب إليهم ونريد أن نكون معهم نورٌ محض، أنا صاحب المعاصي كم هي نسبة النور فيَّ! إذا لم أكن نوراً لا أكون معهم، إذا لم يكن فيَّ نور لا أكون قد حققت شيئاً من التجانس معهم وإنما أكون شيئاً آخر، وإذا كان فيَّ شيءٌ من النور فتنبغي المحافظة عليه بطاعة الله عزَّ وجل خصوصاً الإكثار من الذكر. . مسألة النور مسألة حقيقية. . **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾** [البقرة: ٢٥٧] وما دام الإنسان منّا يذكر الله عزَّ وجل فإنه يزداد نوراً. . فلنحرص على زيادة النور فينا **﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾** [النور: ٤٠] **﴿نورهم يسعى بين أيديهم﴾** [التحريم: ٨].

والحمد لله رب العالمين

(١٠)

آداب ولايتها عليها السلام .. والحجب دونها

* تمهيد.
* محاور تمس الحاجة إليها.
* الحُجُب المانعة..
* روايات مستغربة.. وتحليل رفض المستغرب.
* الجهل بعظمة موقفها التاريخي..، الخطبة، البكاء، الدفن ليلاً.
* الفهم الخاطئ لكلامها مع الأمير عليها عليه السلام.
* تلخيص الحجب في ضوء ما تقدم..

(١٠)

الجمعة ٤ ج٢ ١٤١٩هـ

ما نزال في أجواء أيام الصِّديقة الكبرى الشهيدة عليها السلام وهذه الأيام فرصة للقلوب الموالية لكي تصل إلى النور المحمدي، فتزيل به ظلمات الذنوب وأدرانها، شرط أن تعرف القلوب كيف تمرغ جباهها على عتبة قُرَّةُ عين الرسول صلى الله عليه وآله فتقف ببابها متوسلة.

بالتوسل يمكن طيُّ الآفاق الأنفسية ويمكن الحصول على ما لا نحصل عليه عادةً بأي طريقٍ آخر، **﴿قل ما يعبؤ بكم ربِّي لولا دعاؤكم﴾** والتوسل دعاءٌ بامتياز إنه رجاء الله تعالى مع التوسل بالمصطفى الحبيب وآله الأطهار خير الخلق على الإطلاق.

هذه الأيام شديدة الأهمية وينبغي أن ندرك ذلك **﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾**.

ما هي الحصيلة التي سنخرج بها من الأيام الفاطمية، هل نريد أن تكون حصيلتنا مميزة، هل نحن متيقظون، أم أننا لا سمح الله نتنبّه بعد فوات الأوان، كل الأيام فاطمية والدهر كله يخشع في محراب الصِّديقة الكبرى الشهيدة ولكن لهذه الأيام خصوصية، قلوب أهل البيت المصطفى الحبيب وآله، قلوب الأنبياء، الأولياء، جميع الملائكة وعباد الله الصالحين، تعيش هذه الأيام الفجيعة بظلامة الصِّديقة الكبرى عليها السلام وفقدها وقد وقفت في حديثٍ سابقٍ عند عمق الفجيعة فلا أعيد..

لنحرص على أن ننسجم مع الكون في تفجعه على الصِّديقة الشهيدة ولنأخذ بحظنا من أداء الواجب والالتزام بآداب الولاية في هذا المجال والتوسل.

أيها الحبيب ما تمس إليه الحاجة في مجال الحديث عن الصِّديقة الكبرى عليها السلام.

أولاً: معرفة عظمتها.. ثانياً: مظلوميتها وما جرى عليها.. ثالثاً: آداب الولاية.

أما المحور الأول والثاني عظمة الصِّديقة الكبرى ومظلوميتها عليها السلام، فأعتقد أن في ما تقدَّم من أحاديث بعضَ وفاءٍ في هذا المجال، أذكر باختصار أن الحديث عن عظمة الصِّديقة الكبرى وفق المنهج الذي تقدم الحديث عنه ينبغي أن يكون أولاً بالبحث عن أفضليتها على الأنبياء باستثناء رسول الله صلى الله عليه وآله.

وثانياً بالبحث عن عظمتها في عظمة رسول الله، في قلب عظمته صلى الله عليه وآله.

وأما بالنسبة إلى المحور الثاني فكذلك أشير هنا باختصار إلى أنَّ الحديث عن أي أمرٍ يخص الصِّديقة الكبرى عليها السلام يدخل في صلب المعتقد مهما كان صغيراً ولذلك لا مجال على الإطلاق للقول بأن هذه الأبحاث تاريخية لا داعي للخوض فيها أو أنها تأتي في درجة ثانوية من الأهمية،إن الأبحاث المرتبطة بالصِّديقة الكبرى عليها السلام أبحاث عقيدة، قلت: إن ناقة صالح باعتبار خصوصُيتها دخلت في صلب العقائد آنذاك والنبي صالح باعتبار أنه نبي الله كانت له حرمة وناقته كانت لها حرمة معينة، الظلامة بشكلٍ عام تتخذ أهميتها من المظلوم، قد يكتسب الحديث أهميته من المتحدَّث عنه.. أو من صاحب ما يُتحدث عنه.، باب الزهراء يدخل في صلب المعتقد، الحديث عنه والموقف منه يجب أن يكون على هذا الأساس وبهذا اللحاظ أي لأنه يدخل في صلب المعتقد ولأنه كذلك بقي رسول الله صلى الله عليه وآله ستة أشهر أو تسعة على الرواية الأخرى يقف على هذا الباب في طريقه إلى الصلاة ويقرأ آية التطهير ومما قال عن هذا الباب ـ «**باب فاطمة بابي، وحجابها حجابي**» كل ما يرتبط بالصِّديقة الكبرى مرتبط جذرياً ومتشابك كلياً ومتداخل مع المعتقد وربما يأتي في مطاوي الحديث بعض ما يوضح ذلك إن شاء الله تعالى.

أما بالنسبة إلى المحور الثالث: وهو محور آداب ولاية الصِّديقة الكبرى عليها السلام، فهو يشمل:

أولاً: الحديث عن معرفتها عليها السلام:

ومعرفتها ينبغي أن نصل إليها فيما نصل، بمعرفة سيرتها ومعرفة ما روي عنها وعندما نستعرض ما روي عنها نجد أنه على أقسامٍ أربعة: التعليمات، والأدعية، والصلوات، والأذكار.

والمراد بالتعليمات. . الأحاديث التي رويت عنها عليها السلام.

في باب معرفتها لا بدَّ من الوقوف عند هذه العناوين.

ثانياً: حبها عليها السلام:

لا بدَّ من الوقوف عندالآيات والروايات التي تتحدث عن وجوب حبِّ الصِّديقة الكبرى عليها السلام والأدلة في هذا المجال على قسمين: أدلة عامة هي تلك الآيات والروايات التي تتحدث عن حب رسول الله صلى الله عليه وآله وحب أهل البيت عليهم السلام بشكلٍ عام، بالإضافة إلى الأدلة الخاصة وهي الروايات التي تتحدث عن حبِّ فاطمة عليها السلام. والروايات في هذا المجال متعددة، منها الرواية التي وردت عن سلمان الفارسي رضوان الله تعالى عليه:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: يا سلمان حبُّ فاطمة ينفع في مائة موطن أيسر تلك المواطن الموت، والقبر، والميزان، والمحشر، والصراط، والمحاسبة، فمن رضيَتْ عنه ابنتي فاطمة رضيتُ عنه، ومن رضيتُ عنه رضي الله عنه، ومن غضبَتْ عليه فاطمة غضبتُ عليه، ومن غضبتُ عليه غضب الله عليه، يا سلمان ويلٌ لمن يظلمها ويظلم ذريتها وشيعتها[1].

ثالثاً: الاقتداء بها عليها السلام:

لا بد من الوقوف أيضاً عند عنوان الاقتداء بها عليها السلام وهذا يعني أن آداب الولاية بالنسبة إلى الصِّديقة الكبرى تشمل المعرفة، والحب، والاقتداء.

---

(١) محمد بن أحمد القمي، مائة منقبة ص١٢٧؛ والبحار ٢٧/١١٧؛ وينابيع المودة ٢/ ٣٣٢.

وأنا أوردها هنا كعناوين. . وأجملها، لأصل إلى الموضوع الذي سأركز عليه في سياق آداب الولاية. .

وفي باب الاقتداء ينبغي التنبه إلى أن الصِّديقة الكبرى عليها صلوات الرحمن مقياس بين الحق والباطل. . وهو عنوان تقدم الحديث حوله. . ويأتي مزيد إيضاح إن شاء الله تعالى.

كما ينبغي التنبه أن مما يتفرع على الاقتداء بها عليها السلام تولي الأئمة أمير المؤمنين والأئمة الأحد عشر عليهم جميعاً صلوات الرحمن باعتبار أن مواقفها عليها السلام كانت تصب في هذا الاتجاه.

والعنوان الثالث المتفرع على الاقتداء، الاقتداء بها عليها السلام في باب الطاعة والعبادة «وقل كل يعمل على شاكلته» «**ألا وأنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد**» إن اقتداء كل شخص في مجال الطاعة والعبادة. . وغيرهما إنما هو بحسبه.

أيها الحبيب. . هناك حجبٌ تمنع من القيام بواجب آداب الولاية تجاه الصِّديقة الكبرى عليها السلام، هذه الحجب هي التي أردت أن أقف عندها وهي محور هذا الحديث إن شاء الله تعالى، والمراد بالحجب كل ما يضعف العِلاقة بالصِّديقة الكبرى عليها السلام. هذه الحجب هي كما يلي:

أولاً: روايات مستغربة: أنَّ الإنسان يقرأ في الروايات عن الصِّديقة الكبرى فيجد غرائب، من قبيل أحادث النور كما ذكرت في بعض الأحاديث المتقدمة، أو أن سلمان الفارسي عندما أرسله أمير المؤمنين عليه السلام لاستلام تحفةٍ «هدية من الصِّديقة الكبرى عليها السلام»، وأبادر إلى التنبيه أني سأبيِّن قريباً أنَّ هذا الاستغراب لا يعني أنَّ هذه الأحاديث مرفوضة، أقصد أن ثمة أحاديث يستغربها البعض وأخرى غريبة جداً أو توجد فيها بعض الغرائب، فهي بشكلٍ عام مستغربة.

من هذه الأحاديث: أنَّ الحوريات الأربع نزلن من الجنة على الصِّديقة الكبرى وأتحفنها برطبٍ مِنَ الجنة وأعطت الصِّديقة الكبرى بعضه لسلمان ليفطر عليه، وعندما مرَّ بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قالوا له: يا سلمان أمعك مسك. . ثم في اليوم التالي أخبر الصِّديقة الكبرى أنّه لم يكن لهذا التمر «عجمٌ»

ليس له نوى. . فقالت له عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف يكون له «عجمٌ» وإنما هو نخلٌ غرسهُ الله في دار السلام بكلامٍ علَّمَنِيْه أبي ﷺ كنت أقوله غدوةً وعشية[1].

وما أكثر الروايات من هذا النوع، أشرت في الأحاديث السابقة إلى مسألة أن الزواج كان في السماء، أو مثلاً رواية أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ دخل عليها فقالت له: أخبرك بما يكون إلى يوم القيامة وما شابه. . هذه الروايات المستغربة كيف يمكن أن نتعامل معها؟ هل يصح أن نرفضها أو نُحيِّدها؟ أما الرفض فهو واضح البطلان وأما التحييد فهو خطأ منهجي لا مبرر له على الإطلاق. . رغم أنه أقل مرتبة من الرفض. والمراد بالتحييد أن لا نقترب من هذه الروايات وهو منهج الكثيرين. . إنه منهج من لا يريد أن لايتحمل مسؤولية أن ينفي رواية لكنه يتحمَّل مسؤولية أن لا يطرح هذه الرواية على الناس لأنها غريبة ومتى كان الاستغراب دليلاً علمياً يبرر التحييد الذي هو مرتبة من مراتب الرفض. . وتراكمه يؤدي إلى نفس النتيجة. . ليس دأب العلماء أن يتركوا الأمر المستغرب، إن علماءنا عبر القرون يذكرون أموراً مستغربة لأنها ثبتت أو لأنهم بمقتضى الأمانة العلمية ملزمون عندما يكونون بصدد نقل الروايات أن ينقلوها كما هي، تاركين للأجيال أن تدرس وتحقق. . وما أكثر المسائل التي أثبت التقدم العلمي أنها ليست مستغربة رغم أنها كانت في السابق مستغربة. . ألم يكن مستغرباً أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً لو وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرارتها كما ورد في رواية طويلة أوردها الإمام الخميني في الحديث الأول من كتابه «الأربعون حديثاً» بسنده المتصل إلى الشيخ الصدوق عليه الرحمة والرضوان. . والآن في ضوء «القنبلة الذرية» والطاقة الهائلة الكامنة في الذرة. . ألم يتم تقريب ذلك إلى الأذهان. . فما المانع أن تكون الطاقة الكامنة، في حلقةٍ من سلسلةٍ طويلة، ـ الأمر الذي يقتضي ضخامة الحلقة عادة، ـ يمكنها أن تدمر الدنيا. . . أي أنها تعادل الطاقة الكامنة في آلاف القنابل الذرية. .

مثال آخر: ألم يكن مستغرباً أن الحجر الأسود قد أودعه الله تعالى مواثيق العباد. . فكيف يتم مثلاً تخزين معلومات في حجر. . والآن بعد أن أصبحنا نرى تخزين المعلومات في شريط تسجيل أو في القرص المرن أو القرص الليزري أو

---

(١) المجلسي، البحار ٤٢/ ٦٧.

القرص الصلب.. تَبدد هذا الاستغراب أو عاد إلى الحجم الذي لا يتنافى مع الإذعان به.

إذاً ما أكثر الأمور التي كانت مستغربة وثبت أننا كنا قاصرين عن فهمها.. هذا الأمر يؤكد أنّ التعبد كما قلت لك هو ثمرة ناضجة من ثمرات العقل بل الثمرة الأنضج..

العقل هو الذي يقول: تَعبَّد... العقل يقول أنا أوصلك إلى حيث لا يصح لك بعده أن تجد عندي الجواب.. وبما أني أنا قد أوصلتك فاطمئن.. والتزم.. ولو لم تفهم لأن الأمور أكبر منك ومني.. فتعبد بها.. إن أردت الاعتماد علي.. والإصغاء إلي..

والروايات المستغربة عن الصِّديقة الكبرى كثيرة، أيها الحبيب.. كن على ثقة أنَّ ظُلاَمة الصِّديقة الكبرى في تحييد هذه الروايات ظُلامة كبيرة جداً، علينا أن نقرأ هذه الروايات ونفكر فيها ونبحثها ونبحث في إسنادها، ولا يصح أن نحيِّدها خاصة وأنها أحياناً تتضمن أسراراً في العقائد لا مجال للوصول إليها إلاً منها ولا يجوز أن يكون «التحييد» أو البتر والأجتزاء منهجاً.. إنما هو خيانة علمية وخلل منهجي..

هذه الروايات المستغربة هي من الناحية العلمية إما أن تكون صحيحة ويقصر فهمنا عنها أو أن تكون موضوعة، أو أن المعنى صحيح والراوي نقل النص بالمضمون. أحياناً تجد أنَّ الفكرة العامة للنص فكرة سليمة ولكن هناك بعض العبارات يتوقف الإنسان عندها، ومن الواجب هنا التعامل بأمانة.. فيُنقل النص كما هو ويُدرس دراسة علمية.. وإذا ثبت ننقله كما هو دون أن نعمد إلى خلل منهجي آخر وخيانة علمية أخرى هي «البتر»، إبراز بعض الكتاب وتحييد بعضه.. وهو أخطر من سابقه.. علينا أن نحاول رفع الاستغراب والاستبعاد.. وتقريب المعنى إلى الأذهان.. وإذا ثبت أنَّ السند معتبر فينقل النص كما هو مهما كانت النتيجة، مع محاولة رفع الاستبعاد للآخرين، لأن الواعظ طبيب كما يصرح آية الله الملكي التبريزي رضوان الله تعالى عليه(١).

---

(١) انظر: المراقبات، ط. مكتبة الشفيعي ص١٤٣، مراقبات شهر رمضان.

أشير هنا إلى نصٍّ جديدٍ للإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه لم أورده من قبل حول الاستغراب وإنكار المقامات. . . يخصص الإمام باباً للبحث حول منكري المقامات وطوائفهم، وذلك في كتاب آداب الصلاة طبعة طهران من الصفحة ٢٦٠ إلى الصفحة ٢٦٥ فيقسم الذين ينكرون المقامات إلى أقسام ثلاثة. حول القسم الثالث وهو محل الشاهد هنا يقول رضوان الله تعالى عليه: «وطائفةٌ أخرى عامدةٌ إلى التحصيل العلمي (يعني تهتم بالتحصيل العلمي) فهي مشغولة باكتساب المعارف كعلم مكتفية من الحقائق ومقامات أهل الله بالمصطلحات والألفاظ والمزوّق من العبارات وأفراد هذه الطائفة يحبسون أنفسهم وبعض المساكين غيرهم في قيود الألفاظ والمصطلحات قانعين من جميع المقامات بالأقوال والألفاظ، وعلامة أفراد هذه الطائفة أو هذا القسم ميلهم إلى إرشاد الأغنياء والوجهاء دون الفقراء والدراويش، إذ أنك ترى مريديهم من أصحاب الجاه والمال كما ترى أنهم أنفسهم من المتزيّين بزي الأغنياء وأصحاب الجاه والمال».

أيها الحبيب. . إنَّ إنكار المقامات القائم أساساً على الاستغراب يرجع في الحقيقة إلى جموح إلى التكيُّف مع السائد وهو يكشف عن نقطة ضعف في الذهن والشخصية عموماً، تجعل صاحبها يركز حتى في عمله التبليغي على ما يحقق الانسجام مع الجو العام. . رغم أن المفترض في المبلغ الديني أن يخشى الله تعالى ولا يخشى أحداً غيره. . وأن يكون مع المستضعفين ضد الملأ وضد المترفين والمستكبرين. . والسلطان. . إلا أن ما يقع كثيراً هو خلاف ذلك. . حيث يقف بعض العلماء ضد المستضعفين، وإذا بحثنا عن السبب في ذلك نجد أنه يكمن في الحرص على استرضاء الرأي العام والسائد بين أصحاب الشأن والسلطة والسطوة. . فهو إذاً عجزٌ عن عقد القلب على ما يصدم السائد. . ووقوع في أسر المألوف وهو بعد أحد عوارض المرض العضال. . . الانبهار بالكفر. . والكافرين. .

وهذا هو السبب الذي يجعل البعض على حد تعبير الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه يستشهد في حديثه بكلام اليهود والنصارى ليزيد في قوة كلامه.

على كلٍّ إنكار المقامات والروح الانهزامية وجهان لحقيقة واحدة. . إذاً في باب الروايات المستغربة ينبغي التنبُّه إلى ما تقدم.

حجابٌ آخر: قد يسأل سائل، نريد أن نكوِّن صورة عن الدّور الذي قامت به الصِّديقة الكبرى عليها السلام في زمن رسول الله، أو في حياته عموماً، في زمن المصطفى الحبيب أو بعده، فلا نجد ما يسهم في تكوين صورة عن هذا الدّور. ماذا يريد هذا وأمثاله أن يقولوا؟

يريدون أن يقولوا: إن دور أمير المؤمنين عليه السلام - مثلاً - واضح جداً سواء في زمن المصطفى الحبيب أو بعده. . كذلك دور الإمام الحسين عليه السلام، أو الإمام الحسن عليه السلام.

فما هو دور الصِّديقة الكبرى. . هذه المعصومة العظيمة بين المعصومين التي هي روحُ رسول الله صلى الله عليه وآله روح رحمة الله للعالمين ما هو دورها، طبعاً عندما تُحيد هذه النصوص المستغربة ويُتعاطى مع سيرة الصِّديقة الكبرى على أساس أنها سيرة بنت من بنات رسول الله صلى الله عليه وآله[(1)] وكأن عظمتها عليها السلام تكمن فقط في كونها بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وأن مسألة فدك مسألة تاريخية ينبغي أن لا نتحدث عنها، فماذا يبقى لنا لنفهم موقع الصِّديقة الكبرى عليها السلام أو دورها. . إن ما ينبغي التأكيد عليه هنا. . هو عدم صوابية هذه الطريقة في البحث. . أما أولاً فلأننا استبعدنا كل مواد البحث عبر التحييد والبتر والاجتزاء والرفض دون دليل.

وأما ثانياً: فلأن هذا التساؤل يستبطن حصر «الدور» بالمألوف من الأدوار بحسب المقاييس المادية، علماً بأن حمل نبي مثلاً لرسالة إلَهية يكشف في حدّ ذاته عن دور فريد حتى إذا لم يستجب له ولو فرد واحد. . ولقد كان نبي الله عيسى على نبينا وآله وعليه السلام نبياً في المهد ﴿**وجعلني نبياً**﴾ فهو صاحب دور مميز. . قبل أن يقوم به. . وبمعزل عن القيام به. .

---

(1) أشير هنا إلى أنَّ في خطبة الصِّديقة الكبرى عليها السلام ما يدل على أنه لم يكن للمصطفى الحبيب بنتٌ غير الزهراء عليها السلام وإن تعزوه تجدوه أبي دون نسائكم. . هذه الفقرة شديدة الأهمية. . فهي دليل غير عادي ينبغي الوقوف عندها، ودلالتها أبعد بكثير مما قد يتراءى.

تعالوا لنرى وبهدوء وبروح علمية. . كيف نفهم موقف الصِّديقة الكبرى؟. . فنسأل ما هو دورها؟! تعالوا أولاً لنفهم ما حصل وكيف كان الوضع، وما الذي ترتب على موقف الصِّديقة الكبرى عليها السلام.

إن وجود الإسلام المحمدي الأصيل اليوم وبقاءه عبر الأجيال رهن موقف الصِّديقة الكبرى عليها السلام، لننتبه إلى أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن باستطاعته أن يبادر، كان مأموراً بالصبر لأنَّ المصلحة كانت تقتضي ذلك حتى لا تعلن الردة المستبطنة أو يقتل أمير المؤمنين والنتيجة متقاربة. . إن لم تكن واحدة. . . ولو أنه تصدى للقوم. . لعملوا كل ما في وسعهم لقتله ونجد تصريحاً له بذلك. .

في «شرح النهج» لابن أبي الحديد يقول: سئل عليّ عليه السلام لو كان لرسول الله صلى الله عليه وآله ولد آنست منه قريش الرشد أفهل كانت تدفع إليه الخلافة؟

قال عليه السلام: كانوا يقتلونه إلا أن يفعل ما فعلت. . . الوضع الذي كان مسيطراً هو هذا الوضع. . لم ندرك بعد ورغم القرون الحجم الحقيقي لأحقاد بدر وخيبر وحنين وغيرهن، ولقد أجاد بعضهم حين قال ما خلاصته: في صفين عندما أشرف علي عليه السلام على الانتصار كان سيضع حداً للانحراف. . . فجأة نجد أنه تحول من قائد جيش إلى محاصر من جيشه، لقد تصاعدت وارتفعت وتيرة الحقد عليه لأنهم رأوا أنه إذا سيطر على معاوية وثُنيت له الوسادة فماذا سيفعل بقريش وغير قريش، هذا بعض مظاهر حقد القوم على عليّ عليه السلام لم يكن «سلام الله عليه» قادراً على التصدي، كان ممنوعاً من التصدي، إذاً مَن للإسلام والقرآن. . مَن لتسجيل الموقف الإلٰهي المصيري الذي يحفظ الله تعالى به ذروة رسالاته؟. . من يحفظ جهود الأنبياء جميعاً. . لولا الصِّديقة الكبرى عليها صلوات الرحمٰن لما كان باستطاعة مسلم أن يدرك الحقيقة، أريد أن أقول أكثر من ذلك إنَّ موقف الصِّديقة الكبرى بعث الروح في كل الأدلة على ولاية أمير المؤمنين «سلام الله عليه»، بين أيدينا الآن ما كتبه العلماء عبر القرون كان بالإمكان أن يطمس نص الغدير رغم شدة وضوحه. . بل وجميع النصوص الأخرى على الإمامة لو لم يتضح كيف تصرف القوم مع وديعة المصطفى صلى الله عليه وآله في أمته. .، فأصبح بالإمكان أن يتنبه صاحب الضمير الحي إلى خطورة ما جرى، شرَّق في قراءة نصوص

الإمامة والولاية أو غُرِّب. . ستجد أنك مشدود إلى النقطة المركزية. . . لتنطلق منها في فهم هذه النصوص ألا وهي موقف الصِّديقة الكبرى. . .

جميع مواقف رسول الله ﷺ كان بالإمكان أن تطمس، جميع تصريحات عليٍّ عليه السلام في الخطبة الشقشقية التي جاءت بعد الخطبة الفاطمية بربع قرن كان بالإمكان أن تطمس، أمر واحد لم يستطيعوا طمسه، أن الصِّديقة الكبرى بنت رسول الله ﷺ التي ليست طرفاً في الحرب والنزاع العسكري سجلت هذا الموقف، وينبغي أن نتنبّه هنا إلى أن مكانة الصِّديقة الكبرى في قلوب المسلمين جميعاً تكشف عن الدور العظيم الذي كان لها في حياة رسول الله ﷺ.

نعم لعمرك أيها الحبيب. . كان بالإمكان أن تطمس جميع تأكيدات رسول الله ﷺ. . وجميع تصرحيات علي عليه السلام. . إلا أن الصِّديقة الكبرى التي لم تكن طرفاً في الصراع العسكري مع جيش الانقلاب على الأعقاب سجلت هذا الموقف صادرة فيه من عظيم رصيدها المعنوي لدى الأمة. . ذلك الرصيد الهائل الذي فرض على القوم أن يعمدوا رغم كل المظالم التي أنزلوها بها. . . إلى التراجع و التظاهر بطلب رضاها.

لم يستغرق قتل أمير المؤمنين لعمرو بن ود العامري من الوقت إلاأقل مما استغرقته الخطبة الفاطمية في المسجدالنبوي،ومع ذلك فهي بنص من كلامه وحي تعدل عبادة الثقلين أو أفضل منها. .ونظل أسرى ارتهان عظمة الموقف لطول المدة وغيره من التسطيحات!!

وإذا جئنا إلى خصوصيات موقف الصِّديقة الكبرى عليها السلام نجد أنها كما أشرت في خطبتها في حديث آخر قد أعلنت الحرب على من!؟. . علي شيوخ المهاجرين والأنصار «وهي على علم بالخذلة التي خامرتهم» لكنها تعلن الحرب، ويكفي في إعلان الحرب. هذا أن يكون مقياساً للأجيال لتخوض هي غمار هذه الحرب في ميادين البحث عن الحقيقة المحمدية. .وهاهي الأجيال تأتمر رغم خذلان من خاطبتهم الصديقة الكبرى وهي تعلم أنهم لايأتمرون.

تقول الصِّديقة في خطبتها: **«ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ألا**

قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنَّ الله لغنيٌّ حميد».

أي دور يمكن أن يكون أعظم من هذا الدور؟ لنفترض أن شخصاً قام بانقلاب ويريد أن يقضي على ثورة عظيمة جداً وجاء شخصٌ آخر وأبطل مفعول هذا الانقلاب.. أوَلا يكون هذا الشخص قد قام بدورٍ عظيم.. لقد أبطلت الصِّديقة الكبرى عليها السلام مفعول أخطر انقلاب في تاريخ البشرية ولولا ذلك لاستحكمت الفتنة وخيم الظلام.

ولما كان بالإمكان الوصول إلى الحقيقة الإسلامية الواضحة.. والإسلام المحمدي الأصيل.. وفي هذا السياق لا بدَّ من الوقوف طويلاً عند بكائها عليها السلام على المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله، فقد كانت الصِّديقة الكبرى عليها السلام تجسِّد قيادة «المعارضة» آنذاك.. وبالإضافة إلى أن بكاءها هو تفجع طبيعي لفقد الأب وخير خلق الله تعالى، إلا أنه كان في نفس الوقت موقفاً يهزُّ أركان نظام الانقلابيين على الأعقاب، لذلك لا يجوز أن نحجم أثر هذا البكاء فتستبعد عقولنا المحدودة أن يكون ما ورد حوله صحيحاً، معتمدين في ذلك على «تحليلات» باهتة.. من قبيل: وهل يعقل أن يرتفع صوت الصِّديقة بالبكاء ليتأذى الآخرون من بكائها..

ومن قال إن الأمر كان كذلك.. إلا العقول السقيمة والأفهام المعوجة التي افتعلت مشكلة وتورطت فيها.. فصارت تخبط خبط عشواء..

لا يمكن فهم ملابسات بكاء الصِّديقة الكبرى عليها السلام بمعزل عن العناصر التالية:

١ ـ أن الصِّديقة كانت تقود حركة المعارضة ضد الانقلابيين على الأعقاب.

٢ ـ ورصيدها في نفوس المسلمين كبير جداً.

٣ ـ كان احتشاد النساء في بيتها أمراً طبيعياً بسبب الفجيعة بالمصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله.. ومن الطبيعي أيضاً أن يزداد في ظل أجواء الظلامات التي حلت بها من القوم.

٤ ـ كانت الصِّديقة الكبرى تطرح ظلامتها في تلك المجالس، لاحظ خطبتها في مجلس نساء الأنصار «أصبحت عائفة لدنياكن».

وتعني هذه العناصر بكل جلاء أن مجلس الصِّديقة . . كان تجمُّعَ المعارضة التي تقودها قرة عين الرسول وروحه التي بين جنبيه. . الأمر الذي جعل هذا المجلس ـ التجمع ـ بل التظاهرة يقضُّ مضاجع «المستولين» فلا شيء يقلق «الانقلابي» كتجمهر الناس حول قيادةٍ معارضة تمتلك عميق المصداقية والقداسة في النفوس. . . وحيث أن بكاء الصِّديقة الكبرى كان يبكي الحاضرين ـ كما حصل في المسجد أثناء خطبتها ـ مع إضافة عنصر أن بكاء النساء من نوع آخر. . وتفجعها بينهن يختلف جذرياً عن تفجعها المكتوم في المسجد. . لذلك رأى القوم أن استمرار هذا المجلس التظاهرة يُنذر بأسوأ العواقب فتذرعوا بالضجة التي ترافق التجمع الحاشد والبكاء المتفجع ليتخلصوا من عبءٍ سياسي ثقيل كان يضيق الخناق عليهم. . .

لا تــرانــي اتــخــذت لا وعــلاهــا   بــعــد بــيــت الأحــزان بــيــت سُــرور

الحجاب الرابع: من الحجب التي تحول عادة بيننا وبين معرفة عظمة الصِّديقة الكبرى وفرادة ما قامت به لحفظ الإسلام. . . عدم فهم أبعاد وصيتها بأن تدفن ليلاً. . حتى لا يشارك القوم في تشييعها. . فقد يفهم ذلك باعتباره مجرد تسجيل موقف معارض آلي ينطلق من ردة الفعل. . تماماً كما يوصي من يكره شخصاً بعدم السماح له بالمشاركة في تشييعه. . أو الصلاة عليه. . والحقيقة التي لا لبس فيها على الإطلاق أن من أذهب الله عنها الرجس وطهّرها تطهيراً التي يرضى لرضاها ويغضب لغضبها منزّهةٌ ساحة قدسها عن المواقف المرتجلة والآنية وردّات الفعل. .

ولنفترض أن القوم شاركوا في تشييعها أو صلى أحدهم عليها والعياذ بالله. . فماذا كان يبقى للأجيال حين تريد استكشاف الحقيقة. . .

ألم يكن ذلك وحده لو حصل كفيلاً بطمس كل معالم معارضتها. . والقضاء بالتالي على الموقف الأبرز الذي يوجه المنصف إلى البحث بجدية أكثر في جميع الأدلة على الإسلام المحمدي الأصيل، إن عدم السماح للقوم بتغطية «انقلابهم» موقف ريادي يجب أن تخشع في محرابه كل القلوب الموحدة عبر القرون. . .

وما تزال تداعياته.. وستبقى حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، إنه حكم الله تعالى في حق القوم من فوق سبع سماوات.. وهو عين إرادته عزَّ وجل التي قضت بحفظ دينه من التحريف والتزييف.

يكفي الآن.. وفي أي وقت أن يسأل المسلم نفسه: طالما أن رسول الله ﷺ أوصى بالصِّديقة الكبرى.. إلى هذا الحد.. فلماذا دفنت ليلاً.. «وهي غاضبة عليهما» هذا السؤال وحده يجعله يعيد النظر في كل شيء.. وهو ما أرادت الصِّديقة الكبرى إيصاله إلى الأمة.. وإيصال الأمة إليه «بأبي أنتم وأمي وأهلي وولدي ومالي وأسرتي من أراد الله بدأ بكم».

الحجاب الخامس: عدم فهم حقيقة مطالبة الصِّديقة الكبرى بفدك.. الأمر الذي قد يتيح للشيطان أن ينفث في قلب هذا أو ذاك أو على اللسان.. ولماذا نقحم أنفسنا في خلاف عقاري وقع بين طرفين قبل قرون؟!!

وحيث أنه يجري عادة تسليط الضوء على حقيقة مسألة «فدك» فإني أكتفي هنا ببعض الإشارات:

أولاً: تعني «فدك» من وجهة نظر الصِّديقة الكبرى وأهل البيت عموماً شأن الخلافة الإسلامية والوصاية.. والولاية.. وفي حديث الإمام الكاظم عليه السلام مع هارون المسمى بالرشيد حول أن حدود فدك هي حدود العالم الإسلامي خير دليل على ذلك.

ويؤكده قول أمير المؤمنين عليه السلام: **«وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غدٍ جدث»**... فلم تكن المسألة في إطار استحصال قطعة أرض وحسب..

ثانياً: قال ابن أبي الحديد في «شرح النهج»:

«قال لي علوي في «الحلة» يعرف بعلي بن مهنا ذكي ذو فضائل: ما تظن قَصْدَ أبي بكر وعمر بمنع فاطمة فدك؟

قلت: ما قصدا؟ قال: أرادا ألا يُظهرا لعلي وقد اغتصباه الخلافة رقة وليناً، ولا يرى عندهما خَوَرا فأتبعا القُرح بالقرح.

أضاف:

وقلت لمتكلم من متكلمي الإمامية يعرف بعلي بن تقي من بلدة «النيل»: وهل كانت فدك إلاَّ نخلاً يسيراً وعقاراً ليس بذلك الخطير؟

فقال لي: «ليس الأمر كذلك بل كانت جليلة جداً وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل، وما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلا ألا يتقوّى علي بحاصلها وغلتها على المنازعة في الخلافة ولهذا اتبعا ذلك بمنع فاطمة وعلي وسائر بني هاشم وبني المطلب حقهم في الخمس، فإن الفقير الذي لا مال له تضعف همته ويتصاغر عند نفسه، ويكون مشغولاً بالاحتراف والاكتساب عن طلب الملك والرياسة»[1].

الحجاب السادس: ملحق خطبة الصِّديقة الكبرى عليها السلام في المسجد الذي روي أنها خاطبت به أمير المؤمنين عليه السلام بعد رجوعها من المسجد وهو يتضمن «توبيخاً»!!! لأمير المؤمنين عليه صلوات الرحمٰن خصوصاً هذه العبارات «اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريش الأعزل (...) أضرعت خدك يوم أضعت حدك، افترست الذئاب وافترشت التراب، ما كففت قائلاً ولا أغنيت باطلاً (...) عذيري الله منك عادياً ومنك حاميا..!!».

وهي عبارات لا يمكن بأي وجه من الوجوه إطلاقاً الموافقة على تفسيرها المتداول الذي يجعل أمير المؤمنين عليهما صلوات الرحمٰن في موقع من يتحمل مسؤولية التقصير في نصرتها عليها السلام... حيث أن ذلك لا ينسجم مع عصمتهما عليهما السلام، فإذا كان الأمير عليه السلام مخطئاً في موقفه بطلت عصمته... وإذا كانت هي مخطئة في لومه وتقريعه بطلت عصمتها.. كما أنه لا ينسجم مع وصف الصِّديقة لأمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة نفسها، وهو وصف يفوق أي مديح ويكشف عن قناعتها بصوابية أي موقف يتخذه حيث تقول: «**كلما أوقدوا**

---

(١) شرح النهج ١٦/ ٢٣٤. وبديهي أن الفقرات الأخيرة لا تنطبق على المولى عليه صلوات الرحمٰن.

ناراً للحرب أطفأها الله أو نجم قرن للشيطان وفغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه مكدوداً في ذات الله مجتهداً في أمر الله قريباً من رسول الله ﷺ سيداً في أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجداً كادحاً. . .».

ورغم أن القول الفصل في شأن هذا «الملحق؟» بحاجة إلى بسط القول والتحقيق. . أكتفي هنابتسجيل ما يقوى في النفس من أن بعض فقراته حلقة من مسلسلٍ تكشفت الكثير من فصوله يهدف إلى «إثبات» أن علياً عليه السلام، أيضاً قد آذى الصِّديقة الكبرى وعليه فإن إيذاء القوم لها لا يستوجب الكفر أو الأذى لله ورسوله!!

أراد وعاظ السلاطين من هذه الفقرات وأمثالها وبثها في مطاوي «السيرة» الوصول معهم إلى «تسوية» تحملنا على عدم الإصرار على تظهير النصوص التي تضمنت الحديث عن عقاب من آذى الصِّديقة وأغضبها، وتندرج في هذا المسلسل افتراءات جمة من قبيل ما وضعوا منَ نيّة أمير المؤمنين أن يتزوج بنت أبي جهل! في حياة المصطفى الحبيب ﷺ وكلام المصطفى على المنبر حول ذلك أو شكاية الزهراء المرتضى لأبيها صلوات الله عليهم وآلهم. . . وغير ذلك. . إلا أن جميع ما وضعوا لا يرقى تأثيره إلى مستوى «الإلحاق؟» بخطبة الصِّديقة الكبرى التي تشكل الوثيقة التاريخية الأخطر «ما يبطل» مفعولها. . حيث أنه يجعل الخطبة ذات شقين، شق موجّه إلى القوم والآخر موجّه إلى أمير المؤمنين عليه السلام!!!

ويغلب على الظن أن هذا الوضع المحترف وأمثاله من إنتاج الجاحظ وأضرابه. . وعسى أن يوفق الله تعالى لبحث هذا الأمر وتقديم الأدلة عليه.

يتلخص مما تقدم أن الحجب التي تحول دون آداب ولاية الصِّديقة الكبرى عليها السلام ستة هي دون مراعاة التسلسل كما يلي:

أولاً: شطب الروايات المستغربة دون إخضاعها للبحث العلمي.

ثانياً: الجهل بحقيقة المطالبة بفدك.

ثالثاً: الجهل بعظمة موقفها بعد المصطفى الحبيب في المسجد النبوي.

رابعاً: الجهل بحقيقة دلالات ما اصطلح عليه «بالبكاء» و«بيت الأحزان».

خامساً: الجهل بدلالات الدفن ليلاً.

سادساً: الفهم الخاطئ للنص الذي يورد عادة في ختام الخطبة.. مع أنه منفصل عنها تماماً.

سابعاً: وقد اتضح من مطاوي ما سبق الفهم الخاطئ لمبدأ الوحدة الإسلامية المقدس، وهو إذ يشكل حجاباً مستقلاً من خلال حمل البعض على تجاوز الوقوف على عتبة تلك الفترة الحرجة من عمر الإسلام.. بهدف الوصول إلى الحقيقة.. فإنه بالإضافة إلى ذلك أخطر من جميع الحجب المتقدمة حيث يفسح في المجال أمام تكثيفها جميعاً كما هو واضح.

والحمد لله رب العالمين

(١١)

آداب ولايتها عليها السلام .. وأخطر الحُجُب[1] ..

* تمهيد.
* مدى حضور العقل والقلب معاً في معرفتها عليها السلام.
* أهم عوامل الجهل بعظمتها عليها السلام.
* أشدها خطراً.. اثنان..
* نظرة متأنية في الموقف الفاطمي الفريد..
* تحقيق حول ملحق الخطبة..

---

(١) أعدّ هذا الموضوع تكثيفاً لبعض المفاصل التي تم تناولها.. واستكمالاً لما ورد في آخر الحديث السابق وليس من عداد الدروس.. فليلاحظ.

(١١)

شهر رمضان ١٤٢٢هـ

تتحكم الصورة الذهنية عن أي شخصٍ بالموقف منه إيجاباً وسلباً... على هذا الأساس ينبغي طرح هذا السؤال: ما هي الصورة في أذهاننا ـ عادة ـ عن الصِّديقة الكبرى وعظمة شخصيتها الإلَهية الفريدة؟

قد يحلو للكثير منّا أن يلجأ في الجواب على السؤال إلى «العقائد» فيستحضر عصمتها والآيات الخاصة بها.. أو العامة.. والأحاديث القدسية.. والروايات... وجميع ذلك حق لا ريب فيه.. إلا أن موضوع السؤال شيء آخر؟

إنه بعبارة ثانية: كم من هذه النصوص استطاع أن يصل من العقل إلى القلب ليتفاعل القلب معه ويستخلص صفوته فَيُحِلَّها حيث تستحق من الدائرة التي تتحكم بالوجدان والمشاعر والأحاسيس؟

تارة يكون السؤال ما هي عقيدتك بالصِّديقة الكبرى.. وطوراً يكون: ما هي معرفتك بها؟

وقد تكون العقيدة محض انسجام مع الدليل والحجة.. والتسليم العقلي لهما، تسليم الجاهل بما هو أبعد من كل آفاقه، ثقة بالمقدمات واعتماداً عليها، أما المعرفة الفاعلة المحركة المعبَّر عنها هنا بالصورة الذهنية بما هي ثمرة تفاعل القلب مع ما عقد عليه من نتاج العقل.. فهي شيء آخر غير الأعتقاد المقونن الممكنن بالبرهان وضوابطه الحديدية الجافة.

ليست المعرفة التي يُلمح إليها السؤال شيئاً من هذا.. وهي في الوقت ذاته هذا كله وزيادة.. تماماً كما أن الرحيق.. والشذا المتضوع.. ليس الزهر بتموجاته.. وهو كله وبامتياز..

لا تنافي بين حركة العقل في المعرفة.. وحركة القلب.. بل يقع التنافي حين يتخذ كل منهما مسرباً له وسبيلاً بمعزل عن الآخر... إنهما معاً.. إنسانية الإنسان وفطرته الصافية.. وجوهره النقي...

يريد لنا السؤال أن يعرف كل منّا مدى حضور عقله وقلبه معاً في باب معرفة الصِّديقة الكبرى. . «وعلى معرفتها دارت القرون الأولى». . والأخيرة. .

ولدى الدخول في تفاصيل السؤال يجد كل فردٍ نفسه أمام التساؤلات التالية:

- هل «أعرف» شيئاً عن نور الزهراء قبل أن يخلق الله تعالى الخلق؟

أكرر أن السؤال ليس عن «الاعتقاد». .

- هل «أعرف» حقاً. . أن عَظمتها لا تكمن على الإطلاق في مجرد أنها بنت رسول الله ﷺ؟.

- هل «أعرف» شيئاً عن موقعها في منظومة المعصومين. . إن مجرد وجود رأي لفريق كبير من كبار العلماء يستند إلى روايات كثيرة. . حول أنها أفضل من جميع الأنبياء باستثناء المصطفى الحبيب وهي «روحه التي بين جنبيه» كافٍ في إلحاح السؤال: هل تنسجم معرفتي لها مع عظمتها، حتى مع قطع النظر عن الرأي الحاسم في ذلك؟

- هل «أعرف» أن هذه الشخصية الإلٓهية النبوية الفريدة هي التي أراد الله تعالى أن يبطل على يديها مفعول أخطر ثورة مضادة لثمرة خط النبوات وخاتمة الرسالات، الأمر الذي يكشف جانباً من معنى الحديث القدسي: «**ولولا فاطمة ما خلقتكما**» الذي نحسن فهمه إذا جعلناه وقوله تعالى: ﴿**وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**﴾ بمعنى واحد لدى التحقيق. . وإمعان النظر. . .

والنتيجة: هل يخشع القلب في محراب عظمة الصِّديقة الكبرى فيفقه بعض دلالات أنها من المعدن المحمدي والحقيقة المحمدية ﷺ دون أن تدخل الأبوة والبنوة - على عظمتها - في الحساب؟

وأنها من حيث الموقع و«الدور». . في حفظ دين الله تعالى وهو خط العقل والإنسانية السواء تضاهي الأنبياء والأولياء. . على أقل تقدير. . بل تفوق أكثرهم. .

حقاً. . ما هي الصورة في ذهني وذهنك عن الصِّديقة الكبرى عليها صلوات الرحمٰن.

لتوضيح بعض الخصوصيات التي تضعنا في بداية الطريق. . لنصل - إن سلكناه - إلى التدرج في التعرف على مكامن العظمة الفاطمية المستمدة من التبتل وهو الانقطاع إلى الله تعالى. . يجدر الوقوف على عتبة قرة عين المصطفى الحبيب. . نحفي بابها السؤال ونستخبره الحال.

والهدف بالتحديد، أن ندرك أي منحدر صعب ننحدر حين تكون الصورة الذهنية المتحكمة بآداب ولايتنا للزهراء عليها السلام. . أوهى من بيت العنكبوت تتلخص في أننا أمام مثقفة مؤمنة صابرة منحت أباها العطف والحنان. . ورضيت بعلي - رغم فقره - وارتجلت خطبة تُعجز البلغاء. . وتكشف عن مدى الحضور والوعي المميزين!.

إن هذه الصورة المشوشة المغلوطة. . نتيجة طبيعية لعوامل تضافرت لتوصلنا إلى هذا المنحدر، ويمكن تلخيص هذه العوامل بالتالي:

أ - الإعراض التام أو النسبي عن الروايات «الغيبية» حول عظمتها عليها السلام كروايات النور، وروايات التزويج بأمر الله تعالى، وحفل الزفاف في السماء، وكراماتها من قبيل «الجفنة» و«التمر بلا نوى» وغير ذلك.

ب - الوقوع في أسر ربط العظمة بالموقع «الدنيوي» وإن كان دينياً. . أي بموقع السلطة الظاهرية حتى إذا كانت ناتجة باستحقاق عن سلطة إلَهية باطنية. . الأمر الذي يتحكم - ولو عبر اللاوعي - بالصورة الذهنية التي ترتسم عن الشخص. . فيتراءى لنا خطأً أن الصِّديقة عليها السلام لا تأتي في مرتبة المعصومين الأنبياء والأئمة الذين أحلهم الله تعالى هذا الموقع بما له من سلطة ظاهرية بقطع النظر عن القدرة على إعمالها وعدمه. .

ومن الواضح لدى التأمل أن الموقع الإلَهي لا يرتبط بالسلطة الظاهرية بالفعل أو بالقوة فقد كان نبي الله موسى على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام نبياً وأمره الله تعالى أن يتتلمذ على يد عبد صالح آتاه الله تعالى من لدنه علماً. . ولم يكن نبياً. . أو لم تثبت نبوته، فقد يكون صاحب الموقع والمنصب الديني ذي الأبعاد الدنيوية أفضل خلق الله تعالى كما هو الأمر بالنسبة لرسول الله ﷺ وقد يكون صاحب الموقع والمنصب دون غيره ممن ثبتت لهم خصوصية إلَهية، وأقل

مرتبة.. وليس المراد دون غيره على الإطلاق ليستلزم ذلك جواز تقديم المفضول على الفاضل.. فالحديث هنا حول أن الأفضلية لا ترتبط بالبعد الظاهري من الموقع الإلّهي.. كالسلطة مثلاً..

بناءً على هذا.. إن كون الصِّديقة الكبرى عليها السلام معصومة من المعصومين الأربعة عشر.. وعدم كونها إماماً أو نبياً لا ينبغي أن يوحي للوعي فينا أو اللاوعي بظلال سلبية تترك أثرها في الصورة التي ترتسم في الذهن لتشكل مفتاح العلاقة بها.. ورمز آداب الولاية تجاهها..

ج ـ تحكم الرواسب الجاهلية والعادات والتقاليد حول النظرة إلى المرأة في دائرة الوعي.. واللاوعي والثاني أكثر شيوعاً، مما يحول دون تبلور ثقافة إسلامية حقيقية تعترف للمرأة بجدارة تبوُّء أسمى المراتب الإيمانية.. فالإسلام يخاطب الإنسان.. لا فرق في ذلك بين المرأة والرجل... واختلاف الوظيفة لا يعني إطلاقاً اختلاف المنزلة الإيمانية التي يمكن الوصول إليها..

على هذا الأساس فإن مصطلح «سيدة نساء العالمين» يزخر عندما نطلقه ـ عادة ـ بهذه الرواسب.. الأمر الذي يقصر بنا عن التفاعل مع آفاق دلالته الرحيبة.. ولا شك أن هذا العامل يتفاعل تلقائياً مع سابقه.. فيزداد اللبس ويشتد الإبهام.

د ـ انتشار خلل إنزال المعصومين في غير مرتبتهم التي رتبهم الله تعالى فيها.. ليصل الأمر في التعاطي مع المعصوم إلى حد وكأنه «عالم بامتياز» كما تقدم في بعض الأحاديث السابقة.. وهو ما يترك أثره البعيد على النظرة إلى الصِّديقة الكبرى ومعرفتها عليها السلام.. فإذا كانت النظرة إلى المعصوم الرجل هي هذه فكيف هي إذاً بالنسبة إلى المرأة المعصومة.. في ظل الرواسب المشار إليها.

هـ ـ انتشار الجهل بعظمة موقفها الإلّهي النبوي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.. وبعيد آثاره المركزية والجذرية في حفظ الإسلام واستمراره، مع إمكان التمييز بوضوح بين الإسلام المحمدي الأصيل والإسلام المفترى.. ومن مظاهر انتشار هذا الجهل:

أ ـ الإصرار على تسمية خطبتها في المسجد النبوي.. بالخطبة الفدكية..

وكأن الدافع في الخطبة «عقاري»! ولئن كانت التقية تبرر ذلك سابقاً، فما هو مبرره الآن؟

ب ـ تفسير كلامها الموجه إلى أمير المؤمنين عليه السلام الذي يدرج عادة في ختام الخطبة بما يوحي بأنها ـ والعياذ بالله ـ من أجل هذا العقار «تجاوزت حدودها» مع علي عليه السلام، الأمر الذي يترك ظلاله السيئة جداً على موقفها في المسجد فيعزز في الأذهان الاحتمال «العقاري» المتقدم. . كما يترك ظلاله السيئة جداً حتى على موقع المرتضى والصِّديقة عليهما السلام في النفس وصورتهما في الذهن، فإذا أضفنا إلى ذلك خطورة التفسير الخاطئ لبشرية المعصوم. . أصبحت الظلال السيئة المذكورة. . أشد وضوحاً. .

ج ـ تجنب الحديث عن ظلامتها عليها السلام، إما بحجة أن هذه الأبحاث تاريخية ولم تعد مُلِحَّة، أو من منطلق التشكيك. . أو انسياقاً مع فهم خاطئ لمفهوم الوحدة الإسلامية، أو تحت تأثير ذلك كله. . علماً بأن ما يرتبط بحركة المعصوم في التبليغ لا يمكن إلاَّ أن يكون في متن الاهتمام. . وكما تقدم. . كيف يعقل أن تكون ناقة صالح ناقة الله تعالى ولا يكون باب فاطمة باب الله عزَّ وجل؟

وبهذا يظهر مدى التجني المتمثل في التشكيك.

ثم إن الوحدة الإسلامية ـ كما أسلفت مراراً بالتفصيل ـ لا يمكن أن تقوم على التحريف. . إن من أولى واجباتنا الشرعية حفظ الوحدة بين المسلمين جميعاً. . إلاَّ أن هذا لا ينافي البحث العلمي الذي يحرص على إبقاء الأمور في دائرة البحث والتحقيق. . وإذا كان ثمة من يثير حفيظته البحث العلمي، وحرية التعبير الملتزم فتلك هي مشكلته التي يجب أن يبحث لها عن حل. .

وهذا العامل «انتشار الجهل بعظمة موقفها» بعد وفاة المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله هو الأخطر من بين كل الحجب التي تحول دون القيام بواجب آداب ولاية الصِّديقة الكبرى عليها السلام.

لذلك ستكون الوقفة معه بشيءٍ من التفصيل. . إن شاء الله تعالى وذلك ضمن المحورين التاليين:

١ ـ انتقال السلطة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢ ـ ما ورد من كلام الصِّديقة الكبرى الموجَّه إلى أمير المؤمنين عليه السلام،

المحور الأول:

يجب على كل مسلم أن يطيل التأمل بما جرى بعد رسول الله ﷺ..

انطلاقاً من قوله تعالى: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يَضرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾** [آل عمران: ١٤٤].

حيث أن هذه الآية المباركة تتحدث عن وقوع انقلاب على الأعقاب بعد فقد سيد النبيين ﷺ، ولئن شكك أحد بدلالة صيغة الاستفهام على الوقوع. فلا مجال للتشكيك بصيغة الخبر على ذلك.. علماً بأن صدر الآية يشير إلى ما روي بطرق المسلمين جميعاً عن وقوع هذه الأمة في ما وقعت فيه الأمم السابقة..

فكيف تم انتقال السلطة بعد المصطفى الحبيب.. وهل وقع انقلاب على الأعقاب أم لا؟

التصور الأولي الأكثر شيوعاً هو أن عملية انتقال السلطة تمت بمنتهى اليسر. وبإجماع الصحابة ما خلا عددٍ قليل جداً منهم؟

فأين الانقلاب على الأعقاب إذاً؟

والحقيقة أن الأمر يختلف جذرياً عن هذا التسطيح للأحداث..

ولئن كانت السلطات المتعاقبة قد أسهمت في طمس معالم الانقلاب المدوي.. فإن ما أسهم في تحقيق ذلك أمران:

الأول: أن الانقلاب لم يتلون بلون الدم.. فلم يقتل أحد سوى ما روي عن مقتل سعد بن عبادة بعد مدة بسهام شعراء من الجن!

والثاني: إسهام الكثيرين منا في طمس معالم عظمة موقف الصِّديقة الكبرى عليها السلام وبعيد آثاره عبر الأجيال.. فما تزال تفاعلاته قائمة.. رغم أن التعتيم عليه ما يزال هو الآخر قائماً.

ولا تنجلي صورة ما حدث بعد وفاة رسول الله ﷺ إلاَّ بملاحظة العناصر التالية:

أ ـ التأكيد المستمر من رسول الله ﷺ على إمامة علي عليه السلام وأنه الخليفة

من بعده بدءاً من نزول ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ إلى حديث الدواة والكتف.. على فراش الرحيل إلى الملأ الأعلى.

ب ـ أمره ﷺ بتجهيز جيش أسامة تمهيداً للانتقال المطلوب للسلطة..

ج ـ إعداد الانقلابيين على الأعقاب العدة.. وأهم مفرداتها ملأ شوارع المدينة وسككها بالقوات الموالية للانقلاب ومن قبيلة «أسلم» بشكل خاص.. وهو ما يعني احتلال المدينة المنورة عسكرياً وبشكل سري مدروس.. تمهيداً لساعة الصفر.. فإذا استدعى الأمر التدخل.. فالقوات جاهزة.. ومن المهم جداً التأمل في هذا المجال في النصوص التالية:

يروي الطبري: «أن «أسلم» أقبلت بجماعتها حتى تضايق بهم السكك (أي ملأوا الشوارع والأزقة) فبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول: ما هو إلا أن رأيت «أسلم» فأيقنت بالنصر»[(١)].

ويتحدث ابن الأثير عن ذلك بأسلوب آخر فيقول: «وجاءت أسلم، فبايعت، فقوي بهم أبو بكر.. وبايع الناس بعدُ»[(٢)] ويدلنا على موقف «أسلم» المتبني لانتقال خاص للسلطة ما تقدم من قول عمر: ما هو إلا أن رأيت «أسلم» فأيقنت بالنصر»[(٣)].

كان الوضع في المدينة عشية وفاة المصطفى ﷺ كما يلي:

١ ـ قوات «أسلم» تملأ الشوارع والسكك (الأزقة!)، تنفيذاً لأمر دُبِّرَ مع «المهاجرين» بليل.

٢ ـ الأنصار خائفون.. يحاولون أن تكون الخلافة لهم.. خوفاً من انتقام

(١) المحقق الأستاذ علي الشاوي، الإمام الحسين في المدينة المنورة، ص٨٨ نقلاً عن الطبري ٢/ ٤٥٩؛ وفي نسخة من «برنامج مكتبة التاريخ والحضارة»، الطبري ٢/ ٤٥٨، ٤٥٩؛ وفي نسخة أخرى: الطبري ٢/ ٢٤٤.

(٢) المصدر، نقلاً عن الكامل لابن الأثير ٢/ ٣٣١. وفي برنامج «الكامل» إصدار «سما» ٢/ ١٩٤.

(٣) المصدر، نقلاً عن الطبري ٢/ ٤٥٩، وفي «برنامج مكتبة التاريخ والحضارة» ٢/ ٢٤٤.

قريش منهم لمواقفهم في نصرة رسول الله ﷺ.. وهو ما حصل فعلاً في وقعة الحرة كما ينقل ابن أبي الحديد عن أبي جعفر يحيى بن جعفر العلوي.

٣ ـ التنافس بين الأوس والخزرج ثغرة تؤدي إذا أحسنت الاستفادة منها إلى أن تكون الخلافة في غيرهم.. ولقد كان أول من بايع بشير بن سعد[١] من الأوس حذراً من أن تصير الخلافة إلى سعد بن عبادة من الخزرج.. ولذلك قال الحباب بن المنذر لبشير حين رآه يبايع أبا بكر: «والله ما أخطرك إلى هذا الأمر إلا الحسد لابن عمك».

وقد قال أسيد بن حضير رئيس الأوس لأصحابه: والله لئن لم تُبايعوا ليكونن للخزرج عليكم الفضيلة أبداً[٢]..

٤ ـ كراهية أبناء الطلقاء والمؤلفة قلوبهم وهم عمدة المهاجرين، انتقال السلطة إلى علي عليه السلام.

ومن الواضح أن النتيجة الطبيعية لهذه العناصر التي تشكلت منها صورة الوضع عشية وفاة رسول الله ﷺ، هي انتقال السلطة إلى المهاجرين من غير بني هاشم.. وذلك إذا تم اغتنام الفرصة.. بأخذ البيعة قبل أن يخرج بنو هاشم من هول الصدمة والانشغال بتجهيز النبي ﷺ.

قال الشيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه:

واغتنم القوم الفرصة لشغل علي بن أبي طالب عليه السلام برسول الله ﷺ وانقطاع بني هاشم عنهم بمصابهم برسول الله ﷺ فبادروا إلى ولاية الأمر واتفق لأبي بكر ما اتفق، لاختلاف الأنصار في ما بينهم وكراهية الطلقاء والمؤلفة قلوبهم من تأخر الأمر حتى يفرغ بنو هاشم فيستقر الأمر مقره، فبايعوا أبا بكر لحضوره

---

(١) القمي، بيت الأحزان، ص٥٧، وهو والد النعمان بن بشير والي الكوفة عند دخول الشهيد مسلم بن عقيل إليها.

(٢) شرح النهج، لابن أبي الحديد. وفي بيت الأحزان، للقمي، ص٥٧ نص آخر متحد معنى مع ما ذكر. وانظر: الطبري ٢/٤٥٨، برنامج المعجم الفقهي، الإصدار الثالث..

المكان. . وكانت أسباب معروفة تيسر للقوم منها ما راموه وليس هذا الكتاب موضوع ذكرها فنشرح القول فيها على التفصيل»[1].

ورغم أن ما تقدم يدل على أن انتقال السلطة لم يكن هادئاً. . فإن التأمل الدقيق. . والتتبع يقودان بوضوح إلى شديد حراجة الجو الذي تم فيه هذا الانتقال. .

ويسلط المزيد من الضوء على ذلك، ما ذكره الشيخ المفيد في معرض الحديث عن دفن رسول الله ﷺ حيث يقول:

«ولم يحضر دفن رسول الله ﷺ أكثر الناس، لما جرى بين المهاجرين والأنصار من التشاجر في أمر الخلافة و(فات) أكثرهم الصلاة عليه»[2].

ويكمن السر في ذلك في إشكاليتين يزخر بمصاديقهما تاريخ الاجتماع السياسي وهما: إشكالية النفس البشرية والسلطة، وإشكالية الثورة المضادة الكامنة في صميم أية ثورة. . متربصة بلوغ الثورة ذروة المد وتوفر مناخ بداية الجزر والانحدار. . وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بالانقلاب على الأعقاب وهو تعبير بليغ الدلالة على الانسلاخ من الإسلام والخروج منه أفواجاً. .

هذا عرض مكثف جداً لما كان عليه الوضع عند رحيل المصطفى الحبيب ﷺ.

والسؤال الآن: ماذا كان بالإمكان أن يصنع رسول الله ﷺ؟

والجواب: بمعزل عن القناعة السليمة بأنَّ الحق هو ما فعله المعصوم. . وبقراءة سياسية موضوعية. . منزّهة عن الإسقاطات والمواقف المسبقة. . نجد أنه لم يكن بالإمكان أفضل مما كان. .

كان الإسلام على مفترق طريقين، أحلاهما مُر. .

الأول: زوال الإسلام بإعلان الردة الصريحة وتتبع فلول الأوفياء للإسلام وقتلهم.

---

(١) القمي، بيت الأحزان، ص٥٨ نقلاً عن الإرشاد، للشيخ المفيد. انظر: ١/ ١٨٩.
(٢) المصدر، ص٦١ نقلاً عن الإرشاد للشيخ المفيد. انظر: ١/ ١٨٩.

الثاني: بقاء الإسلام كما بقي.. مَشُوبَةً حقائقه ـ باستثناء القرآن الكريم دون تفسيره ـ بالأباطيل.. وصحيحه بالسقيم، والذنابى بالقوادم لتبدأ بعد الانقلاب على الأعقاب مرحلة ﴿**وسيجزي الله الشاكرين**﴾[1] الذين أخلصوا لله تعالى العبودية فتحصنوا من لوثه عَرَضِ الدنيا وحطامها الزائل فلم ينقلبوا مع المنقلبين.. بل مضوا قدماً في نفس الطريق المحمدي على ما مضى عليه البدريون..

كانت الردة المستبطنة التي هي الانقلاب على الأعقاب قد بلغت من حيث قوة الاندفاعة وتهيؤ المناخ وتضافر العوامل المساعدة ما يجعل انتصارها حتمياً.. فإذا تحقق ذلك دون الحاجة إلى الجهر بحقيقة الموقف.. مما يمكّنها من توظيف كل زخم الرسالة لصالحها فليكن.. وإلا فإن المضمر يتحول إلى ظاهر.. والمستبطن يفصح عن نفسه.. والروم والفرس جاهزون للتدخل إذا استلزم الأمر.. فلم يكن الطرفان ينظران بعين الرضا إلى ما جرى في شبه الجزيرة العربية وتحول إلى أمر واقع استعصى معه تدخلهما.. رغم أن هذه الرقعة الجغرافية الصغيرة (شبه الجزيرة العربية) كانت باستمرار مدىً وحِمىً لهما على التناوب..

من هنا أُمِرَ علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بالصبر.. والمرحلة مرحلة العقل بسيفه المغمد لا المصلت المسلول..

كان انتضاء السيف يعني الجهر بحقيقة الانقلاب على الأعقاب... يحرجهم السيف فيخرجهم.. وأبى حفظ الله تعالى للذِّكر إلا أن يفوِّت الفرصة.. ولكن لا بد من تسجيل الموقف المحمدي.. لتكون الأجيال على بيِّنة من أمرها لتستطيع اكتشاف حقيقة ما جرى ولو بعد قرون..

وكان لا بد أن يسجِّل هذا الموقف مَنْ تُجمع الأمة على موقعه الإلٓهي الخاص، دون أن يؤدي ذلك إلى الدخول في دوامة العنف والاقتتال.. وكانت الصِّديقة الكبرى القائد الإلٓهي المحمدي.. والمقياس الرباني النبوي لنزع بُرقع الشرعية المدعاة عن الانقلاب على الأعقاب ليظهر للأجيال على حقيقته.. تسللاً تحت جنح ظلمات العصبيات الجاهلية التي اضطرم أوارها في القلوب الموتورة ضد النبي وأهل بيته عليه وعليهم صلوات الرحمٰن.

---

(١) حول تفسير الآية بحث علمي هام في تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي رحمه الله تعالى.

ومشت صلوات الله عليها إلى المسجد بعد عشرة أيام[1] من وفاة المصطفى الحبيب.. ما تخرم مشيتها مشية رسول الله ﷺ.. وقالت الكلمة الفصل.. ولم تفرغ من خطبتها التاريخية.. الوثيقة الكبرى.. إلا بتقدمة الحجة بما لا مزيد عليه.. ولا مقالة بعده لقائل[2] ولم يترك تعتيم الأنظمة.. وظلم ذوي القربى مجالاً لمعرفة ميسرة لحقيقة ما جرى.. إلا أن التاريخ على عبث البلاط به حفظ لنا أن لغطاً دار في المجلس.. وهتافاً تعالى.. لك أن تستنتج بوضوح أنه من قبيل: لا نبايع إلا علياً.. وهذا ما تؤكد المصادر وقوعه يوم السقيفة[3].

وإليك بعض أجواء نهاية الخطبة:

«فلما سمع أبو بكر خطبتها شق عليه مقالتها فصعد المنبر وقال: أيها الناس ما هذه الرعة إلى كل قالة (أي ما هذا الإصغاء إلى كل مقالة) إلى قوله: إنما هو ثعالة شهيدهُ ذنبه مُرِب لكل فتنة (أي إنما هو ثعلب شاهده جزء منه، وهو ملازم لكل فتنة أو عامل على زيادتها) يستعينون بالضعَفَة ويستنصرون بالنساء..»

ثم التفت إلى الأنصار فقال: قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم (...) ألا إني لست باسطاً يداً ولا لساناً على من لم يستحق ذلك منّا»[4].

قال ابن أبي الحديد: «قرأت هذا الكلام على النقيب أبي يحيى (...) البصري وقلت له: بمن يعرِّض؟

فقال: بل يصرح.. قلت: لو صرح لم أسألك.

فضحك وقال: بعلي بن أبي طالب.

قلت: هذا الكلام كله لعلي يقوله؟!

قال: نعم إنه الملك يا بني.. قلت: فما مقالة الأنصار؟

قال: هتفوا بذكر علي فخاف من اضطراب الأمر عليهم فنهاهم..»[5].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح النهج ١٦/٢٦٣.
(٢) راجع الدرس رقم ٤ حول الخطبة المباركة.
(٣) الطبري ٢/٤٤٣؛ والكامل ٢/٣٢٥.
(٤) أبو بكر الجوهري (٢٢٣هـ)، السقيفة وفدك (ط ثانية)، بيروت، ١٤١٢هـ.
(٥) ابن أبي الحديد، شرح النهج ١٦/٢١٥.

تجدر هنا الإشارة إلى موقف لافت لأم المؤمنين أم سلمة التي تتبوأ بعد أم المؤمنين خديجة موقعاً فريداً بين أمهات المؤمنين، ولها في موالاة أهل البيت سجل محمدي لا يبارى، فقد روي أنها ما إن سمعت كلام أبي بكر المتقدم هذا حتى (أطلعت رأسها من بابها، وقالت: ألمثل فاطمة بنت رسول الله يقال هذا ،وهي الحوراء بين الإنس، والأُنس للنفس، ربيت في حجور الأنبياء، وتداولتها أيدي الملائكة، ونمت في حجور الطاهرات، ونشأت خير منشأ، وربيت خير مربى، أتزعمون أن رسول الله حرم عليها ميراثه ولم يعلمها.. وقد قال الله له: **وأنذر عشيرتك الأقربين**، أفأنذرها وجاءت تطلبه وهي خيرة النسوان، وأم سادة الشبان، وعديلة مريم ابنة عمران، وحليلة ليث الأقران، تمت بأبيها رسالات ربه، فوالله لقد كان يشفق عليها من الحر والقر، فيوسدها يمينه، ويلحفها بشماله، رويداً فرسول الله بمرأى لغيكم، وعلى الله تردون، فواهاً لكم وسوف تعلمون.. فحرمت أم سلمة تلك السنة عطاءها).[١]

و«خرجت الصِّديقة الكبرى من المسجد فأتبعها رافع بن رفاعة الزرقي فقال لها: يا سيدة النساء، لو كان أبو الحسن تكلم في هذا الأمر وذكَّر الناس قبل أن يجري هذا العقد (البيعة) ما عدلنا به أحداً..

فقالت له بردنها (أي أشارت بطرف كمها): «**إليك عني.. فما جعل الله لأحد بعد غدير خم من حجة ولا عذر**». قال (الراوي): فلم يُرَ باك ولا باكية كان أكثر من ذلك اليوم «وارتجت المدينة وهاج الناس وارتفعت الأصوات..»[٢].

وهل تنتهي أجواء نهاية الخطبة عند هذا الحد؟!

إنها البداية التي ما تزال أمواج تفاعلاتها تتوالى.. رغم كل محاولات التحريف والتزييف.. اللذين في سياقهما نقرأ في صحيح الترمذي: «... أن فاطمة جاءت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما تسأل ميراثها من رسول الله ﷺ فقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: إني لا أورث، قالت: **والله لا أكلمكما أبداً**

(١) الطبري، دلائل الإمامة بعدة أسانيد، ص١٢٤ (ط.مؤسسة البعثة ١٤١٢هـ).
(٢) نفس المصدر، ص١٢٢.

فماتت لا تكلمهما، قال علي بن عيسى.. معنى لا أكلمكما تعني في هذا الميراث أبداً، أنتما صادقان!!!»[1].

وقبل أن أقف عند السبب الذي يدعو إلى التحايل على النص الصريح.. أذكر أن البخاري يراوي في صحيحه ما يشكل رداً على ما تقدم حيث يقول:

«فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها (فدك) شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت وعاشت بعد النبي ﷺ ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً ولم يؤذن بها أبو بكر»[2].

أما السبب في محاولات تحريف الكلم عن موضعه.. وقد سمعت نموذجاً منه وهو لكثرته وأهميته موضوع كتاب مستقل.. فيرجع إلى.. عظمة الصِّديقة الكبرى عليها السلام المتسالم عليها بين المسلمين وهي عظمة تبلغ إلى حد أن كلمة إدانة منها لشخص ما كائناً من كان.. ولسلطة ما كائنة ما كانت تكفي لنزع الشرعية عنهما وجعلهما في موقع الإدانة.. لا في قفص الاتهام وحسب..

في هذا الجو.. وبهذه اللغة.. وهذا الأفق يجب أن توضع خطبة الصِّديقة الكبرى.. وتدرس.. وتفهم.

إن مكانة الصِّديقة الكبرى التي ثبتها الله تعالى على يد من ﴿**لا ينطق عن الهوى**﴾.. جعلت الأمة عبر أجيالها كلها أمام حقيقة أن المتكلم في المسجد بعد وفاة رسول الله هو رسول الله تعالى، نفسه... فالمتحدث هو بنصِّه ﷺ شَجَنَةٌ منه، وبَضْعة، وروحه التي بين جنبيه، من يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها...

تتلاشى القرون.. وتذوب.. ويبقى الموقف الفاطمي أكبر من كل الأجيال تستلهم سبيل الدخول إلى باب رسول الله من باب فاطمة!

---

(١) الترمذي، سنن الترمذي، رقم الحديث ١٥٣٤ (موسوعة الحديث الشريف، قرص ليزري، إصدار «صخر»).
(٢) البخاري، صحيح البخاري، الحديث ٣٩١٣ (موسوعة الحديث الشريف).

أرأيت مدى أهمية العلم بعظمة موقفها الإلّهي المحمدي. . على عتبة «آداب ولايتها» عليها السلام ومدى خطورة انتشار الجهل بذلك. .

المحور الثاني:

ما ورد من كلام للصديقة الكبرى موجّه إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

وسأورد النص بصيَغه المختلفة. . مراعياً التسلسل الزمني. . لتتم المقارنة بين الصيغ على هذا الأساس.

يظهر من كلام العالم الجليل والمحقق الثبت الشيخ الأحمدي رضوان الله تعالى عليه أن مصادر هذا النص تنحصر بعدد قليل من بين المصادر الكثيرة جداً الموزعة على المصادر الشيعية والسنية التي أوردت أصل خطبة الصِّديقة الكبرى عليها السلام دون هذا النص، الذي ينقل عادة في ختام الخطبة.

يقول الشيخ الأحمدي: وأما كلامها مع علي عليه السلام فقد نقله «الاحتجاج» كما مر و«المناقب» لابن شهراشوب والشيخ في «الأمالي»، و«البحار» عن «الاحتجاج» و(عن) «كشف الغمة» و(عن) الشيخ رحمه الله[(١)].

وهذا يعني أن الشيخ الأحمدي أعرض بحق عن النص المنسوب إلى السيد المرتضى عليه الرحمة لأنه وُجد على هامش نسخةٍ لكشف الغمة نقلت من خط المؤلف مكتفياً بالإشارة إلى أنه نقل عن نص بخط السيد المرتضى[(٢)]، كما يعني أن نص الشيخ الطوسي (المتوفى سنة ٤٦٠هـ) هو الأقدم، يليه نص الطبرسي في

(١) الشيخ علي الأحمدي، مواقف الشيعة، ص٤٨٦. تجدر الإشارة أني اعتمدت في استخراج النصوص الإصدار الثالث من برنامج المعجم الفقهي بالإضافة إلى برامج «نور» الحديثية المختلفة وهناك موارد اختلاف متعددة بين نسخ الآمالي، إلا أن الفروق في المعنى ليست كبيرة، ويعزز نص الشيخ أن ولده الشيخ أبا علي أورده عنه في أماليه، المجلس السابع بنفس الألفاظ تقريباً ما عدا تريدين بدلاً من ترزئين، وفوارق أخرى لا تذكر. انظر: النص برواية ابن الشيخ في نهج السعادة للمحمودي ١/ ٦٤.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار ٣٩/ ٣١١ ويأتي في هذه الهوامش مزيد إيضاح.

الاحتجاج (٥٦٠هـ) وبعدهما ـ في ما يبدو ـ نص المناقب (٥٨٨هـ) وقد أورد الشيخ الطوسي النص مسنداً في أماليه بالصيغة التالية:

عن (الإمام الصادق) جعفر بن محمد عليه السلام قال: لما انصرفت فاطمة عليها السلام من عند أبي بكر أقبلت على أمير المؤمنين عليه السلام فقالت: يا ابن أبي طالب اشتملت مشيمة الجنين وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريش الأعزل، هذا ابن أبي قحافة قد ابتزني نحيلة أبي وبليغة ابنيّ، والله لقدأجدَّ في ظلامي، وألدَّ في خصامي حتى منعتني قَيْلةُ نصرها والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا مانع ولا دافع، خرجت والله كاظمة، وعدت راغمة، ليتني ولا خيار لي مت قبل زلتي وتوفيت قبل منيتي.. عذيري الله فيك حامياً، ومنك عادياً، ويلاه في كل شارق.. ويلاه مات المعتمد ووهن العضد، شكواي إلى ربي وعدواي إلى أبي اللهمَّ أنت أشد قوة.

فأجابها أمير المؤمنين عليه السلام: لا ويل لك بل الويل لشانئك.. نهنهي من غربك يا بنت الصفوة وبقية النبوة فوالله ما ونيت في ديني، ولا أخطأت مقدوري، فإن كنت ترزئين البلغة فرزقك مضمون ولعيلتك مأمون وما أعد لك خير مما قطع عنك فاحتسبي فقالت: حسبي الله ونعم الوكيل»[(١)].

وأما نص الاحتجاج فهو كما يلي: ثم انكفأت عليها السلام وأمير المؤمنين عليه السلام يتوقع رجوعها إليه ويتطلع طلوعها عليه فلما استقرت بها الدار قالت لأمير المؤمنين عليه السلام ياابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين وقعدت حجرة الظنين نقضت قادمة الأجدل فخانك ريش الأعزل هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي وبلغة ابني لقد أجهد في خصامي وألفيته ألدَّ في كلامي حتى حبستني قيلة نصرها والمهاجرة وصلها وغضت الجماعة دوني طرفها فلا دافع ولا مانع خرجت كاظمة وعدت راغمة أضرعت خدك يوم أضعت حدك افترست الذئاب وافترشت التراب ما كففت قائلاً ولا أغنيت طائلاً ولا خيار لي ليتني مت قبل هنيئتي ودون ذلتي عذيري الله منه عادياً ومنك حامياً ويلاي في كل شارق ويلاي

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي (ط. مؤسسة الوفاء، بيروت ١٤٠١هـ) ص٦٩٤، مجلس ١٤ شعبان.

في كل غارب مات العمد ووهن العضد شكواي إلى أبي وعدواي إلى ربي اللهمّ إنك أشدُّ منهم قوة وحولاً وأشد بأساً وتنكيلاً فقال أمير المؤمنين عليه السلام: لا ويل لك بل الويل لشانئك ثم نهنهي عن وجدك يا ابنة الصفوة وبقية النبوة فما وَنَيْتُ عن ديني ولا أخطأت مقدوري فإن كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون وكفيلك مأمون وما أُعدلك أفضل مما قطع عنك فاحتسبي الله.

فقالت: حسبي الله وأمسكت(١).

* وأما نص المناقب فهو كما يلي:

«.. ولما انصرفت من عند أبي بكر أقبلت على أمير المؤمنين عليه السلام فقالت له: يا ابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين وقعدت حجرة الظنين نقضت قادمة الأجدل فخانتك (كذا) ريش الأعزل هذا ابن أبي قحافة قد ابتزني نحيلة أبي وبليغة ابني والله لقد أجهد في ظلامتي وألدَّ في خصامي حتى منعتني القيلة (كذا) نصرها والمهاجرة وصلها وغضت الجماعة دوني طرفها فلا مانع ولا دافع خرجت والله كاظمة وعدت راغمة ولاخيار لي ليتني مت قبل ذلتي وتوفيت دون منيتي عذيري والله فيك حامياً ومنك داعياً ويلاه في كل شارق ويلاه مات العمد ووهن العضد شكواي إلى ربي وعدواي إلى أبي اللهمّ أنت أشدُّ قوة.

فأجابها أمير المؤمنين: لا ويل لك بل الويل لشانئك نهنهني عن وجدك يا بنت الصفوة وبقية النبوة فوالله ما ونيت في ديني ولا أخطأت مقدوري فإن كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون وكفيلك مأمون وما أعدَّ لك خير مما قطع عنك فاحتسبي فقالت حسبي الله ونعم الوكيل»(٢).

ولدى المقارنة بين هذه الصيغ تستوقفنا الملاحظات التالية:

ـ **أولاً**: لاوجود لعبارات «أضرعت خدك يوم أضعت حدك، افترست الذئاب وافترشت التراب» في النص الأول ولا في الثالث.

---

(١) الطبرسي، الاحتجاج ١/١٤٥ ـ ١٤٦؛ وفي نسخة المعجم الفقهي، ص١٠٧.

(٢) ابن شهراشوب، مناقب آل أبي طالب ٢/٢٠٨.

ـ **ثانياً**: إن العبارات المذكورة بأمثال العرب أشبه.

ـ **ثالثاً**: أن وجود هذه العبارات بين قولها عليها السلام «وعدت راغمة» وقولها عليها السلام: مَا كففت قائلاً.. يشكل قطعاً في سياق الكلام ويَفسح المجال أمام جعل العبارات نفسها، وما بعدها «ما كففت إلخ» بصيغة المخاطب، بينما هي بدونها بصيغة المتكلم ماكففتُ الخ.. والفرق بينهما كبير كما لا يخفى.

ـ **رابعاً**: تطرح الملاحظات المتقدمة تساؤلاً عما إذا كان قد تم إقحام هذه العبارات عمداً لإخراج الكلام في صورة استنكار الصِّديقة الكبرى سكوت أمير المؤمنين عليه السلام وعمق «أذاها» من ذلك.. وشدة «غضبها» لتخليه عنها وعدم المبادرة إلى نصرتها.

وتسأل: أليس سياق النص هو ذلك؟ ثم أليس في قولها عليها السلام: ياابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين وقَعَدْتَ حُجرة الظنين، نَقَضْتَ قادمة الأجدل فخانك ريش الأعزل» كفاية للدلالة الواضحة على هذا المعنى؟

والجواب: أما أن سياق النص هو ذلك.. فهو مرفوض جملة وتفصيلاً.. والأدلة كما يلي:

ـ **أولاً**: ثبوت عصمتهما بالأدلة القطعية.. وهي تنافي المعصية.. ونسبةُ أحد المعصومين المعصية إلى الآخر ينافي كونهما معاً معصومين، إذْ إما أن تكون النسبة صحيحة فقد انتفت عصمة من نسبت إليه المعصية.. وإما أن لا تكون صححية فقد انتفت عصمة من نسب المعصية إلى من لا يعصي.

ـ **ثانياً**: إن حمل كلامها عليها السلام على هذا المعنى (نسبة المعصية التعنيف، والتقريع) يتنافى مع أصل ثابت، واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.. وهو علم الزهراء عليها السلام قبل وفاة المصطفى صلى الله عليه وآله بمآل الأمور.. بدءاً من الانقلاب على الأعقاب، إلى استضعاف أهل البيت عليهم السلام، وصولاً إلى ما يجري على ذريتها عبر القرون.. إن حمل كلامها عليها السلام على هذا المعنى.. يظهرها في صورة من تهالكت على ميراث.. فحرمته.. فأخرجها ذلك عن طورها، فتجاوزت كل الحدود (والعياذ بالله تعالى) مع أن حقيقة موقفها عليها السلام الانتصار لعلي عليه السلام.. وما فدك إلا عنوان لذلك.

- **ثالثاً**: يكشف التأمل في النصوص المتعددة التي صدرت عنها عليها السلام في سياق مواجهة الانقلاب على الأعقاب بدءاً من خطبتها في المسجد النبوي، مروراً بخطابها للنساء عند زيارتهن لها.. وصولاً إلى دفاعها الصريح عن مطالبة علي عليه السلام بحقه وعن عدم التصدي لموجة الانقلاب كما سيأتي.. أن الصِّديقة الكبرى لم تشكك أبداً في موقفه عليهما صلوات الرحمٰن... وأنها كانت تعلم علم اليقين أن الخذلان مسيطر.. والغدر غامر.. ولن يجدي الموقف شيئاً إلا «**نفثة الصدر، وتقدمة الحجة**» لهم وللأجيال..

كما تظهر هذه النصوص بكل جلاء أنها كانت تعيش اللوعة لغربة أبي الحسن عليه السلام وهي ترى شراسة النقمة عليه رغم كونه «**مكدوداً في ذات الله**» كل ذنبه أنه كان يقي رسول الله صلى الله عليه وآله والوحي والتنزيل بنفسه «**كلما فغرت فاغرة للشرك فاها قذف أخاه في لهواتها**».

«**وما الذي نقموا من أبي الحسن نقموا منه والله نكير سيفه وتنمره في ذات الله**» والنصوص بين يديك فاستعرضها تجد المزيد.. ولا يفوتنك وصفها إياه عليه السلام بأنه «**قواعد الرسالة ورواسي النبوة ومهبط الروح الأمين والطبين (ب) أمر الدنيا والدين والآخرة**»(1)، إلاّ أن ثمة نصاً تجدر الوقفة عنده بالتفصيل: عن محمود بن لبيد (وهو ممن يروي عنهم الواقدي بواسطة واحدة) قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله كانت فاطمة عليها السلام تأتي قبور الشهداء وتأتي قبر حمزة فوجدتها عليها السلام تبكي هناك فأمهلتها حتى سكنت فأتيتها وسلمت عليها وقلت: يا سيدة النسوان قد والله قطعت نياط قلبي من بكائك فقالت: يا أبا عمرو لحقّ لي البكاء فقد أُصبت بخير الآباء رسول الله صلى الله عليه وآله واشوقاه إلى رسول الله ثم أنشأت عليها السلام تقول:

إذا مات يوماً ميت قل ذكره   وذكر أبي مذ مات والله أكثر

قلت: يا سيدتي إني سائلك عن مسألة تتلجلج في صدري قالت: سل. قلت: هل نص رسول الله صلى الله عليه وآله على علي بالإمامة؟ قالت: وا عجباً أنسيتم يوم

---

(1) الشيخ الطوسي، الأمالي، ط. الوفاء، ص٣٨٤ في حديثها عليها السلام مع نساء الأنصار.

غدير خم؟! قلت: قد كان ذلك.. ولكن أخبريني بما أشير إليك، قالت: أُشهد الله تعالى لقد سمعته يقول: «**علي خير من أُخلفه فيكم وهو الإمام والخليفة بعدي وسبطاي وتسعة من صلب الحسين أئمة أبرار لئن اتبعتموهم وجدتموهم هادين مهديين ولئن خالفتموهم ليكون الاختلاف فيكم إلى يوم القيامة..**».

قلت: يا سيدتي فما باله قعد عن حقه؟ قالت: «**يا أبا عمرو لقد قال رسول الله ﷺ: مثل الإمام مثل الكعبة إذ تؤتى ولا تأتي** (أو قالت مثل علي) ثم قالت: **أما والله لو تركوا الحق على أهله واتبعوا عترة نبيه لما اختلف في الله اثنان ولورثها سلف عن سلف وخلف بعد خلف حتى يقوم قائمنا التاسع من ولد الحسين ولكن قدموا من أخَّرهُ الله وأخَّروا من قدمه الله حتى إذا ألحدوا المبعوث وأودعوه الجَدَث المجدوث اختاروا بشهوتهم وعملوا بآرائهم تباً لهم أوَلم يسمعوا الله يقول: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾ بل سمعوا ولكنهم كما قال الله سبحانه: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ هيهات بسطوا في الدنيا آمالهم ونسوا آجالهم فتعساً لهم وأضل أعمالهم، أعوذ بك يا رب من الحَوَر بعد الكَوَر**»[1].

فهل ينسجم مع هذه المواقف المتعددة التي هي من نسق واحد.. شديد الوضوح قوي الحجة.. حمل كلامها مع الأمير عليه السلام على معنى التوبيخ والتقريع؟

ـ **رابعاً**: إذا تأملنا الخارطة التي رسمها الوضاعون بوحي من البلاط.. سنجد أن من أبرز معالمها طمس معالم ما يدل على أذى القوم للصِّديقة الكبرى.. وغضبها عليهم.. لأن بقاء ذلك واضحاً يعني بكل بساطة.. امتلاك خط الإمامة لأقوى الأدلة وأقصرها.. وأخطرها.. وهو كما يلي: هذا آذى الصِّديقة الكبرى ومن آذاها آذى رسول الله ﷺ.. والله تعالى يقول: ﴿**إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً**﴾ [الأحزاب: ٥٧].

من هنا حرصت حركة الوضع في سياق سياستها التنفيذية لهذا الخط الأبرز

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٣٦/ ٣٥٢، والمراد بالحَوَر بعد الكَوَر النقصان بعد الزيادة. المصدر، ص٣٥٤.

على نفث سمومها عبر اختلاق موارد (تثبيت) أذية أمير المؤمنين للصِّديقة عليها السلام (والعياذ بالله تعالى) ذلك أنه إن لم يكن بالإمكان إخفاء معالم الجريمة.. فليتم إذاً توسعة نطاقها.. ليتحول من يريد أن يتصدى للإدانة إلى متَّهم!..

وما أكثر النصوص التي تصب في هذا الهدف الشيطاني.. وأكثر منها النصوص التي نعمد إلى تفسيراتها السطحية الواهية فنتبناها وننشرها ـ ربما تحت تأثير الفهم الخاطيء لبشرية المعصوم ـ أذكر منها هنا نموذجاً.. يتضح منه حال الباقي:

جاء في البحار: كان بين علي وفاطمة عليهما السلام كلام فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وألقي له مثال (فراش) فاضطجع عليه فجاءت فاطمة عليها السلام فاضطجعت من جانب وجاء علي عليه السلام فاضطجع من جانب قال: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله يد علي فوضعها على سرته وأخذ يد فاطمة فوضعها على سرته فلم يزل حتى أصلح بينهما ثم خرج، فقيل له: يا رسول الله دخلت وأنت على حال وخرجت ونحن نرى البشرى في وجهك؟ قال: وما يمنعني وقد أصلحت بين اثنين أحب مَنْ على وجه الأرض إلي.

أضاف المجلسي رحمه الله: قال الصدوق رحمه الله: ليس هذا الخبر عندي بمعتمد ولا هولي بمعتقدٍ في هذه العلة لأن علياً وفاطمة عليهما السلام ما كانا ليقع بينهما كلام يحتاج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإصلاح بينهما لأنه عليه السلام سيد الوصيين وهي سيدة نساء العالمين مقتديان بنبي الله صلى الله عليه وآله في حسن الخلق[1].

هذا نموذج من فيض من الروايات المشابهة.. وكلام الشيخ الصدوق رضوان الله تعالى عليه نموذج للتعامل مع النص حين يدل بظاهره على ما ينافي الثوابت.. فلا يمكن قبوله، لهذا التنافي.. كما لا يمكن رده لمجرد الاستغراب.. ويمكن التوقف فيه.. ورفض الدلالة الظاهرية.. بحثاً عن مكنون دلالته.. لذا تجد الشيخ الصدوق قيَّد رفضه لهذا الحديث بقيد (في هذه العلة) كما هو واضح.

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٤٣/١٤٦ ـ ١٤٧.

على هذا الأساس ينبغي أن نتعامل مع النص الذي نحن بصدده وكلام الصِّديقة الكبرى مع أمير المؤمنين عليه السلام فهو ـ كما تقدم ـ ينافي الثوابت إذا أخذنا بتفسيره الشائع من كونه (تعنيفاً) والعياذ بالله تعالى للأمير عليه السلام فينبغي أن يردد كل منّا مع الشيخ الصدوق: ليس هذا الخبر عندي بمعتمد ولا هو لي بمعتقد في هذه العلة، وبناءً على هذا التفسير..

يعزز ذلك بداهة حرص الوضاعين على التسلل إلى نصوص التصدي للانقلاب على الأعقاب ولو بطريقة إضافة عبارة أو عبارات هي بالمثل أشبه.. مما يجعل إمكانية انسجامها مع النص أكبر.. وإمكانية التنبه لها أقل.. وهو ما يبدو أنه حصل عبر إقحام «أضرعت خدك.. يوم أضعت حدك، افترست الذئاب وافترشت التراب» في النص ـ والله تعالى العالم ـ علماً بأن ثمة تفسيراً حتى لهذه العبارات.. يخرجها من دائرة التقريع.. كما سيأتي.

ـ **خامساً**: وأما السؤال حول الفرق بين هذه العبارات وبين ما ورد في أول النص: «ياابن أبي طالب إلى حجرة الظنين».. فالجواب عنه أن عبارات أول النص يمكن حملها بمنتهى اليسر على محمل تعاطف الصِّديقة مع الأمير عليه السلام.. والتفجع لغربته.. وبثه الشكوى وأما العبارات الأخيرة فليست كذلك لخصوصية دلالة «أضرعت خدك يوم أضعت حدك» بشكل خاص، على أنها رغم ذلك يمكن أن تفسر بما يخرجها من هذا النطاق كلياً.. كما مرت الإشارة.. ويأتي التوضيح.

ـ **سادساً**: ورغم كل ما تقدم وبناء على أن النص صدر بهذه الصيغة مع العبارات الأمثالية الأخيرة.. فإن بالإمكان القول إن الصِّديقة الكبرى لم تصدر في كلامها مع الأمير عليه السلام من جو نفسي عاتب.. فضلاً عن أن يكون غاضباً.. والدليل على ذلك أمور:

أولاً: أنها عندما سمعت جوابه وقوله لها فاحتسبي.. قالت: حسبي الله ونعم الوكيل وفي بعض المصادر إضافة «وأمسكت» وهو ما لا يمكن فهمه إلاّ على أساس أن الجو كان جو بث الشكوى مما جرى عليهما معاً.. وعليه بشكل خاص..

ثانياً: كلامها عنه عليه السلام في المسجد.. وبعده سواءً في حديثها مع النساء، أو الزرقي، أو ابن لبيد كما تقدم.. وحمل كلام على لون خاص يتنافى مع كلام قبله وكلام بعده، لشخص واحد ينسجم مع غير شخصية المعصوم كما لا يخفى.

ثالثاً: إن الهدف من كلامهما عليهما السلام ونقله للأجيال عبر الإمام الصادق عليه السلام كما رواه الشيخ الطوسي رحمه الله إثبات حقيقة موقفيهما سلام الله عليهما.. فالصِّديقة العالمة بالتحريف الذي سيجهد الكثيرون أنفسهم لطمس الحقيقة بغباره وركامه.. كانت تريد أن تقول: «والله لقد أجهد (أجدَّ) في ظلامتي وألدَّ في خصامي»، والأمير العالم بالتساؤل المُلِحِّ آنذاك وفي كل عصر حول سبب عدم تصديه مهما كانت النتائج يريد أن يقول: «فوالله ما ونيت في ديني.. ولا أخطأت مقدوري» بمعنى أن لله أمراً هو بالغه ﴿**وكان أمر الله قدراً مقدوراً**﴾ فالتكليف الإلّهي يفرض هذا الموقف.

رابعاً: إن إسقاط التعنيف والتوبيخ على النص هو الذي يجعلنا نفهمه بما ينسجم معهما.. وقد عرفت أن كلام الصِّديقة الكبرى قبل هذا النص وبعده لا يسمح لنا بهذا الإسقاط.. فلنحاول أن نقرأ نصَّها عليها السلام معاً على أساس أنه صادر من منطق التعاطف والتفجع لغربته.. وبث الشكوى إلى الله تعالى: فإذا رأينا إمكانية ذلك.. أقررنا بخطأ التفسير القائم على أساس إسقاط لا مبرر له حيث لا تساعده الثوابت.. ولا الأجواء التي تكشف عنها النصوص المختلفة للصِّديقة عليها السلام حول هذه الواقعة.. ولتكن القراءة هكذا:

١ ـ يابن أبي طالب اشتملت شملة (مشيمة) الجنين وقعدت حجرة الظنين.. كأنها تقول أسفي لما حل بك جراء تنكب القوم وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وانقلابهم على أعقابهم فإذا بك في عزلة بعد أن كنت في صلب الأحداث..

٢ ـ نقضت قادمة الأجدل.. فخاتك (فخانك) ريش الأعزل.. تاريخك الجهادي لا يُشَقُّ له غبار أمسكت بالصقر فجردته من سلاحه (ريشه الذي يطير به) فانقض عليك (فخاتك ـ بالتاء ـ وهو الصحيح لا خانك، راجع المصادر اللغوية: يخوتون خوت الأجادل) انقض عليك ريش الطائر الذي ليس بصقر لقد تصديت

لأقوى الأبطال فجندلتهم. . واليوم يتجرأ عليك هؤلاء «العُزّل» الذين لم يكونوا يحلمون أن تواتيهم مثل هذا الفرصة. . أما معنى قولها:

هذا ابن أبي قحافة إلى قولها فلا مانع ولا دافع. . فهو واضح.

٣ ـ ثم يأتي قولها عليها السلام: خرجت والله كاظمة وعدت راغمة. . وهنا تُظهر المقارنة بين نص الشيخ الطوسي من جهة ونصي الاحتجاج والمناقب من جهة أخرى نقطةً شديدة الأهمية وتتضح عندما نقرأ النص بالروايتين وسأختار مع رواية الشيخ رواية الاحتجاج لأنقل منهما هذا الشطر من النص بروايتيه:

أ ـ في الاحتجاج: «خرجت والله كاظمة وعدت راغمة» «أضرعت خدك يوم أضعت حدك، افترست الذئاب وافترشت التراب، ما كففت قائلاً ولا أغنيت طائلاً». . «ولا خيار لي ليتني مت قبل هنيئتي ودون ذلتي. . ».

ب ـ في أمالي الشيخ: «خرجت والله كاظمة وعدت راغمة، ليتني ولا خيار لي مت قبل ذلتي وتوفيت قبل منيتي. . . ».

والملاحظة الشديدة الأهمية أن ثمة ثلاث عبارات ـ هي التي تقدم ذكر احتمال إقحامها اعترضت كلاماً مترابطاً تتحدث الصِّديقة فيه عن حالتها. . وظلامتها، بينما العبارات الثلاث ـ لا يمكن تفسير الأوليين منها إلا بكونه خطاباً للآخر (يأتي مزيد إيضاح) بينما يمكن قراءة الثالثة بصيغتي المتكلم والمخاطب ما كففتُ قائلاً. . أو ما كففتَ قائلاً. . إلخ. ولا معنى للانتقال من حديثها عليها السلام عن حالتها. . إلى الحديث عن علي عليه السلام ثم ترجع إلى الحديث عن ظلامتها علماً بأنه لا يتعين حمل عبارة افترست الذئاب وافترشت التراب على التوبيخ بل يمكن حملها بيسر على ما تقدَّم في معنى «اشتملت شملة (مشيمة) الجنين. . إلخ. . من التعاطف مع الأمير والتفجع لغربته. .

أما تعبير أضرعت خدك يوم أضعت حدك فهو التعبير الوحيد الذي يقوى فيه احتمال التعنيف جداً. . حيث أنه يحمل مسؤولية إضراع الخد ـ وهو الذل ـ بسبب إضاعة الحد. . وهو بمعنى ترك السيف، ويكون المراد بالحد حد السيف. . ، أو القبول بالتنازل عن الحق الذي هو الحد، إلا أنه لا مبرر للجزم بكونه محض خطاب للأمير عليه السلام وبالتالي لا مبرر لحصر تفسيره بمعنى التقريع. . فإن ذكر

المثال أو الكلام الذي يخرج على صورة المثال في مطاوي الكلام أمر معروف جداً جودة وكثرة.. وكثيراً ما يكون المتكلم يقصد نفسه.. أو ما يشمله وغيره.. وقليلاً ما يكون المقصود هو المخاطب..

وعليه فإن بالإمكان جداً احتمال كون مراد الصِّديقة الكبرى عليها السلام ـ على فرض صدور هذه العبارات منها وعدم كونها مقحمة لحاجة في نفس الجاحظ وأمثاله ـ أضرعنا خدنا يوم أضعنا حدنا.. افترسنا الذئاب وافترشنا التراب.. أي أنه كان علينا أن نخطط لمواجهة هذا اليوم.. عندما كانت الأمور مستوثقة وثنيت الوسادة لنا.. إلا أن هذا التفسير يتعارض مع الثابت من عصمة المصطفى صلى الله عليه وآله.. وعصمتها هي وعصمة أمير المؤمنين عليه السلام.. غير أن هناك تفسيراً آخر أيضاً لا ينطوي على هذا المحذور وهو نفس هذا التفسير المتقدم مع عدم الاعتراض منها عليها السلام على أن المصلحة تقتضي ذلك.. إلا أنها تريد أن تسجل للأجيال أن الذي جعل هؤلاء يقدمون على ما أقدموا عليه.. هو أن تكليفنا الشرعي اقتضى المداراة وإضاعة الحد.. وهذا هو الذي أضرع خدنا اليوم أو أضاع حدنا الذي هو حقنا، أو نصيبنا.. بناءً على أن الكلمة «حدك» بمعنى الحظ والنصيب..

وعليه فتكون عليها السلام بصدد تقرير حقيقة دون أدنى اعتراض على المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله أو على الأمير وعليها عليهما السلام.. وهو معنى معقول جداً.. بل هو المتعين على فرض صدور هذه العبارات منها.. ولا أقل من أن يعترف المكابر أنه احتمال وجيه.. وإذا جاء الاحتمال بطل الاستدلال كما هو واضح فلا مجال للقول الشنيع.. بأنها كانت في معرض تعنيف الأمير. والعياذ بالله تعالى.

ويقوي احتمال كون هذه العبارات دخيلة أنها لم ترد في النص الأقدم الذي يرويه الشيخ الطوسي بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام إلا أن يكون قد وقع تصحيف في العبارة يخرجها من معناها.. لا سيما وأن هذه العبارة بالخصوص وردت برواية السيد المرتضى هكذا: أضعت جدك (بالجيم) يوم أصرعت (بالصاد) خدك[1] (بالخاء)...

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٣١٦/٣٩، وينبغي التأمل في أصل «رواية السيد» فهو رضوان الله تعالى عليه لم يورد هذا النص حين أورد الخطبة في الشافي ولا في (=)

وقد عرفت أن الإصرار على القول بصدورها منها عليها السلام، وبأية صيغة كانت. . لا يقدم أي مبرر لكون هذه العبارات تعنيفية. . .

٤ ـ وأما «المثل» الرابع: عذيري الله إلخ. . فهو برواية الاحتجاج: عذيري الله منه عادياً ومنك حامياً وأما برواية الشيخ في الأمالي فهو «عذيري الله فيك حامياً ومنك عادياً» وهو المورد الوحيد ـ فيما يبدو ـ الذي ترجح فيه كفة رواية الاحتجاج على رواية الشيخ. . ولعل سبب ذلك هو التصحيف، فالعادي أي المعتدي هو من منع الزهراء عليها السلام حقها. . وأقصى ما يمكن أن يلام به الأمير عليه السلام ـ دون حق ـ هو التقصير ـ لا سمح الله ـ في حقها. . فمن الطبيعي جداً أن يكون التعبير عذيري الله فيك أو منك حامياً ومنه عادياً، أو عذيري الله منه عادياً ومنك (أو فيك) حامياً.

وبالرجوع إلى كتب اللغة يتضح أن معنى عذيري الله منه عادياً ومنك حامياً يعذرني الله منه في موقفي منه لكونه معتدياً إلى هذا الحد ويعذرني في موقفي منك لكونك حامياً لي ومدافعاً عني ولم تقم بحق الحماية. . وبعبارة أخرى يعذرني الله لموقفي من هذا العدوان. . وهذه الحماية. .

(=) غيره من كتبه. . كل ما في الأمر أن العلامة المجلسي رضوان الله تعالى عليه وجد نصاً منسوباً إلى السيد المرتضى فأورده للأمانة العلمية. . قال عليه الرحمة: أقول: وجدت في نسخة قديمة لكشف الغمة منقولة من خط المصنف مكتوباً على هامشها بعد إيراد خطبتها صلوات الله عليها ما هذا لفظه: وُجد بخط السيد المرتضى علم الهدى الموسوي قدس الله روحه أنه لما خرجت فاطمة عليها السلام من عند أبي بكر. . حين ردها عن فدك استقبلها أمير المؤمنين عليه السلام فجعلت تعنفه. . ثم قالت: اشتملت. . إلى آخر كلامها عليها السلام (البحار ٣٩/ ٣١١).

والواقع أن النص المنسوب إلى السيد رحمه الله يقوي احتمال الدس في النص والإقحام فيه ـ على الأقل ـ فليس من الصعب الحصول على نسخة من كشف الغمة وكتابة نص عليها بأيّة صيغة ونسبته إلى السيد وبيعه للوراق ليقع في يد من قد ينقل هذا النص فيحصل اللبس والتشويش، وإذا لاحظنا بعض الفوارق بين النص المنسوب إلى السيد وبين نص الأمالي اتضح ما ذكرته بما لا مزيد عليه. . فقد استبدل تعبير افترست الذئاب وافترشت التراب بتعبير مستهجن وهو: وتوسدت الوراء كالوزغ، ومَسَّتَك الهناة والنزغ. . اللمعة البيضاء، للتبريزي الأنصاري، ص٧٣٣؛ والبحار ٣٩/ ٢١٧.

أما إذا كانت العبارة: عذيري الله فيك حامياً ومنه عادياً أو منه عادياً وفيك حامياً ـ على فرض الصدور ـ فهو يعذرني الله لتقصيري في موقفي منه وهو المعتدي، وتقصيري فيك وأنت الحامي.

والاختلاف في المعنى ناشئ من وجود (منك) في الحديث عن المعتدي و(فيك) في الحديث عن الحامي وهذا المعنى نص في المطلوب ينسجم مع الخطبة ومع كلامها عليها السلام بعدها.. وإنما قلت إنه «نص في المطلوب» باعتبار أن القدر المتيقن من المعنى هو أعتبارها الإمام عليه السلام حامياً.. والطرف الآخر عادياً.. وما عدا ذلك من دلالات «عذيري الله» يمكن تفسيره بما لا ينافي هذا القدر المتيقن.. كأن يقال مثلاً ليعذرني الله فيك وأنت الحامي.. ولكن أية حماية تستطيع القيام بها وأنت مأمور بالصبر فينسجم المعنى مع التفجع دون أدنى تكلف.

على أن من الأهمية بجدارة التنبه إلى أن بالأمكان حمل هذه الفقرة برواية الشيخ على معنى آخر مختلف جذرياً لا تشوبه أية شائبة،و ذلك بحمل (حامياً) على كونها حالاً من ضمير المتكلم في (عذيري) ومبرر هذا الحمل أن اسم الفاعل يأتي وصفاً للمذكر والمؤنث على حد سواء، ف(حامياً) هنا بمعنى (حامية) كما يطلق (النائب) و(القاضي) ويراد بهما المرأة النائب والمرأة القاضي، وحمل (عادياً) على العدوان بحق لوجود القرينة، كما في قوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ فإن للأمير الحق على فرض تقصيرها عليهما صلوات الرحمن (وفرض المستحيل غير مستحيل) أن يكون في موقع المطالب لها بحقه، المستعدي لها وعليها فيكون المعنى: أسأل الله أن يعذرني إن كنت قد قصرت في حمايتك وقد تصديت لها في موقفي في المسجد، وأسأله أن يعذرني إذا أردت مطالبتي بهذا التقصير، فتستعديني بحق لتقصيري. وهو معنى ينسجم تمام الانسجام مع التفجع لغربته عليه صلوات الرحمن، كما ينسجم مع ما يفترض أن تقوله بعد رجوعها من المسجد، وينسجم كذلك مع عبارات ما كففتُ قائلاً ولا أغنيتُ طائلاً.

٥ ـ وتجدر الوقفة عند الفرق الأخير بين رواية الشيخ وغيره حول «البلغة»

فهو برواية الشيخ، فإن كنت ترزئين البلغة فرزقك مضمون.. وبرواية غيره: فإن كنت تريدين البلغة إلخ... والفرق بينهما كبير واضح يرجح رواية الشيخ والتي أكدها نقل ابنه عنه في أماليه أيضاً فلاحظ.

نستنتج من كل ما تقدم: أنه لا يصح أن ينسب إلى الصِّديقة الكبرى ما ينافي عصمتها وعصمة الأمير عليه السلام، كما لا يصح أن ينسب إليهما ما يتنافى مع سلامة موقفهما معاً بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وتَفَهُّم كل منهما موقف الآخر لاختلاف التكليف بينهما، فلا يصح إذاً أن ينسب إلى الصِّديقة ما يكشف عن «تظلُّمها» من الأمير عليه السلام ويجب أن يضرب بعرض الحائط الزخرف الذي نتج عن وضع الوضاعين أو تصحيف الناسخين.. لتبقى الحقيقة التي لا يشوبها أدنى شك أن الصِّديقة الكبرى عليها السلام كما صرحت بذلك كانت ترى الظلم الحقيقي في ظلم علي عليه السلام حقه الإلهي ولم تكن ظلامة فدك لتصلح أكثر من شاهد على ما بلغه القوم، ويغلب على الظن أن «المثل» أضرعت خدك يوم أضعت حدك تم إقحامه في الكلام كما يغلب على الظن بدرجة تالية أن «أمثالاً» أخرى تم إقحامها في النص أيضاً.. إذ من الملفت اشتمال نص قصير نسبياً على هذا الكم من «الأمثال».. وإن كان بالوسع تفسير جميع ذلك تعاطفاً مع المولى وتفجُّعاً لغربته عليه السلام.. كما تقدم بالتفصيل.. ولولا اعتبار السند الذي ذكره الشيخ الطوسي في الأمالي لهذا النص.. لما كان ثمة مبرر لهذا التدقيق. والله تعالى العالم وهو الهادي سواء السبيل.

والحمد لله رب العالمين

حقائق فاطمية

في ختام هذه الجولة على أعتاب الصِّديقة الكبرى.. أقدم تلخيصاً على شكل نقاط مختصرة.. لأهم المفاصل التي يجب التنبه لها.. في مجال ولايتها عليها صلوات الرحمٰن.

١ ـ ينبغي فهم ما روي عن رسول الله ﷺ حول الصِّديقة الكبرى.. باعتباره جميعاً يتلخص في معنى: «فاطمة مني وأنا منها» وهو يعني: «فاطمة هي أنا».. وكذلك ما روي عنه ﷺ حول سائر المعصومين عليهم السلام، فقد ثبت لهم ما ثبت له باستثناء النبوة.

٢ ـ وهذا يعني أيضاً أن البحث عن عظمة الصِّديقة الكبرى عليها السلام ـ أو أي من الأئمة عليهم السلام ـ يجب أن يكون في ثنايا عظمة المصطفى الحبيب ﷺ، وفي الصميم.

٣ ـ إن موقع الصِّديقة الكبرى عليها صلوات الرحمٰن.. من منظومة المعصومين الأربعة عشر، موقع مميز.. وهو ما يحتم إعادة النظر في ما ندّعيه من معرفتها عليها السلام كما يحتّم بذل الجهد الدائم بهدف الوصول إلى «حق المعرفة» انطلاقاً من كونهم عليهم السلام الأدلاء إلى الله تعالى ومن أراد الله بدأ بهم.

٤ ـ وانطلاقاً من هذه المكانة، فليس البحث عن أي شأن يرتبط بظلامتهامجرد بحث تاريخي.. وإنما هو في جوهره بحث عقائدي.. وإن تمظهر بالبحث التاريخي..

٥ ـ الاستغراب، والإسقاط، والتحييد، والتشكيك، مفردات لا علاقة لها بالمنهج العلمي.. وعندما تلامس عتبة العقائد، فهي شديدة الخطورة.. فكيف إذا أوغلت.

٦ ـ نور فاطمة، ومصحف فاطمة، وباب فاطمة، وقبر فاطمة وخطبتها في المسجد، من الحقائق الفاطمية التي هي مجال لأدق الأبحاث العلمية المعمّقة. . فلا يصح أن يتم تناولها بمعلومات محدودة. . أو أبحاث مجتزأة. . ولا يرضي الصِّديقة الكبرى أن ندافع عن هذه الحقائق بالشتائم، ولا أن نتناولها بما يوحي بالتشكيك، بل يقتضي الواجب اعتماد البحث العلمي بأبعاده المختلفة، التاريخية التي أنجزت بجدارة، والعقائدية، والسياسية، والمنهجية. . وغيرها. . وليس الخلاف في الحقائق الفاطمية عبارة عن خلاف بين الحداثة والتخلف. . أو الاستنارة والرجعية بل هو خلاف بين وهم الحداثة. . ووهم الاستنارة، وبين الأصالة وسلامة المعتقد. . إنه خلاف منهجي بين المنهج العقلي العلمي. . وما يُظن أنه منهج. . ولا حداثة ولا استنارة إلا حيث يقوم الدليل العلمي ويطبق المنهج السليم. . الحداثة في حسن إسلام العالم وجودة فهمه للأصالة كما هي وسلامة التزامها في المسار العملي، وما عدا ذلك أسوأ بكثير من أن نمن على الله تعالى بإسلامنا، إنه منّ عليه عز وجل بإسباغ وهم الحداثة على هذا النص «المتخلف!» والعياذ بالله تعالى.

حداثة الآلة للمختبرات ولا علاقة لها بحداثة الفكرة والمنهج. . وأساليب التطبيق من عالم الفكر لا الآلة، وكما لم يخلق الله تعالى الكون عبثاً فلم يرسل الأنبياء ولم يقم الأوصياء حججا ليخوضوا ـ معاذ الله تعالى ـ في التخلف والرجعية، ويتركوا العقل والتحضر والحداثة والتجدد لإمعات مثلنا ينطبق عليها قوله عز وجل **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾**. إن أبشع مظاهر التخلف وأشدها قبحا هو البحث عن الحداثة (في الفكر) خارج حدود الأصالة.

٧ ـ للمصطلحات دور هام في نشر الثقافة. . من هنا وجب التنبُّه إلى أضرار استعمال مصطلح «الخطبة الفدكية» وهي في الحقيقة خطبة الخلافة الإلّهية. . والرد على الانقلاب على الأعقاب. . ولئن كانت التقية تبرر استعمال هذا المصطلح سابقاً. . فلا مبرر له الآن.

٨ ـ وفي هذا السياق ينبغي التنبُّه إلى خطورة نشر التفسير الخاطئ للمصطلح، كما هو الأمر بالنسبة لمصطلح «أم أبيها» حيث يتحدث الكثيرون عنه بما يجعله دون مصطلح «أم المؤمنين» الذي اتُّخذ ستاراً لحرب علي عليه السلام في عصره وفي كل عصر. . مع أن مصطلح «أم أبيها» أعظم منه دلالة ووظيفة. . . ورغم ذلك فنحن نحصره في دائرة أنها عليها السلام منحت أباها الحنان بعد وفاة أمها. . رضوان الله تعالى عليها. .

٩ ـ لا تناقض بين الحديث عن ظلامة الصِّديقة الكبرى عليها السلام. . وبين وجوب رعاية مبدأ الوحدة الإسلامية المقدس. . شرط أن يبقى الحديث عن الظلامة علمياً. . منزّهاً عن الأساليب المبتذلة. . ومن أغضبه حتى البحث العلمي الذي يحرص على أن يظل في دائرة الضرورة. . فهو مدعو إلى إعادة النظر في معنى الوحدة الإسلامية، التي تعني التوحد على أساس الحقيقة والتي تعني أن هناك فريقين. . لكل منهما حق البحث العلمي في خصوصياته حريصاً على عدم استثارة الآخر.

١٠ ـ تمس الحاجة في باب الوصول إلى الحقائق الفاطمية. . وكل حقائق الإسلام. . إلى أبحاث منهجية ترسم معالم المنهج الذي يجب اتباعه. . ويشكل التوفر على هذا النوع من الأبحاث المدخل الوحيد الذي يمكِّن من الوصول إلى نتائج ملزمة تخرجنا من دوامةٍ نعرف كيف تبدأ. . ولا نعرف أين تنتهي. .

والحمد لله رب العالمين

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث القدسية

فهرس الأحاديث الشريفة

عن رسول الله ﷺ

الأحاديث المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام

الأحاديث المروية عن السيدة الزهراء عليها السلام

عن الإمام أبي محمد الحسن المجتبى عليه السلام

عن الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام

عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام

عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام

عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام

عن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام

عن الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام

عن أم سلمة (رضي الله عنها)

عن أسماء

فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

فهرس المصادر

حرف الألف

- أبو طالب حامي الرسول، نجم الدين العسكري
- الاحتجاج، الطبرسي.
- آداب الصلاة، الإمام الخميني.
- الأربعون حديثاً، الإمام الخميني.
- الأربعون، القمي الشيرازي.
- الإرشاد، الشيخ المفيد.
- اعتقادات، الشيخ المفيد.
- ألف حديث في المؤمن، الشيخ هادي النجفي.
- الأمالي، الشيخ الصدوق.
- الأمالي، السيد المرتضى علم الهدى.
- الأمالي، الشيخ المفيد.
- الإمام الحسين في المدينة المنورة، علي الشاوي.
- الإمام علي، الرحماني الهمداني.
- الأنوار البهية، القمي.
- الأنوار القدسية، آية الله الأصفهاني الكمپاني.

حرف الباء

- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي.

- بحر المعارف، عبد الصمد الهمداني.
- برامج نور.
- برنامج مكتبة التاريخ والحضارة، برنامج «سما». «قرص ممغنط».
- بلاغات النساء، ابن طيفور.
- بيت الأحزان، القمي.

حرف التاء

- تاريخ الطبري.
- تأويل الآيات، الحسيني.
- تحفة الأحوذي، المباركفوري.
- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، السيد المصطفوي
- التعجب، الكراجكي.
- تفسير كشف الأسرار، المبيدي.
- تفسير الميزان، السيد الطباطبائي.

حرف الجيم

- الجواهر السنية، الحر العاملي.

حرف الحاء

- حلية الأبرار، البحراني.

حرف الخاء

- خاتمة المستدرك، المحدث النوري.

حرف الدال

- الدر المنثور، السيوطي.
- دعاء الندبة.

- دلائل الإمامة، ابن جرير الطبري.

حرف الذال

- ذوب النضار، ابن الحلي.

حرف الراء

- روضة المتقين، العلامة المجلسي الأول.

حرف الزاي

- الزيارة الجامعة.

حرف السين

- السقيفة وفدك، أبو بكر الجوهري.

حرف الشين

- شجرة طوبى، الحائري.
- شرح الأخبار، القاضي النعمان.
- شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني.
- شرح سنن ابن ماجه.
- شرح صحيح البخاري.
- شرح مسلم، النووي.
- الشافي، السيد المرتضى.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد.

حرف الصاد

- صحاح الجوهري.
- صحيح البخاري.
- صحيح الترمذي.

ـ صحيفه نور الفارسية، (جامعة لكلمات الإمام الخميني).

ـ الصراط المستقيم، البياضي العاملي.

حرف الطاء

ـ الطرائف، السيد ابن طاووس.

حرف العين

ـ العدد القوية، الحلي.

ـ عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق.

ـ عيون المعجزات، ابن عبد الوهاب.

حرف الغين

ـ الغدير، الأميني.

ـ الغيبة، الشيخ الطوسي.

حرف الفاء

ـ فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى، الرحماني الهمداني.

ـ فتح الباري، العسقلاني.

ـ الفتوحات المكية، الشيخ محيي الدين بن عربي.

ـ الفصول المهمة، الحر العاملي.

ـ الفضائل، شاذان بن جبرئيل القمي.

ـ فضائل الصحابة، ابن حنبل.

ـ فيض القدير، المناوي.

حرف الكاف

ـ الكافي، الكليني.

ـ الكامل، ابن الأثير وبرنامج الكامل، إصدار «سماء».

- كامل الزيارات، ابن قولوية.
- كتاب سليم بن قيس، تحقيق الأنصاري.
- كشف الغمة، الإربلي.
- الكلمات المكنونة، الفيض الكاشاني.
- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق.

حرف اللام

- اللمعة البيضاء، التبريزي الأنصاري.

حرف الميم

- مائة منقبة، محمد بن أحمد القمي.
- مجمع النورين، المرندي.
- المحتضر، ابن سليمان الحلبي.
- المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني.
- مدينة المعاجز، السيد هاشم البحراني.
- المراقبات، الملكي التبريزي.
- مسائل علي بن جعفر.
- المستدرك، الحاكم النيسابوري.
- مستدرك سفينة البحار.
- مصادر بحار الأنوار (برنامج ـ قرص ممغنط).
- مصباح الأنوار.
- مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، الإمام الخميني.
- المطامح، شهاب الدين بن حجر.
- المعجم الفقهي، قرص ممغنط، الإصدار الثالث.
- المعجم الكبير، الطبراني.

- مقتطفات ولائية، الشيخ الوحيد الخراساني.
- مقدمة شرح القيصري على فصوص الحكم، السيد جلال الدين الأشتياني.
- مكاتيب الرسول، الشيخ الأحمدي.
- مكتبة العقائد والملل، برنامج (قرص ممغنط) إصدار أول، مركز التراث للحاسب الآلي، الأردن، عمان.
- ملتقى البحرين، أبو الحسن النجفي.
- المناقب، ابن شهراشوب.
- المناقب، المرتضوي.
- مواقف الشيعة، الأحمدي.
- موسوعة الحديث الشريف (قرص ليزري، إصدار صخر).

حرف النون

- نهج السعادة، المحمودي.
- نوادر المعجزات، الطبري.

حرف الواو

- وسائل الشيعة.
- وفاة فاطمة الزهراء عليها السلام، البلادي البحراني.

حرف الياء

- ينابيع المودة.

فهرس البلدان

الفهرس